



AMERICAN UNIVERSITY  
LIBRARY  
OF BEIRUT

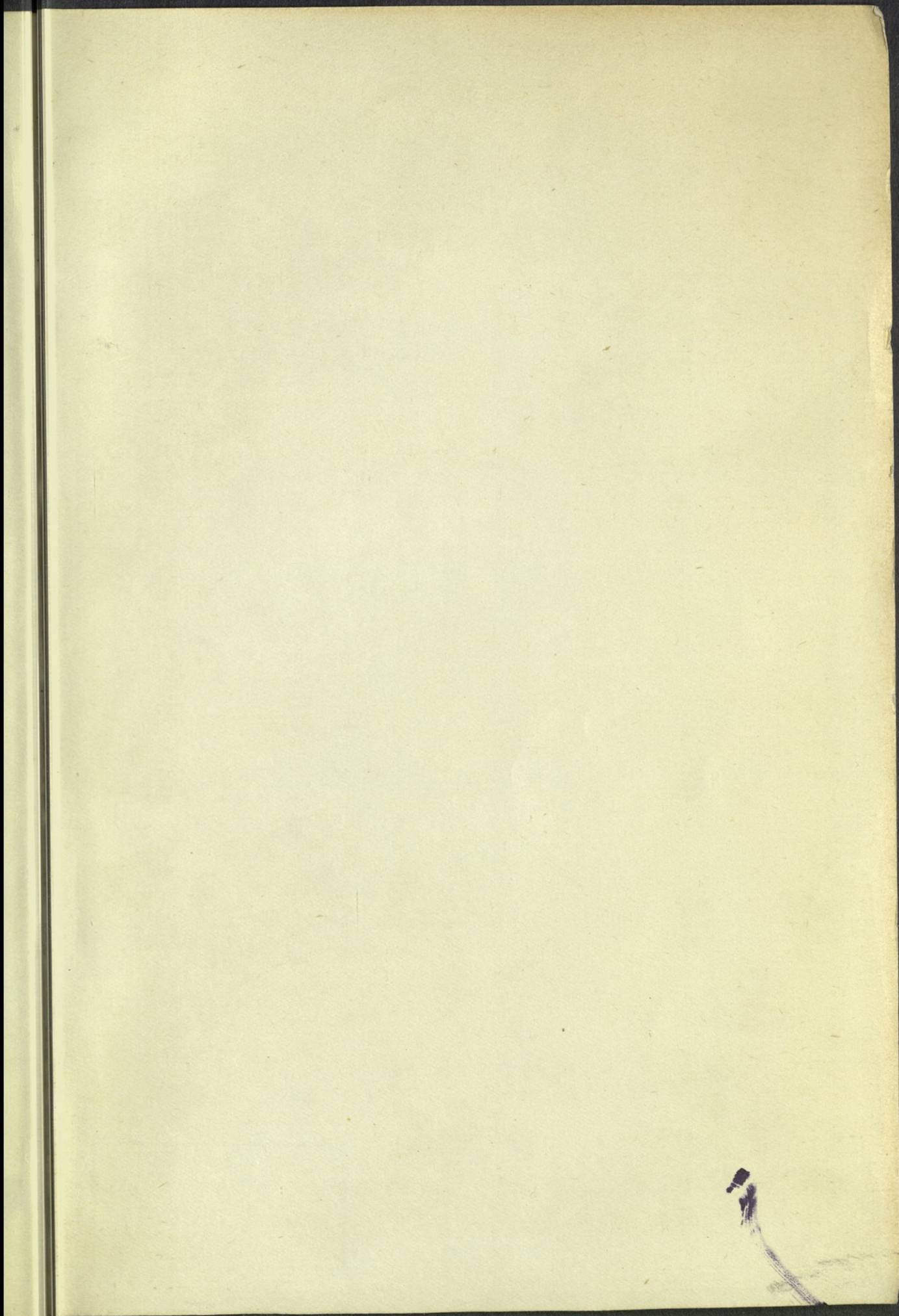


N. MAKHOUL  
BINDERY

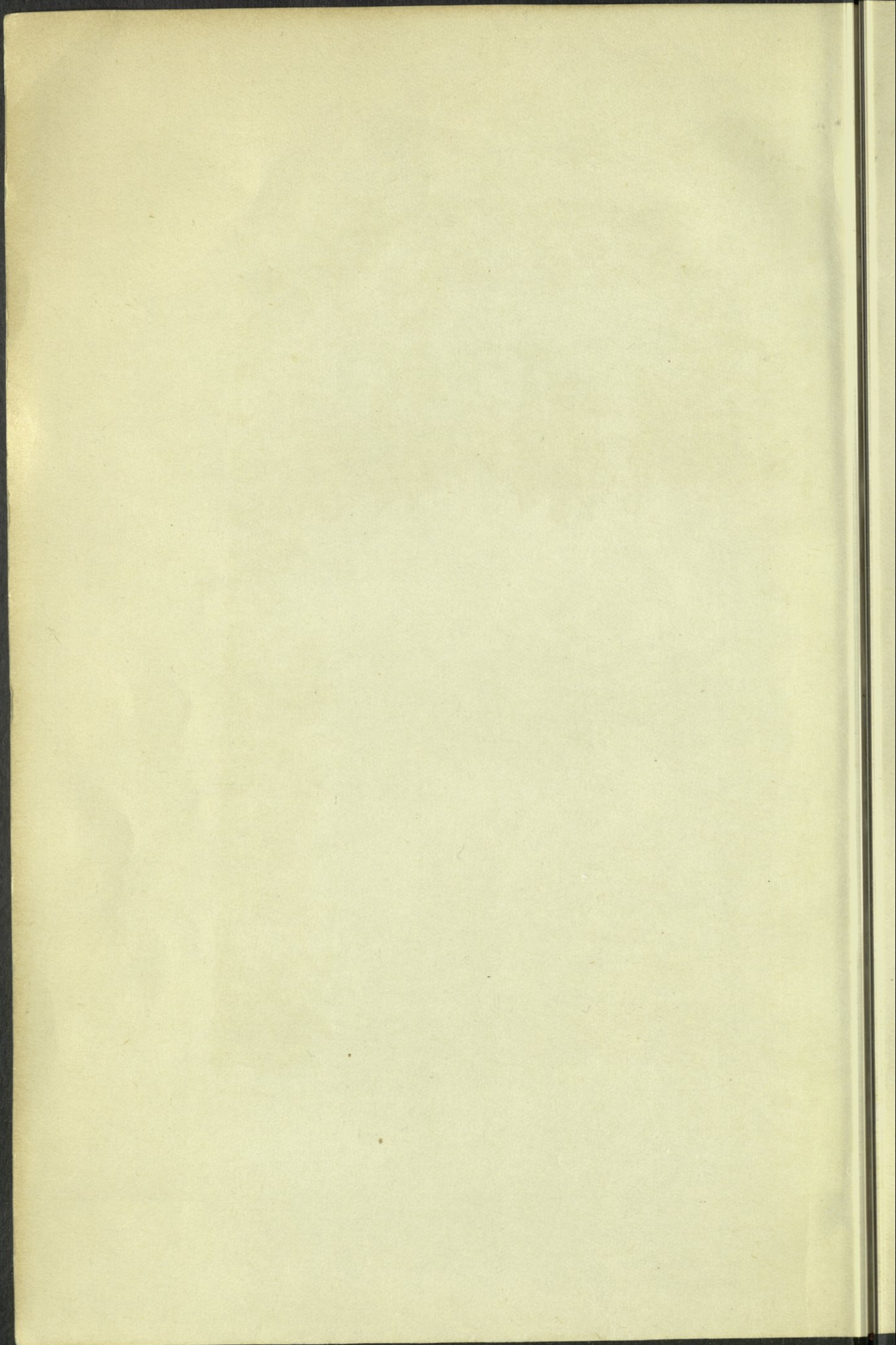
20 JUL 1968

HARISSA TEL. 72

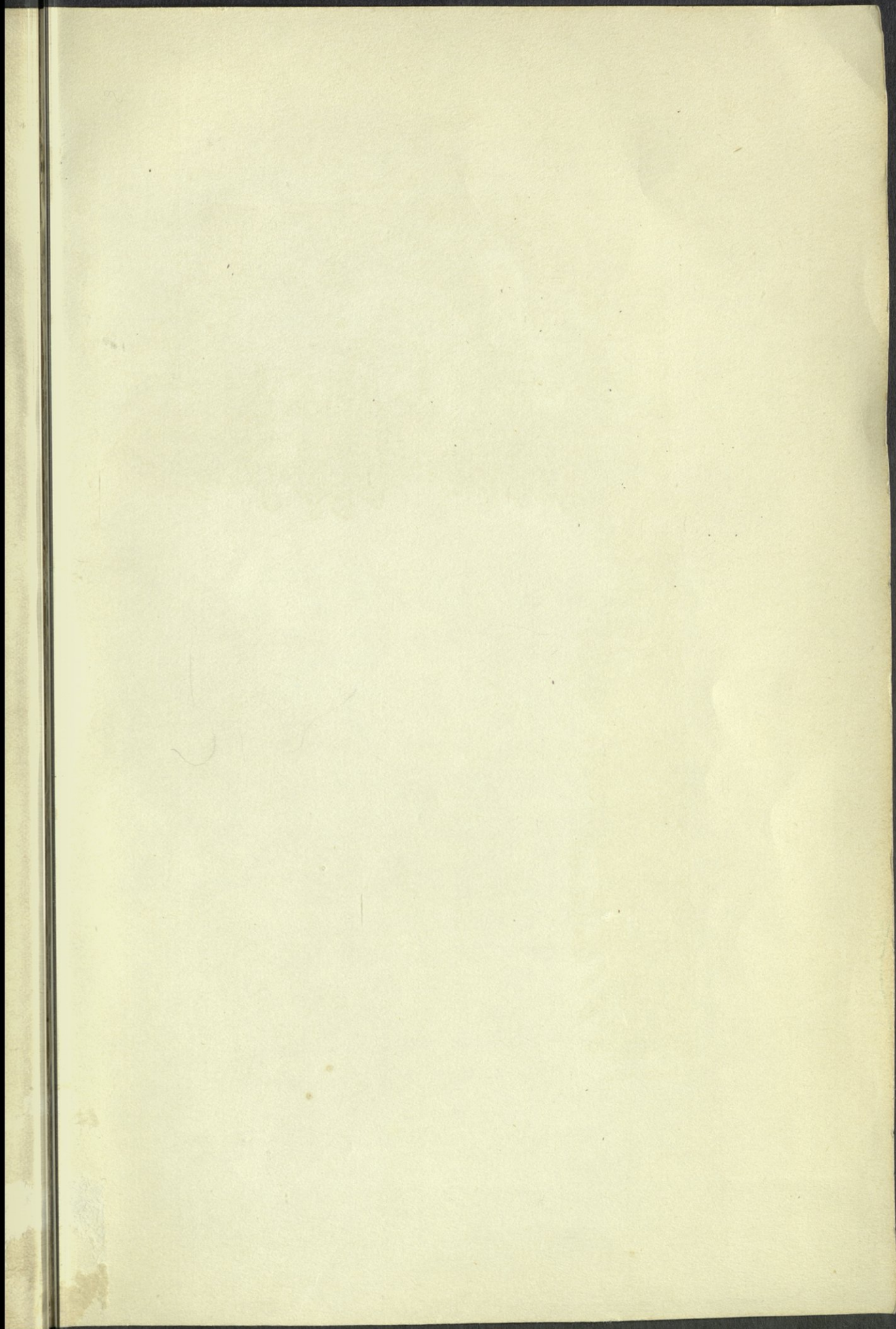














848  
C848mA  
c.1

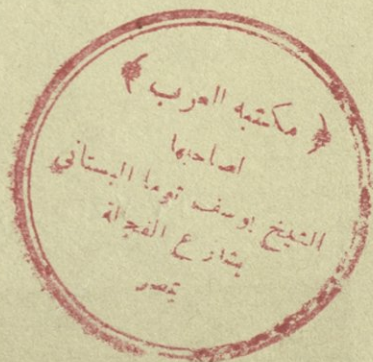
رواية  
اميرة انكلترا

ترجمت للمقتطف  
من رواية اميرة انكلترا الانكليزية

بقلم  
اسعد افندي داغر

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٧







# رواية اميرة انكلترا

## مقدمة

وضعت هذه القصة الكاتبة الفرنسية مدام صوفيا كوتين وقد نسجت سداها من تاريخ  
البعثة الصليبية الثالثة التي جرّدها اهل اوربا على السلطان صلاح الدين الايوبي في اواخر  
القرن الثاني عشر على اثر فتحه لبيت المقدس وجعلت لحمتها الغرامية حب الملك العادل اخي  
صلاح الدين للاميرة متيلدة شقيقة رتشرد ملك انكلترا وأدجت حوادث الحب في عرض  
سرد المعارك الدموية التي افتضتها هذه البعثة ومثلت وقائع الحرب والغرام في مصر والشام  
تمثيلاً جمع بين حسن الوصف وبلاغة الرصف وسهولة الايراد وصحة الانتقاد فكان اصدق  
دليل على براعة المؤلفّة وطول باعها في هذا الفن الجليل

وقد قرأت روايتها في اللغة الانكليزية ورأيت ان اترجمها الى اللغة العربية لقرّاء  
المقتطف وانا واثق انهم يرون رأيي فيها ويجدونها من افضل القصص التي تحسن مطالعتها  
في اوقات الفراغ

ولكنها لما كانت موضوعة في مجلدين لم ارَ بداً من مخالفة الاصل في اماكن كثيرة منها  
تلخيصاً واختصاراً حتى تجيء الترجمة على قدر ما يحتمل المقام ولا تزيد عن الفراغ المعين لها  
في المقتطف والسلام  
المترجم



## اميرة انكلترة

### الفصل الاول

#### تأهب واستعداد

بعد حصار طويل اسال الدماء بجوراً دخل صلاح الدين مدينة القدس ظافراً منصوراً  
فشق على اهل اوربا سماع هذا الخبر وشخص وليم رئيس اساقفة صور الى رومية واخبر  
البابا اربان الثالث بما كان فانقض عليه هذا النبا انقراض الصاعقة وخر عند سماعه مائتاً  
وقضى بين ذراعي رئيس الاساقفة آسفاً ولا يرث الاسف فائتاً

وعلى الفور نشر خلفه غريغور يوس الثامن منشوراً يأمر به باعداد بعثة صليبية جديدة  
وعهد باذاعة هذا المنشور الى رئيس الاساقفة فطاف به اوربا محرصاً منشطاً يستفز  
الاقوام بقوة عارضة نادرة المثال وبلاغة منطق هي السحر الحلال ولم يزل يجهر في النداء ويلج  
في الدعوة وهو يوقظ العزائم المتعاسة وينهض الهمم المتعاسة ويوطن النفوس ويؤلف  
القلوب على خوض غمرات القتال حتى بلغت كلماته عروش الملوك والقيصرة فنهضوا بنفس  
واحدة وتحالفوا على الجهاد متعاهدين بانهم لا يتركون السلاح ولا يطوون رايات الحرب  
والكفاح حتى يدخلوا بيت المقدس ويسترجعوا المدينة التي عدوا سقوطها عاراً عليهم لا يحنمل  
ولا يزيله عنهم الا استردادها بالمجمل

وكان في مقدمة الملوك المحالفين رتشرد الاول ملك انكلترة (الملقب بقلب الاسد)  
وفيليب اغسطس ملك فرنسا وقد عسكر كل منهما في سهل ينتظر تجمع جيشه الذي كان  
عدده يزداد يومياً تلبية لدعوة رئيس اساقفة صور

ثم افرق هذان الملكان بعد ما تواعدا ان يجتمعا في مسينا فاقبل فيليب من جنوى ورجع  
رتشرد الى لندن ليعهد بادارة الملك في غيابه الى اخيه يوحنا وسبقته خطيبته برنغاريا الى  
صقلية حيث ترتب انه يحفل بالاقتران بها

وكانت خطيبته هذه ابنة الدون سانكو دي ناقر وكان لها نصيب وافر من المجلات



الادبية التي استمالت بها قلب ذلك الملك العظيم فأثرها على كثيرات من الاميرات الحسان اللواتي كان يشار الى جمالهن بالبنان وفضلها حتى على اليكس شقيقة فيليب اغسطس التي طالما حاولت اصطياد قلب الاسد بجبال المحاسن ولم تظفر منه بطائل لانه رأى ان حسننها المنقطع النظير ينقصه من الآداب شيء كثير . وهكذا تغلبت فتاة الادب والكمال على عادة الحسن والجمال وفازت باستمالة قلب رجل كان من اعظم الرجال

وقبلا خرج رتشرد لطيته البعيدة المخوفة بالمصاعب والمخاطر رام الاشتراك في الاحتفال بترهب اخيه الصغرى الاميرة متيلده التي لم يرها قط منذ طفوليتها وكان لا يرجو انه يراها بعد الآن . فاراد قبل ان يحجبها ثوب الرهبنة عن نظر العالم او يسقط هو صريعاً في ساحة الجهاد ان يتعرف بها ويودعها الوداع الاخير

فخرج في بطانته ومعه رئيس اساقفة صور ( الذي كان مزماً ان يرأس الاحتفال بترهب اخيه ) الى ذلك الدير الذي وضعت فيه بعد ولادتها باشهر قليلة وكانت عازمة ان تبقى فيه الى الابد

وكانت افكار هذه الاميرة لا تعدى حدود الدير الذي قضت فيه ست عشرة سنة ولا نتيجته نحو شيء آخر سوى الطهارة المطبوعة عليها وعيشة التبتل التي دُعيت منذ نعومة اظفارها اليها . فلم تعلم شيئاً عن شرف اصلها ولا عن رائع جمالها . وقلما درت باحوال العالم الخارجي الذي لم تحترق اصواته حجاب السكون السائد على الدير ولما اقبل اخوها ومن معه اسرعت الى استقباله وقد ورد السرور وجنتيها وشعرت اول مرة في حياتها بفرح غير متعلق بنزورها

وبعد ما استقبلت رئيسة الدير وراهباته ضيفهن العظيم ورحبن به الترحيب اللائق بشأنه ذكر على مسامهن الغرض الذي لاجله عزم على الزحف بجيوشه الى الارض المقدسة راكباً الاهوال ومقتماً الاخطار حياً بشأن الدين والنود عن ذماره وشرع يصف بفصاحته المهدودة سقوط المدينة المقدسة والمشاق العظيمة القائمة في سبيل الناهضين للجهاد في استرجاعها والافراح المعدة لاولئك الذين نشطوا للأخذ في هذا العمل الخطير

فانشأ هذا الكلام ميلاً جديداً في قلب الاميرة متيلده ولم تلبث ان أعلنت رغبتها في مرافقة اخيها الى الارض المقدسة قبل ان تنجذب عن العالم

ولم تجد لها معارضة في ذلك لأن زيارة الارض المقدسة كانت تعد في تلك الايام اعظم ضحية مقبولة عند الله وخير استعداد للتبتل



فتقدمت الرئيسة الى مثيلدة وجعلت في عنقها ذخيرة علامة ايمانها الرمزية واخذتها الى الملك ووضعت يدها في يده وقالت :-  
 "لا تستطيع جلالتك ان تدرك قيمة هذه الوديعة التي استودعك اياها ولا ما بذخره فؤادها من الطهارة والتقوى . واني أتوسل الى العناية السرمدية ان نقي هذه النفس الشريفة ونحمي حياتها الطاهرة ."

ثم التفتت الى رئيس الاساقفة وقالت :-

"واما أنت ايها الاب المحترم فاني استودعك نفساً انقطعت منذ طفوليتها لعبادة الله وأرجو ان تبقيا اهلاً لهذا المقام السامي الخطير . وانت يا ابنتي العزيزة احرصي على قلبك حتى لا تبتلعهُ كبرياء حصولك على هذا الامتياز العظيم ولا تدعي حمامة الوداعة والتواضع تهجر حمى نفسك الطاهر واذكري على الدوام انه ما من مقامٍ - مهما كان رفيعاً ولا من طبيعة - مهما كانت مقدسة - في أمنٍ من التجربة . فسدي اذنك دون الاصوات التي يُراد بها تجربتك واغراؤك واصغي على الدوام الى ما يُسرهُ اليك الروح القدس فلا يعود لصوت العالم سبيل للبلوغ اليك"

فقال الملك :- "كوني مطمئنة ايها الرئيسة المحترمة فبحول الله وقوة حسامي تكون أختي في معسكري كما كانت ضمن اسوار هذا الدير من حيث الأمان والاعتزال عما يكدر صفاء طهارتها ونقاوة آدابها"

ثم اشار بالانصراف وخرج بعد ما ودّع الرئيسة والراهبات اللواتي ودّعن مثيلده الوداع الاخير واستودعنها عناية التقدير

ولما اخذت اسوار الدير ثواري عن نظرها شيئاً فشيئاً ابتدأت تضطرب وتنزعج ولاسيما لما لاح لديها الافق عن بعد شاسع فسألت اخاها بجيرةٍ ولهفة عن المسافة التي تفصلها عن الارض المقدسة فاجابها ضاحكاً من سذاجتها :-

"يجب ان تقضي يا عزيزتي اياماً بل شهوراً طوالاً قبل ان نصل الى المكان المقصود . ولكن ماذا يخيفك يا مثيلدة اما قلت لك منذ هنيهة ان هذا الصارم البتار يقيمك جميع المخاوف والاحطار"

ولا حاجة الى وصف المؤثرات التي احاطت بنفس مثيلدة في اثناء هذا السفر الطويل المحفوف بالمشاق والاهوال . فللتقارىء ان يتصور ما توثره انواء البحار وعصف الرياح وعجيج الامواج وصراخ البحارة واغاني العساكر في فؤاد فتاة لم تعرف قبل الآن غير غرف الدير ولم



تسمع سوى اصوات الراهبات في إنشاد التساييح  
ولما بلغ رتشرد مسينا عرف اخذه بخطيبته وما ابطأت هاتان الفتاتان ان تعارفتا وتآلفتا  
ووجدت كل منهما برفيقتها خير ما صبت اليه نفسها

### الفصل الثاني

#### تاج واكليل

ان الاختلاف الذي نشأ بين رتشرد وفيليب اغسطس وكان منشأه في الغالب تنكرد  
ملك صقلية المنافق حال دون احنفال ملك انكلترا باقترانه بخطيبته في مسينا ولم يعد يتمكن  
من هذا الاحنفال الا بعد غلبته على قبرس  
فبعد ما قهر اسحق ملك قبرس واستأثر بعرشه زاد تاجاً آخر على رأس برنغاريا  
ولما ذاعت انباء انتصاره اسرع اليه لوسيان ملك القدس وهو شاب متغطرس متصلف  
لم يتمكن من صيانة عرشه مع شدة بسالته وشجاعته . وكان في هذا الوقت مخلوعاً مطروداً وقد  
ضعف حقه في المطالبة به لان كونراد مركيز مونتفات كان يعارضه فيه  
على ان نفسه ظلت تجده بامكان استرجاع تاجه من ايدي اعدائه ولهذا جاء يستعين  
برتشرد على مناظره كونراد الذي اخذ فيليب اغسطس بناصره وصرح حين جاء الى سورية  
بصدق دعواه وصحة طلبه . فقويت شوكة كونراد حاكم صور المدينة الوحيدة التي بقيت في  
حوزة الصليبيين في سورية واغلق ابواب عاصمته في وجه لوسيان ورفع عليها راية التمرد  
والعصيان

وكان ريموند امير انطاكية وبوهيموند امير طرابلس ورينود امير صيدا وليونراد امير  
ارمينية وغيرهم من امراء الصليبيين قد صحبوا لوسيان الى قبرص بتظلمون الى رتشرد ويستعينون  
به على رد حقوقهم المهضومة فوعدهم بانه لن يبرح بلاد الشام حتى يثبت كلاً منهم في امارته  
لكنه ابى لعزة نفسه قبول ما عرضوه عليه وهو ان يكون ملكهم المطلق السيادة ويكونوا هم  
امراء تابعين له يؤدون اليه الجزية . وطلب منهم ان يكتسوا عنده ويحضروا احنفال اقترانه  
برنغاريا فاجابوه الى ما طلب بمسرة وارتياح لا مزيد عليهما  
وقد جرى ذلك الاحنفال على وجه تجلّت فيه الابهة والعظمة بابهي المجالي وابهر المظاهر  
وكان اول احنفال دنيوي حضرته متيلدة وهي سادلة برقعها الطويل على محياها الجميل فاذهلها  
هذا المشهد العظيم وراع ظهارة نفسها



وكان لوسيان جالساً بجانب أخيها الملك فاستشف من خلال برقعها لمحات من حسنيتها  
البديع انشأت فيه ميلاً شديداً اليها . ولكنه ما أبطأ ان ذكر زوجته سيبل ونذور متيلدة  
الدينية فتصور الموانع التي تحول دون الجري في سيبل هذا الميل الجديد واضطر ان يطويه  
في صدره على علاقته ولا يبوح به في الوقت الحاضر الأ لذاته  
وبعد انقضاء احتفال الزواج نهض الملك رتشرد يتأهب للاقلاع الى فلسطين . لكنه  
اذ علم من لوسيان ان بحر الروم مغشي بسفن العرب من شمال سورية الى مصر وان الملك العادل  
اخا صلاح الدين واعظم ابطل الشرق يروح ويجيء في عرض البحر ابى ان يسمح لزوجته  
وشقيقته بالذهاب معه والتعرض لاطار الحرب التي تهدده وحدته نفسه المطبوعة على  
ركوب الاهوال ومصادمة الابطال ان يلاقي خصمه في ساحة لاتعاق فيها ذراع الشديدة  
عن الطعن والضرب بالدفاع عن اعز الناس عنده . فارتأى ان يتركهما واعوانهما في قبرس  
وينطلق هو اولاً برجاله حتى اذا بلغ العرب خبر خروجه تجمعوا عليه من كل صوب وتركوا  
البحر مفتوحاً . وبناء عليه امر ان السفينة المعدة لزوجته واخته وحرسهما لا تنقل من قبرس  
حتى يكون هو وجيشه قد دخلوا ميناء عكا  
فاذعنت متيلدة لمشئته أخيها بلا توقف لانها متعودة على الطاعة الكاملة منذ ميظت عنها  
التأم . اما برنغاريا فراعها خبر هذا الفراق الفجائي وجشت عند قدمي زوجها متوسلة اليه ان  
يسمح لها بان تقاسمه الاخطار المزمع ان يخوض غمراتها  
وعلى رغم شدة تأثره من حزنها واكتئابها لبث مصرّاً على عزمه موضعاً لها ان حضورها  
معه يضعف شجاعته التي لم يعترها ضعف حتى الآن ويحدث فيه قلقاً واضطراباً لم يشعر بهما  
من قبل وربما اضطر ان يتنكب حرباً لا بد له من خوض غمارها واقتحام اخطارها  
وكان من عزم الملكة ان تزيد في اللجاج وتكثر من الالحاح ولكن الملك كان ذا عزيمة  
ماضية لم يقدم احد قط على معارضتها فاشار الى الملكة ان تلوذ باطراف السكوت وتجيئه الى  
ما اراد بلاء الطاعة والامثال . وبناء عليه سكمت خوفاً من غيظه ولم تحر جواباً  
ولما أفلح من قبرس سار معه ملك القدس واعوانه الامراء وبقي مع الملكة دوق  
نورثمبرلند ودوق غلوسستر وسيمون دي مونتفورت كونت ليسستر وبعض اشراف فرنسا  
منهم البطل آدم دي تورين كبير الحجاب وآنجوران دي فاين وجوسلين دي مونورانسى  
وهذا الاخير كان شاباً حسن المنظر جميل الطلعة شديد البأس ومع انه كان في مقتبل  
العمر وزهرة الصبوة فلقد ظالمنا عمل اعمال صناديد الرجال وأقدم إقدام اعظم الابطال



واراد رتشرد ان يبقى رئيس اساقفة صور مع زوجته وشقيقته فخاطبه رامقاً الملكة بنظر يشف عن شيء من التوبيخ اللطيف :-  
 ”انهما مفتقرتان ايها الاب المحترم الى تعليمك ايها ان تعبدا الله بالصبر والطاعة كما نعبده نحن بالقوة والبسالة“

وبينما كان رتشرد واعوانه في عرض البحر طلع عليهم مركبان من مراكب العرب وفي كل منهما ثمان مئة رجل . وبعد قتال عنيف استظهر الصليبيون عليهم فاغرقوا احدهما واسروا الآخر واستأنفوا المسير بلا معارض حتى رست سفنهم امام عكا في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١١٩١

ولما دخل لوسيان المدينة بلغه خبر وفاة زوجته سيل فأزال هذا النبأ مانعاً كبيراً من طريق آمله التي علل نفسه بها حين رأى متيلدة لكنه هدده في الوقت نفسه بخسارة فادحة من وجه آخر لأن سيل ابنة بودوين ووارثة عرش القدس الذي لم يتمكن من الجلوس عليه الاً بالاقتران بها . والآن بموتها يتحوّل هذا الحق الى شقيقتها زوجة خصمه مركيز مونتفرات فترجح كفته عليه . لكنه مع هذا كله ظلّ متقوياً برتشرد ولم ينفك يجاهر بحق انتقال الملك اليه . وكان من حزبه اليسانيون والفيليون وامراء مار يوحنا . واما الهيكليون والجنوبيون والالمانيون المنقادون الى فيليب اغسطس فكانوا من حزب كونراد مركيز مونتفرات الذي تباهى بكونه حاكم صور وجزى بمنظره لوسيان الذي كان ملكاً بلا تاج ولا شعب وفيما كانت هذه المظاهرات العدائية مستنحلة في معسكر الصليبيين كان السلطان صلاح الدين يعنى بتحصين بيت المقدس وتوفير اسباب مناعته حتى لا يقوى اعداؤه على استرجاعها في المستقبل

وكان معسكر رتشرد في جهة البحر بحيث يسهل عليه ان يرقب حركات المحاصرين ويمنع عنهم النجدة برّاً وبحراً

وفي شرق المدينة خفقت رايات فيليب اغسطس مقابل امنع ابراجها المدعو بالبرج ”الملعون“ . وفي قلب المعسكر نشرت اعلام النسر الالمانية . وكانت هذه الجيوش الثلاثة تميز بعضها عن بعض بلون الصليب المعلمة به راياتها . فكان في راية فرنسا احمر قانياً وفي راية المانيا ابيض يققاً وفي راية انكلترا اخضر حانئاً

وكان ديوان رتشرد يفوق الدواوين الاخرى في مظاهر الابهة والعظمة وفاخر الاثاث والرياش . اما ديوان فيليب فكان بسيطاً جداً من هذا القبيل لكنه عامر بنجبة اشراف فرنسا وعظائمها



ولم يستحسن رتشرد ان يقضي الزمان باطلاً في ظلال الترف والتنعم فالحَّ بوجوب تشديد الحصار على عكاء لأن الاسراع في فتحها يسهل عليهم استرداد القدس . لكن كونراد المتطرس أبى ان يترك حصنه صور ويشدَّ ازر الصليبيين ما لم يعدوه بتاج بيت المقدس . وظلَّ فيليب ايضاً ملازماً جانب السكون غير مبدئ في هذا الامر حراً كما لأنه احبَّ ان يؤيد كونراد في ما اراد ورام ان يخالف رتشرد في رأيه تشفياً منه او حسداً له فلم يوافقه على تشديد الحصار ولا شاركه في الهجمات العامة بل اقتصر على مناوشات طفيفة ليست بذات شأن ولما رأى العساكر ما بين اعظم قادتهم من الشقاق وعدم الاتفاق جأهوا بالتذمر والشكوى وانكروا عليهم هذا الفعل المعيب الذي يخشون انه يحول دون بلوغ الغاية التي تجتهدوا للجهاد في سبيلها ويريحوا اوطانهم حباً بتحصيلها

وكان لوسيان هذه المدة كلها ملازماً للملك رتشرد متصلاً به غير منفصل عنه دقيقة واحدة - لأنه منذ وفاة قرينته سبيل أصبح يتوقع صحة ما حلم به من جهة الاميرة متيلدة . وقد نشطه الى ذلك ما تمكن بيته وبين اخيها من علاقات الصداقة وصلات المحبة - فكان رتشرد مرجع نجاح لوسيان وتحقق امانيه في الامرين - متيلدة وعرش القدس ولما كان رتشرد صادق العاطفة سليم النية الخدع بملت لوسيان وتلقته ولم يرتب في صدقه وإخلاصه فازداد تعلقاً به حتى انه لم يعد قادراً على مفارقتها . فكانا من ذلك الحين ينمان في خيمة واحدة وبأكلان على مائدة واحدة ويحاربان في جهة واحدة . ويقتسمان الغنائم بنسبة واحدة حتى اوشكا ان يكونا شخصاً واحداً ونفساً واحدة

### الفصل الثالث

#### أسر الملكة والاميرة

اما الملكة فكانت منذ فارقتها الملك تقضي معظم وقتها في البكاء والصلاة ممثلة لعينيتها ذهاب من تحبُّ نفسها فريسة في ايدي الاعداء وكثيراً ما رأتها في نومها مضرباً بالدماء او راسقاً بقيود الاسر يقاسي صروف العناء . وقد حاول رئيس اساقفة صور تسكين اضطرابها وازالة قلقها فكان كمن يحاول ان يقبض الهواء او يكتب على صفحات الماء . على ان ما عجز عنه رئيس الاساقفة تمَّ بما لا مزيد عليه من السهولة والسرعة عند وصول المرسلين من قبل الملك يدعوها اليه

ومع ان البسالة عدت في هاتيك الايام من لوازم الامارة ومميزاتها وكان حرس الملكة



من اعظم اشراف اوربا وأمرائها لم يكن واحد منهم يجسر ان ينظر الى اقنوم متيلده الطاهر الا بعين الخشية والوقار لأنها مع ما ازدانت به من رائع الحسن وفائق الجمال كانت ممتازة بمظهر طهارة وصلاح تسكن عنده كل حركة تنشأ عن الميل العالمي . وذلك كان واقعاً لها من جوامع الحب وطوامع الاهواء . وقبلاً كانت تظهر للرجال ولكنها اذا ظهرت كان الناظر اليها مطرقة متحجبة يتحوّل عن الإعجاب بمنظرها الوسيم الى الخشية والوقار والتجيلة والتكريم فائلاً في نفسه ما هذه بشرًا ان هي الا ملك كريم

وكانت الملكة قد ألفتها واحببها حباً لا مزيد عليه . فشقّ عليها ان تراها في هذه العيشة الخسنة المقضية بالتقشف وقّع الجسد وحبس النفس حتى انها حاولت غير مرة ان توقظ مطامعها بالاشارة ولو من طرف خفيّ الى الامراء والملوك الذين يودون ان يطرحوا تيجانهم عند قدميها متسابقين الى نيل نعمة في عينها . وكثيراً ما مثلت لها الافراح الناشئة عن الاتحاد بالزواج فلم تلقَ منها الا اعراضاً وارتباكاً - لا خوفاً من التجربة بل انكاراً لاشارات كهذه تاباها نفسها الطاهرة ويمجها ذوقها الصالح

وبعد ما اقلعت السفينة التي استقلتها الملكة واعوانها من جزيرة قبرص جرت الرياح على ايثارها ووفق مشتهاها وسارت تشق عباب المياه حتى اقبلت على عكاء واستطاع الركب ان يتبينوا المدينة ولو على بعد شاسع . واذ ذاك هبت ريج عاصف بقوة لا تقاوم وخيبت كل مساعي البحارة في دفع السفينة الى البر

وظلت السفينة ساعات ترنخ ترنخ السكران وتضطرب اضطراباً ضاعت في تسكينه حيلة البحارة والربان حتى كانت اشبه بكرة تتقاذفها التيارات المتلاطمة والامواج العاجزة . ثم مالت العاصفة في مهبها الى الجنوب الغربي ودفعت السفينة على تخوم دمياط الرملية . ولم يلبث العرب المرابطون هناك ان رأوا من بعيد فاسرعوا الكرة عليها طامعين في اسرها وسيبي من فيها

ولكن لم يكن حصولهم على ما طمعوا فيه بالامر السهل لان الرجال الذين يحاربون دفاعاً عن ملكتهم والامراء الذين كان من اكبر فروضهم تضحية نفوسهم في سبيل صوت الجمال والدين لا يسلّمون للاعداء قبلاً يصابونهم حرباً وعواناً . ولذلك برز في طليعة الامراء اصغرهم سنّاً واشدهم بأساً اعني به جوسلين مونترانسي فاستل حسامه وهجم هجمة الاسد الضرغام وصدّم خصومه صدمة لم يستطيعوا عندها ثباتاً فاضطروا الى الاجسام . واذ ذاك اقبل من ميناء دمياط مركب آخر مشحون بالكماة فحول ميل كفة الانتصار في ذلك النهار . ولما ابصره الذين كانوا في المركب الاول وشاهدوا في مقدمه رجلاً طويل القامة بادي الهيبة هتفوا من شدة



الفرح :- " الملك العادل ! الملك العادل ! الحمد لله الحمد لله " ثم استأنفوا المحجوم وجددوا القتال . اما جوسلين فوطن نفسه على ان يموت موت الابطال ويبيع حياته بارواح من يقفون في طريقه من الرجال . وظفق يدور ويجول ويفتك ويصل حتى قطعت فتكاته عزائم الشجعان واقام حوله سوراً من الهامات والابدان وفيما كان رئيس الاساقفة في خيمة الملكة قائماً بحراسة الاميرتين سمع العرب يهتفون هتاف الانتصار فغشيتة سحب اليأس وقال لهما :-

" شاركاني يا ابنتي في التوسل الى الله الذي عليه وحده يجب ان نعتمد الآن لنجاتنا - هوذا الملك العادل هنا - الملك العادل الذي لا تستطيع قوة في الارض ان تقاومه " وبعد ما جثنا معه للصلاة الى الله التماساً للخلاص من وهدة المخاطر التي انطبقت عليهم سألته الملكة مضطربة :-

" من ذا العربي الذي انذرتنا بقطع الامل من النجاة منه ؟ "

فاجابها :- " هو الملك العادل اخو السلطان صلاح الدين والدنا اعدائنا وقد شاهدته بعيني ماداً مطار النار والدمار على مدننا واهرائنا . ولولاه لم تسقط القدس في ايدي المحاصرين مهما طال امد الحصار ولا دخلها صلاح الدين بموكب الظفر والانتصار " وفيما هو يتكلم ارتفعت اصوات السلاسل والاغلال مؤذنة بانتهاء القتال فهرع الى خارج مندفعاً بين اخوته لعله يستطيع تخفيف العذاب الذي اعد لهم . وكان يعرف الملك العادل من وقت طويل ولا يجهل ماله عنده من كرامة الشأن وحسن الرعاية فتركت الاميرتان وحدهما يتوقعان ما سيعمل بهما واستسلمت الملكة لعوامل الحزن واليأس من جراء هذا الخطب المفاجيء الذي سوف يقضي بتطويل شقة عاها عن زوجها ورفعت يديها تدعوه مستغيثة به . وضغطت متيلدة الذخيرة التي في صدرها المهداة اليها من الرئيسة مستمدة غوثاً من ذلك الذي اتجهت كل افكارها اليه واصبح معوثها في النجاة عليه ثم فتح باب خيمتها بعتة ودخل منه رجل ذو هيبه ووقار وسيادة خالق لها وخلقت له هذا الرجل الجليل خاطب الملكة بلقنها قائلاً

" لاتخافي ابنتها السيدة ان ملكة انكلترا وجميع من هم معها اسراي - لكنهم لن يكونوا ابداً عبيدي . وسوف تنقلون الى قصري حيث يحف بكم رجالي وتعاملون بما تستحقون من الاكرام وتمكثون مقيدين بوعدهم فقط حتى يتمكن اخي صلاح الدين من مفاوضة وتشرد في امركم "



فارتعدت فرائص متيلدة عند سماعها هذه الكلمات لانها حققت مخاوفها وهمت ان تنسل من جانب الملكة وتنجب عن النظر ولكن الملكة ادركت ذلك فامسكت بيدها وقدمتها الى الملك العادل قائلة :-

” ان هذه ايها الامير شقيقة رتشرد تقاسم زوجته الاعتراف بحسن صنيعك فاعتمد كلامنا وثق بنا ولسوف تجدنا اهلاً لذلك “  
فتقدم الملك العادل الى متيلدة ومدَّ يده ليصافحها فحنت رأسها ونكصت الى الوراء وزادت في التجنب والتستر

ولما جاء الملك العادل باسراه الى ظهر سفينته اعانه النور على تحقيق ملامح كل من الاميرتين اللتين وقعتا في قبضة يده . وكانت الاميرة متيلدة قد حسرت قناعها ليسهل عليها النزول الى الزورق الذي أُعدَّ لنقل الاسرى الى دمياط فراقه ما ابصره في وجهها البديع من الحسن الفاتن والجمال النادر المثال ولم يكن يعلم شيئاً عن الحاجز الذي اقامه في وجهه قانون الرهينة فضلاً عن العوائد القومية . فترك الملكة واسرع الى جانب متيلدة واخذها بيديه وحملها نازلاً بها الى الزورق ووضعها على متكأ وجعل يتفرس فيها بنظر يتقد شوقاً وحباً وقد جرى هذا كله بسرعة لا مزيد عليها حتى اخذت متيلدة دهشة وحيرة لم تقوَ معها على ابداء اقل مقاومة ولثت دقائق لا تبدي حراكاً كعصفور في قبضة الصياد . ثم وثبت على قدميها ورفعت نظرها الى وجهه وهي تتوقع ان ترى فيه افتح هيئة لكنها دهشت اشدَّ الدهش عند ما شاهدهة ذا صورة جليلة وملائح جميلة ومظاهر خطيرة تشف عن عزة نفس خليقة بالاجلال وتدل على رفعة شأن يندر ان يكون لها نظير عند افضل الرجال فالتقت بنفسها عند قدمي رئيس الاساقفة الذي عطف عليها وهي توارى خدَّيها المصبوغين بجمرة الخجل في مطاوي رداءه وتذرف دموعاً احراً من الجمر فأدرك رئيس الاساقفة ما نالها فأجلسها وبذل جهده في مواساتها ثم التفت الى الملك العادل وقال له

” اعلم ايها الملك ان هذه الفتاة ليست كباقي الفتيات بل هي من سلالة ملوك انكلترة تخلت عن مقامها العالمي الرفيع ووقفت حياتها على خدمة الله . وأقل لمس بنوبها من رجل يعد تدينساً لتبتلها الطاهر المقدس . فاسمح لها اذا ايها الامير المعظم ان تبقى امينة لتدورها امانة في تزهدا حتى يقضي الله بتعيين الوقت لاتفاق صلاح الدين ورتشرد من جهة اطلاقها “  
وكان الملك العادل لم يزل شاخصاً في تلك الفتاة الحسناء مسحوراً بجبالها البارع فأجابته



” يصعب عليّ تصديق ما قلته ان لم تشهد على صحته الاميرة نفسها . “ ثم التفت اليها  
وسألتها :-

” أصحيح ما سمعته الآن ايها الاميرة انك منقطعة الى زهدٍ ابدى تحفنين فيه محاسن  
لم تنظر عيون البشر اجمل منها ؟ “

فرفعت نظرها نحو السماء من غير ان تنظر اليه وقالت :-

” اللهم انت تعلم ان اسمي غايات نفسي ان اخدمك خدمة انفصل فيها عن العالم كل  
الانفصال “

فقال الملك العادل لرئيس الاساقفة

” ساعمل ايها الاب المحترم بمقتضى ارادة اميرة انكلترة فتعيش في قصري عيشة تنطبق  
على عوائدها واميالها “

ثم ركب زورقه الخاصّ وسبق الاسرى الى دمياط

ولما قربوا من الشاطيء وجدوا على الرصيف محفاتٍ معدة للاميرتين وحشمهما . والباقون  
من الاسرى - ما عدا الجرحى - مشوا على اقدامهم . اما مونترانسي فاذا كان مثنناً بالجراح  
ومغشياً عليه من شدة النزيف وُضع على لوح من خشب وحمل الى قصر الملك العادل  
وكان الملك العادل يقيم في دمياط بقصر الخلفاء القديم الباقية فيه آثار الزخارف شاهدة  
على عظمة اصحابه الاولين . فكانت ارضه مرصوفة بانفس الرخام والمرمر وجوانبه مزدانة  
باعمدة البرفير والحجر السماقي وجبهاته الاربع محاطة بالحدائق الغناء والجنان البديعة واعاليه  
زاهرة بالمقاصير الانيقة والعلالي الرفيعة ومدخله الخاصة مخفورة بالخصيان وابوابه العامة  
محروسة بنخبة الشجعان

وقد اعد منزلاً لائقاً باسراه الاشراف وعين قصرًا آخر للاميرتين ورئيس الاساقفة  
وامر اجابة لالتاس الملكة ان يتولى خدمة الاسرى رجال مسيحيون واذن لرئيس الاساقفة  
ايضاً ان يمارس طقوس الكنيسة في غرفة داخل القصر وسمح لاعوان الملكة من الامراء  
والاشراف ان يتولوا خفارتها والقيام بخدمتها في ساعات معينة من النهار

وكان قصر الاميرتين مفروشاً باثمن البسط الفارسية ومضخماً بانفس الاطياب الشرقية من  
بخورٍ وندٍ وعودٍ ومرّ تفوح روائحها من المباخر الذهبية معطرة الارحاء . وكان صحنه مغشى  
بالفسيفساء وفي وسطه اربعة تماثيل من البرفير تندفق منها مجاري المياه المعطرة الى حوض  
من المرمر ثم تندفع من وسطه ناشبة على اشكالٍ هرمية مبردة الهواء ومطرقة المسامع بخير



اعذب من توقيع الغناء . وحول تلك الثايل متكات فاخرة تبسم للجلوس عن نغر الراحة والرخاء وعلى الشبايك يحجوف حريرية تطف اشعة النور وتأذن لنسمات الهواء ولا تحول دون تمتع الناظر برؤية الورد وازهار الليمون والآس والمان المألجة بين يدي النسيم والفألحة

بارج طيب يشفي السقيم

وما ابطأ الملك العادل ان انفذ الى اسراه عبيداً حاملين سلالاً مملوءة من اشهي الثمار واجمل الازهار وانفس الحلويات واطيب الاشربة

وقد قضت الملكة ليلتها بالبكاء والنحيب واحيتها بالتهند وذرف الدموع . اما متيلدة فع شدة بكائها وجدت في فوادها شيئاً من الصبر والتسليم لمشيئة الله

وفي الصباح زارها رئيس الاساقفة فسألته الملكة عن الملك العادل قائلة : -

” انك ايها الاب المحترم مستوطن اسياً وبطريك صور منذ ثلاثين سنة ومستشار ملوك القدس وسفير في بلاط صلاح الدين . فلا بد ان تكون اعلم من كثيرين غيرك بعوائد عدونا ووفاته ونقدر ان نخبرنا بالوسائل التي يمكننا اتخاذها لاطلاق سبيلنا“

فاجابها ” اني اعلم الناس بنشأة صلاح الدين ومقدار قوته ولي اطلع تام على جميع الفضائل التي تزين صفاته . واعلم ايضاً ما لآخيه الملك العادل عنده من نفوذ الكلمة ومضاء الامر . والله يعلم كم كنت انال من الامتيازات المفيدة النافعة لو اذن لي ان اسعى في تحصيلها بالحكمة والتعقل بواسطة هذا الامير المتفرد في اريحيته وكرامة نفسه . فيالت رجالنا اعاروا نصائحي جانب الاصغاء بل ليت لوزنيان واموري وثقا بما لي من الاخبار فكانت الارض المقدسة سليمة من الارزاء التي تعبت بها اليوم وتلعب وتأكل عليها وتشرب“

وهنا تنهد تنهد الحزين الآسف واطرق غارقاً في لجج التأملات . ثم تاب اليه التجلد وعاد الى الجواب على سؤال الملكة قائلاً



## الفصل الرابع

## صلاح الدين والملك العادل

”نشأ صلاح الدين واخوه الملك العادل في بلاط اتابك نور الدين في دمشق . وكان ابوهما ايوب قد بذل جهده في تهذيبهما وهو لا يتوقع شيئاً من العظمة المذخورة لهما في المستقبل . ولما كان شديد الاخلاص لملكه الذي احبه محبة لا توصف تجرد لإجراء كل ما يسره من اعمال الفتح والتدوين والإصلاح فكان افضل مثال لابنيه في الامانة والطاعة لسلطانهما . ولم يظهر على صلاح الدين في طفولته علامات عظمة مستقبله ولا لوائح بسالة خارقة . اما الملك العادل فكان من نعومة اظفاره ميلاً الى كل ما يبدو فيه حب اكتساب المجد والشهرة . على انهما مع اختلافهما في الطباع والاميل كانا مرتبطين بحبة اخوية شديدة الإحكام متينة الالتحام ومتمجدين في الطاعة للشريعة الاسلامية بما لا غاية بعده من الاجلال والاحترام

”وقد صحبا عمهما شيركوه الى مصر عند ما ارسله اليها اتابك نور الدين ليستأصل منها الخلافة الفاطمية وقيم الخلافة العباسية مكانها . ولم يلق شيركوه في هذه المهمة موانع تحول دون بلوغ ما اقدم عليه لأن مصر كانت حينئذ في غاية الضعف وقد جعل العاضد لدين الله مهامها في ايدي اناس اضعف منه همّة واقلّ عزماً واقداماً . فلما بلغه خبر قدوم شيركوه في خيله ورجله نهض يروم الدفاع فلم يجد اليه سبيلاً فعمد الى الحيلة واستمال عدوه بالرشوة وعرض على شيركوه نصف ما في خزينته من المال وانه يجعله اكبر وزرائه

”فبهرت هذه الرشوة العظيمة عيني شيركوه فاقسم لصاحب مصر بتأييده وعدل عن اتمام ما ارسله اتابك نور الدين اليه -- ولما سمع الملك العادل بما عزم عمه عليه وبجته تويجاً شديداً وتهيداً دهّ علناً بالشكوى الى نور الدين -- فحفي غيظ شيركوه على ابن اخيه وكاد يوقع به لولا توسط صلاح الدين بالصلح بينهما

”ولما ذهب شيركوه بابني اخيه الى الخليفة دهش صلاح الدين مما شاهده من مجالي الابهة والعظمة ومظاهر الثروة والغنى وايقظ في فؤاده مطامع لم يشعر بها من قبل واغراه بالطموح الى الاستئثار بسلطة مطلقة لا يكون فيها لاحد غيره اقل دخل . ولم تلبث هذه الاماني ان تمكنت منه حتى وطن نفسه على الجري في تيارها واخذ يتوقع سنوح الفرصة لاخراجها من حيز القوة الى الفعل



” ولما توفي شيركوه استوزر خليفة مصر صلاح الدين فكان ذلك بشيراً بصحة احلامه وتحقيق امانيه . ثم مات الخليفة واستأثر صلاح الدين بالسلطة والحكم ورأى ذلك الملك العادل فكبر عليه الامر واجتمع باخيه ولامه علي ما فعل لانه يشين اسمهما وصيتهما فضلاً عن انه ينغص عيش ابيهما الشيخ وينغص من كرامته . وذكر اخاه من سيدهما نور الدين الذي مهد لهما سبيل الارتقاء الى هذا المقام السامي

” ولما رآه مصرًا على عزمه وغير مبالٍ بنصاحته وتوسلاته تركه وشأنه ووجه اهتمامه الى محاربة الصليبيين . ولا حاجة الى وصف ما ساقه الى ارض فلسطين وسكانها من الاجتياح والاكساح اذ لم تصده الحصون والقلاع ولا أرهبتة الجيوش والفيالق بل كان كما لقبه شعبه اسد النزال وصاعقة القتال . وفي تدمير الرملة وطبرية ودك طرابلس وبيت لحم وتدوين عكا وبيت المقدس ما ينبئ عن ذلك بزيد الجلاء ويدل على ما نحن فيه من البؤس والشقاء “

ثم انقضت عدة ايام لم يقدر فيها رئيس الاساقفة ان يزور الاميرتين الا في ساعة الصلاة فانقطع عن نعمة حديثه لهما وكان في ما بقي من وقته مشغولاً امامع الملك العادل الذي سأله ان يطلعهُ بالتفصيل على عوائد اهل اوربا وشرائعهم واخلاق ملوكهم وعظمائهم او في عيادة المرضى والجرحى من الاسرى . وكان يقضي كل يوم ساعة او ساعتين عند مؤنور انسي الذي كانت جراحه تنذر بالخطر على حياته وهو صابر على آلامها صبر الكرام . على ان العناية الشديدة التي بذلت به تغلبت اخيراً على الخطر فأزالت شيناً فشيناً واخذت تظهر عليه علامات البرء والشفاء . وقد سر الملك العادل بهذا الخبر لانه كان قد رأى من مؤنور انسي بطلاً مغواراً فسر بيشري ابلا له ولو كان من اعدائه

ولما سئحت للملكة فرصة أخرى سألت رئيس الاساقفة ان يطلعها على ما فعله نور الدين سلطان دمشق بصلاح الدين جزاء خروجه عليه في مصر فقال :-

” بينما كان الملك العادل يوقع بنا صنوف الويل والحراب كان نور الدين يتأهب للزحف على مصر والاقتصاص من صلاح الدين . وبعد ما خرج لطيته ادركته المنية وحالت دون ادراكه هذه الامنية وخلا الجو لصلاح الدين من كل جهة . ثم تزوج ارملة نور الدين ونال بهذا الاقتران زيادة المنعة في ما أخذه من السلطة والسيادة . وانقطع اخوه الملك العادل عن مجافاته . ومن تلك الساعة ثبت عرشه واصبح هازناً يجمع دول المشرق المتحدة



” وقد تكلم الصلح بين هذين الاخوين بغزوات عديدة وفتوحات مجيدة كالموصل ودمشق وحلب ولم يثبت على قدم الدفاع في وجههما سوى بيت المقدس . على ان المنازعات الالهية التي ثارت بين سكانها اوجبت الخوف عليها لان اموري كان قدمات ولم يقدر لبودوين المنكود الحظ ان يعيش بعده طويلاً فهدت شقيقته الكبرى سبيل طريق الجلوس على عرش القدس لزوجها لوسيان لانها هي الوارثة الشرعية . ولكن كثيرين من الامراء اصحاب المدن الخاضعة لمملكة بيت المقدس لم يبايعوه وقام منهم كونراد مركيز دي مونتفات وادعى حق الملك لنفسه وعضده ريموند صاحب طرابلس واوشكا ان يزيلا لوسيان من موقفه لولا قننه وصلابة وجهه وشدة دهائه . ولما خاب كونراد من الحصول على ما اراد تهدد الصليبيين بالانحياز الى صلاح الدين ان لم يكرهوا لوسيان على ترك عرش القدس

” وفي تلك الاثناء استدعاني لوسيان اليه وقص علي تفصيل الشقاق الحاصل والنزاع الواقع و اشار الى ما نتج عن ذلك من ضعف الغزائم وفتور الهمم وانذرنى بسوء مصيرنا ان لم نسرع الى التلافي والتدارك وطلب مني ان اذهب الى بلاط صلاح الدين في دمشق واسعى بالحصول على هدنة بشرط موافقة

” وقد اجبته الى ما طلب مع شدة احترازي من ان اتهم بالتحزب له والانحياز اليه . لاني مع عدم احترامي لصفاته لم يسعني الا الاعتراف بانهُ اقدر من سواه على ارجاع السلام الى هذه المملكة المتداعية

” وقد قوبلت في دمشق باحفاء واکرام لا مزيد عليهما ودُعيت يوم وصولي الى المتول امام السلطان صلاح الدين في سرادقه الخالي من كل مظاهر الزخرفة والتألق والتنعم . وكان صلاح الدين نفسه ممتازاً عن رعاياه بشدة بساطة ملبسه . ولما رايت حياني مبتسماً واکرم اخوه متواي وقال لي : -

” ان مجيئك الينا ايها الاب المحترم دليل على ميلكم الى المساهلة والاخلاص بالوعد فاعرض مقترحاتك على اخي فينظر فيها وانا اعقب عليها بما يبدو لي . واننا مسرورون جداً من المعاملة الحسنة التي تعاملون بها اسرانا . وان حنوك ومحبتك شاملان جميع من هم في حاجة اليهما . ولهذا سوف تلتقي في بلاط اخي من حسن الرعاية وكرم الوفادة ما انت خليق به ومن يزرع خيراً يحصد ثناءً وشكراً ومن يكن نظيرك يجب ان يكون له اصدقاء كثيرون



## الفصل الخامس

## نظرة الحب

ثم اعترض نعمة حديث ولیم محبی خصی من عند الملك العادل الى الملكة يخبرها بان سيده فادم اليها عما قليل لامر ذي شأن فلما سمعت متيلده هذا الخبر نهضت من مجلسها ورمقت رئيس الاساقفة بعين الاستشارة وقد تورّد محياها تورّدًا فجائياً

فاطرق ولیم هنيهة يفكر في الامر ثم اخذها بيدها واجلسها بينه وبين الملكة وقال : --  
 " أشير عليك يا بنتي ان تبقي لان اقل ارتياب نبيده من الامير يغيظه . وافضل الوسائط للتغلب على عظماء الرجال هي ان تثق بهم وتركن اليهم . وعندي أننا قد نلنا ثقة الامير العادل بنا منذ الآن ودليلي على ذلك رغبته في المحي ء الينا "

فامتثلت متيلده اشارته واسدلت برقعها وعزمت على البقاء في مجلسها . اما الملكة فلشدة اهتمامها بزوجها الغائب عنها لم تشك في ان الغرض من محبي الملك العادل انما هو البحث في ما يتعلق برتشرد

ولما دخل حياً الملكة بلطفه المعتاد ونظر الى متيلده نظرة اغنت عن السلام والكلام ثم التفت الى رئيس الاساقفة وقال : --

" ايها الاب المحترم ان معرفتنا احدنا للآخر ليست جديدة . واننا على اتفاق من حيث الاخلاق والمبادئ وان اختلفنا من حيث المذهب والدين . وامي وظيفد انك عند ما تذكري امام هاتين الاميرتين العظيمتين وباقي اسراي الاشراف لا تمنلني لم سيداً غشوماً وعدواً ظالوماً "

فاجابه : --

" ان الاميرتين قادرتان ان تشهدا بما يحقق لك هذا الامل "

فقالت برنغاريا : --

" ان رئيس الاساقفة كان منذ هنيهة يقص علينا الانباء التي تذيب شهرتك في كل مكان وتسوق اليك الشكر من كل لسان . فلم نعد نجعل ان الملك العادل انموذج الشهامة والكرامة كما هو مثال البسالة والاقدام . وانه على توالي انتصاراته في ساحة الحرب والطعان باق مصدر الرفق والحنان ففي الحرب تقهر ذوي البأس الاشداء وفي السلم تدين لدموع



ذوي البؤس والشقاء . وامامك الآن ايها الامير ملكة آسفة حزينة لا تبكي عرشاً تلتبس  
منك ارجاعه بل انما هي تطلب زوجاً ليس احدٌ سواك بقدر ان يردّه اليها  
فاجابها : -

” لو كان ذلك منوطاً بي وحدي لاطلقت سراحك في الحال وسأرسل غداً الى أخي  
استأذنه في ذلك وما اظنه يودُّ إطالة مدة اسرك . فثقي بكرامته وصدق وعدي  
ثم التفت الى متيلده وسألها : -

” هل تشارك شقيقة رتشرد زوجته في هذا الرأي ؟ ”

فرفعت نظرها اليه وقالت : -

” نعم ولكن بعض المشاركة لا كلها لأن ما ذاقه رجالنا على يدك من غصص النكال  
يجول لسوء الحظ دون بلوغ اعجابي بك مبلغ الكمال ”

فدهش الامير من جسارتها وراعه الاحتشام الذي لاح على وجهها عند تصريحها  
بافكارها واوجست برنغاريا خوف غيظه فبادرت الى الاعتذار عما بدر من متيلدة قائلة : -  
” ارجوك الصغ عما فرط من فتاة نشأت منقطعة عن العالم الانقطاع التام وعسى ان  
إخلاصها وسذاجتها يهدان لها عندك عذراً مقبولاً ”

فاجابها : -

” ليس في إمكان اميرة ان تثير غيظي عليها ”

وقال رئيس الاساقفة مستدركاً ايضاً : -

” ان الاميرة متيلدة انسأت الى هذا القول بعامل العطف والحنو على بني شعبها والرتاء  
لعشرات الالوف من الرجال الذين سفكت دماؤهم واناخ البؤس والشقاء على نساءهم واولادهم  
فدنا الملك العادل من متيلده واخذ يدها وقال لها : -

” ان لم يبلغ اعجابك بي مبلغ الكمال للاسباب المتقدم ذكرها فاعجابي بما لك من حرية  
الضمير والجمال المنقطع النظير بالغ اشدّه بل فائق حدّه ”

فجذبت يدها من يده والتفتت الى رئيس الاساقفة وسألته ان يأذن لها في الذهاب  
فأذن ولم يعارض الملك العادل في ذلك وبعد خروجها قال وليم : -

” نعم ايها الامير ان جمال هذه الفتاة منقطع النظير لانه ليس من هذه العالم بل هو مجلي  
نفس طاهرة لم يشبه قط عيب ولا دنس ولولا الطهارة التي جعل بها هذا الحسن الرائع لظهر  
كباقي مظاهر الحسن المبتذلة . ”



فاعترضه الامير قائلاً : —

كلاً. كلاً. فالحجة تزيدُه جلاءً وبهاءً ويا سعد من يتمكن من اسرها بقيد المحبة  
فلما طرقت هذه الجملة مسمع رئيس الاساقفة ارتعدت فرائصه وادرك ميل الامير الجديد  
وناجنه نفسه بالخطر الشديد على وديعته. لكنه تغلب على انفعاله واخفى اشفاقه تحت طي الجلد  
وتظاهر بانه حمل ما سمعه على محمل المبالغة في الوصف. وقبلما استطاع ان يجيب الامير بما  
يوافق المقام سبقته الملكة فقالت : —

” لا بدّ انك ايها الامير تعلم شيئاً من معسكر الافرنج. فهل ابتداءً القتال ؟ وهل انخرط  
زوجي في سلكه ؟ “

فاجابها : —

” اذا صدقت الاخبار الاخيرة فلا بدّ ان تكون الاختلافات المستفحلة بين قادة هذه  
البعثة اكبر دواعي الاسراع في اخماد نار الحرب. ومن يوم وصول ملك انكلتره الى الآن لم  
تحدث معارك ذات شأن وانما جرت مناوشات طفيفة شهدت لزوجك الذي رجع منها سالمًا  
بشدة البأس والبسالة. ولعلي بعد رجوعي استطيع ان اطلع جلالتك على كل ما جدّ بما  
ترومين من الايضاح والتفصيل “  
” اذهب انت الى عكاء ؟ “

” ارسل اليّ أخي بأمرني بان اذهب الى القاهرة لاعدّ جيشاً جديداً ثم ارجع الى هنا  
انتظر امره بالذهاب اليه. في مدة غيابي تكونين مطلقة الامر والنهي في هذا القصر. ولكني  
بحسب عوائدنا التي توجب احتجاب النساء اتوقع انك لا تأذنين لاحد من رجالك في ان  
يكثّر التردد اليك “

ثم التفت الى وليم واكمل كلامه :

وهذا على كل حال لا يتعلق بك ايها الاب المحترم لان فضائلك تقضي بان اقيمك وكيلاً  
عني على هاتين الاميرتين لانهما في حاجة شديدة الى تعزيتك وتسليتك لها في معتزلهما. فلا  
تفارقهما ما استطعت وعسى الحرية التي امنحك اياها من جهة البقاء معهما ان تبرهن لك بكل  
وضوح نزاهة مقصدي وطهارة غايي “

ثم كرّر وعده للملكة من جهة التوسط في امرها عند اخيه صلاح الدين ودعها وحيها  
وليم وانصرف



اما رئيس الاساقفة فلما خلا بالملكة اطلعها على مخاوفه من جهة متيلدة وميل الملك العادل فقالت له :-

” ان مخاوفك تعظم الخطر اكثر مما هو في الحقيقة . وهل الحجة بنت يوم ؟ - بل بنت دقيقة ؟ فبالجهد يعرف الامير متيلدة . نعم ان جاذب الجمال شديد ولكن غير قادر وحده على إنشاء تعلق راسخ القدم دائم الثبوت “  
” ولكن الاخبار يدلنا على خلاف ما تظنين وكثيراً ما يعنو الرجل بنظرة واحدة لعواطفه وينساق بأمياله “

” اذاً تعتقد ان الامير اصبح مغرمًا بمتيلدة ؟ “

” نعم وان يكن هذا قد خفي على جلالتك فلم تستطيعي ملاحظته “

” وهب ان ذلك كذلك فلا ارى فيه شيئاً من موجبات الخوف والحذر . اولا تعلم ان اميال متيلدة يصعب بل يستحيل التغلب عليها ؟ . وان صح انها موضوع اعزاز الامير واكرامه فاقبل كلمة منها تكفي لإطلاق سبيلنا وارجاعنا الى معسكر شعبنا “

” ان طبيعتي ودعوتي عصمتا نفسي فلم نتعل قط بمثل هذه الاضغاث التي يسميها العالم حجة . على ان طول الاختبار اعلنها لي فعملت يقيناً انها لا تسمح لمن يؤخذ باسراكها ان يراعي شيئاً من واجباته او مواعيده حتى انه ليسهل عليه ان يفتحي اعز شيء عنده سوى الحجة نفسها . فالملك العادل لا يمك عن متيلدة شيئاً سوى ما يراه يحول دون حصوله على ما يتمناه . فان بقيت عنده فقد يسمح باطلاقنا ولكن اترضين بهذا ؟ هل يطاوعك قلبك ان تغادرها وحدها وهي في اشد حاجة اليها ؟ “

” وماذا تستفيد من متيلدة من وجودي معها ؟ اليس خيراً لها ان اطلق واذهب الى أخيها رتسرد واحضه على الاسراع الى انتاذاها ؟ وهل انت مرتاب في عفتها ؟ بل هل يداخلك ريب في شرف نفس الملك العادل حتى توجس اقل خوف على بقائها عنده ؟ “

” لا ارتاب في طهارة متيلدة وعفتها ولكن تعريضها لمحاسن الملك العادل الجاذبة وصفاته الساحرة الخالبة تجربة عظيمة ومخاطرة جسيمة . ولا اكرم جلالتك ان شمائله الغراء وما اوتيه من قوة الذكاء الفاتقة والمحاسن الشائقة والبسالة الخارقة - هذه كلها وامثالها - يتعذر وجودها في فيليب اغسطس بل في رتسرد نفسه . ولكن عوائده القومية مخالفة لعوائدنا وفيها ما يوسع لنا مجال النظر والانتقاد وهي نفسها كانت علة شقاء فتاة وولدت قريبة من عرش القدس حيث ملك ابوها اعني بها اغنس بنت اموري وابنة ماري اخت امبراطور القسطنطينية - اغنس



التي طبقت شهرة جمالها وشجاعتها الخافقين - اغنس التي اقحمت غمار الوغى وحسامها بيدها غير متهبية شرب كأس الردى وقد تركت عوائد جنسها حباً بنيل المجد وعرضت نفسها لشر نتائج جهلها . ازدرت بفضائل اترابها واحنقرت التزامهن الصيانة اللائقة بهن وافخرت باميالها الحربية وزينت لها نفسها إمكان امتلاك قلب لم يمل اليها ولا تحرك باقل شفقة عليها

فصاحت الملكة مضطربة :-

” زدني ايضاحاً ! ماذا تعني بهذا ؟ “

اعني امرأ مخيفاً ولكنه حقيقي ثابت - امرأ لا يزال ذكره يجرح فؤادي ويذهب برشادي . لكنني سأرجى تفصيله الى حين أتفرغ لتتمة حديثي عن صلاح الدين وحينئذ تدرकिन ما يجب علينا ان نحاذره وما يحق لنا ان نرجوه من الملك العادل

وبعد ايام ارسلت الملكة الى رئيس الاساقفة تجبره بأنها هي ومثيلدة تنتظرانه في حديقة القصر حيث تسمعان منه باقي الكلام على مؤسس الدولة الايوبية في الشرق

ثم أخذت بذراع مثيلدة ونزلتا الى الحديقة سادلتى القناع . ولما بلغتا خميلة البرنقال حيث عينتا مكان اجتماعهما بوليم طرق مسمعهما وقع اقدام من وراء تعريشة دوال كشيعة ثم انفرجت التعريشة على مدخل صغير في الحائط المحاذي . وقد وقفت فيه فتاة بلباس شرقي تنظر اليهما بعين الخيرة والارتباك . وما أبطأت أن أسرع الى الملكة وألقت بنفسها عند قدميها خائفة مرتعدة . نحفت مثيلدة اليها وحاولت ان تنهضها بلطفها المعتاد . فأخذت هذه بهذب ثوب الاميرة وقلبتة ثم استسلمت لعوامل الحزن واخذت في سجم العبرات وترديد الزفرات . واذ حاولت مثيلدة مرة ثانية ان تنهضها وتسكن روعها خاطبتها بما يلي :-

” آه يا سيدتي ! لا استحق لمس يديك الطاهرتين . اني بأسة شقية ومنغمسة بحماة الاثم والخطيئة . انكرت اهلي وهجرت موطني وتبعت سيدتي الاثيمة الى هنا - سيدتي التي ضحت على مذبح ميلها الفاسد كل عزيز غالب معللة نفسها بانها تسود الى الابد على قلب الملك العادل ونفاسه عظمة صلاح الدين . ولكن ما كان أسرع خيبة آمالها واخفاق مساعيها ! لأن الملك العادل أثقل كاهلها امتناناً وتحقيراً وأوسعها تنقيصاً وتعييراً وعامل ابنة اموري التي بذلت نفسها له معاملته امة تشرى وتباع . وكثيراً ما ناجتها نفسها بترك هذا المرتع الوخيم والتخلص مما فيه من العار والهوان اللذين لا يقيم عليهما الاذلان . ولكن حبها الشديد لمن يحنقها وخوفها من الاهانة التي لا بد ان تلقاها في معسكر مواطنيها كانا يحولان دون اتمام قصدها هذا . وقد اشرفت رجعها غير مرة ودعت من تحبها الى النزال فاشاح عنها



بقوله انه لا ينازل امرأة ولا يقدر ان يحب من تخرجت كالرجال في فنون القتال وتدعوه يوماً بعد يوم الى الحرب والنزال

” ولما بلغنا خبر وجودكما في دمياط وانكما مع كوزيكا اسيرتين معاملتان بما يطلبه مامكا الرفيع توسلت الى سيدتي ان تاذن لي في الاجتماع بكما أملاً بأن ننال من لدنكما بعض المساعدة . وكان من عزمي ان اجتمع بكما في قصركما ولكن لم اتمكن من ذلك في حينه . ثم اجتهدت في ايجاد هذا المدخل السري في الحائط الفاصل بين قصركما وسراي الامير . ومن هذا المدخل المجهول حتى عند الملك العادل نفسه سوف تمر مولاقي متنكرة بشياني لتجتو امامكما متضرعة اليكما ان تنقذاها من الامتحان الذي في عزم الامير ان يعرضها له بعد رجوعه من القاهرة وهو اما الزواج بأحد رجال بلاطه او السجن المؤبد “

ولما فرغت من كلامها حنت رأسها الى التراب تنتظر جواب الاميرتين فأجابتها برنغاريا :-  
” اننا لسنا هنا سوى اسيرتين ومع ذلك فان خابت مساعينا في حمل الملك العادل على اطلاق اغنس المنكودة الحظ بذلنا غاية جهدنا في تسهيل سبيل فرارنا . ولكن بشرط ان اميرة القدس تعد بقبول ما اخبرها به وهو ان ائتمنا هذا يوحد في وجهها ابواب الهيئة الاجتماعية ولا يبقى لها مفتوحاً سوى باب احد الاديرة الذي تدخله وتنقطع فيه للصلاة الى الله لاجل مغفرة خطاياها “  
نأجابتها الخادمة :-

” بالصواب تتكلمين ففي معتزل كهذا اقدر انا وسيدتي على الانتطاع الى اخفاء عيننا ومواصلة ذرف الدموع اسفاً على ما قدمت ايدينا “  
فقال الملكة :-

” ان كان هذا عزمكما بالحق فاني اعد كما وعداً صادقاً باني لا اُهملكما . ولكن قول لي ما الذي حمل الامير على هذا العزم الجديد ؟ “  
” يقال سرّاً ان جباً جديداً - نشأ فجأة في فواد الامير - جباً طاهراً حارّاً اشبه بجمب امرائنا وخليقاً بمن أوحنه اليه - هذا الحب اوصد قلب الملك العادل دون كل ميل آخر “  
” وهل يُعرف اسم السيدة التي احدثت هذا التغيير العجيب ؟ “

” نعم ولكن لا يمكنني التصريح به امام من يمنعني احترامها عن النطق به في حضرتهما “  
فأدركت برنغاريا في الحال مراد هذه الفتاة واما متيلدة فلم تبال به كما ينبغي . وكانت قد اصغت الى الحديث عن ابنة اموري برعب ورعدة لا مزيد عليهما غير مدركة كنه



جرائم فظيعة كهذه حديثه العهد عند نفسها الطاهرة . ثم صاحت الخادمة مذعورة : -  
 ” من هذا القادم يا مولاتي ؟ اما هو رئيس اساقفة صور ؟ فلا اقدر . كلا لا اقدر ان  
 احتمل وقع نظره . ومن توييخه على الخصوص تنكص سيدتي عن الذهاب الى مواطنيها “  
 فاجابت متيلدة : -

” ولكن كلامه يفيدها تعزية وتنشيطاً - “

فاعترضت الخادمة : -

” يفيد من هي مثلك طاهرة تقيّة ولكن مخيفٌ جداً حضور رجل الله امام  
 خاطئة نظيري ! “

وما لبثت ان نكصت راجعة من ذلك الممرّ وكان وليم قد وصل فقصّت عليه برنغاريا  
 كل ما حدث فتعجّب جداً وسرّه ان قلب اميرة اورشليم تنبه اخيراً فشعرت بخطيئتها وقال : -  
 ” لا ينبغي لها ان تخافني بهذا المقدار . واذا كانت توبتها صادقة فلسوف ابذل جهدي  
 في مساعدتها . “

ثم التفت الى متيلدة وقال : -

” اما انت يا ابنتي التي نجت اذناها بسماع هذه القصة فاعلمي انه لم يؤذن لك في سماع  
 اشياء كهذه الا لكي تستفيدي منها في مستقبل الايام فان تجرّبت بما لا تقوى طهارتك  
 وحدها على نجاتك منه كان لك هذا التعليم الجديد معيناً على الخروج من مضايق ما يلقيه  
 ابليس في طريقك . “

” والان لنعد الى نعمة الكلام عن صلاح الدين وفيه تفان على نكد طالع اخوتكما  
 وعلى العقاب الذي نلّم بسبب خطاياهم “

## الفصل السادس

### نعمة الحديث

” بعد ما قضيت نحو شهر في بلاط صلاح الدين بدمشق تمكنت بواسطة الملك العادل  
 من عقد هدنة ثلث سنوات بشروط موافقة جداً المصلحة لوسيان . ولشدة ثقة الملك العادل بي  
 اقنع اخاه بالاعتماد على كلامي من غير ان يطلب اقل ضمان . ولما مضيت المعاهدة واصدر  
 السلطان امره بتوقيف تحصيل الرملة مدة سني الهدنة بلغ مركز مؤنقرات اخبار هذه



المعاهدة الموافقة لمصلحة خصمه لوسيان فشق عليه ذلك وأعماه الغرور عن رؤية ما فيها من الموافقة لمصلحة الافرنج كلهم فعد عزمه على افساد ما أصلحته بخيانتهم حتى انه عند توقيع المعاهدة وتصديقها خرج في طليعة جيشه وغزا قافلة حاملة هدايا مرسله من صلاح الدين الى مكة .

” ولما ذاعت انباء هذه الفعلة الشنعاء في دمشق كنت لا ازال مقيماً فيها فخمي غضب صلاح الدين ولم يمكن اقتناعه بما بين لوسيان وكوزاد من الشقاق والنزاع وبان الواحد منهما غير مسؤول شرعاً عما يأتيه الآخر بل عد جميع الافرنج شركاء هذه الخيانة وهم جميعهم مستوجبون اشد العقاب . وامر في الحال بان يُشد وثاقى وأُطرح في السجن . فعارضه الملك العادل في ذلك مع انه كان مثله مقتاضاً اشد الغيظ — بل كان احق منه بالاستيلاء من الافرنج لانه ضمن له امانتهم وإخلاصهم ووضح له براءة ساحة ملك القدس من هذا التعدي الاثيم وطهارة ذيله مندوبه وصرح له بانه مستعد للذود عن حياتي وحريتي ما دام حياً — فسكن حينئذ غيظ صلاح الدين واجاب ملتس اخيه بالعفو عني وبمخ له ان يركب معي الى بيت المقدس . فوعده الملك العادل بانه بعد رجوعه ينتقم له والمعاهدة التي يتجافى اعرق الامم في التوحش عن الاقدام على تقضها . فقال له السلطان : —

” وعم قليل احاصر بيت المقدس فليكن هذا السيف الذي اسنحك اياه الان اول بارق على اسوارها . “

” فقبل الملك العادل الهلال المرصع على مقبضه وأقسم لآخيه بانه سيتم كل ما طلبه منه وبعد ما اوصلني الى شعبي براحة وسلام حمل على عسكر كوزاد الراجعين الى صور باسلاب القافلة فكسروهم شر كسرة وأسر منهم عدداً ليس بقليل ومنهم ريموند صاحب طرابلس ورينودي شاتيليون . ثم بلغه خبر الموقعة العتيدة ان تحدث في ظاهر طبرية فاسرع الكرة الى هناك . ولسوء الحظ لم يعمل لوسيان بمشورتي وعوضاً عن تحصين جانبه داخل اسوار القدس كما نصحت له فتج ابواب تلك المدينة وزحف بجيشه لملاقاة العدو

واظنك لا تجهلان شر نتائج ذلك اليوم المشؤوم الذي تزعمت فيه اركان قوة الافرنج في الشرق فكان تقطع اوصال الفرسان الهيكليين وقتل اعظم القواد واسر لوسيان مقدمة رزايا تالية افدح من هذه واعظم . وعبثاً حاولت سبيل ان تنشط حامية المدينة وباطلاً حرّضت السكان على تفضيل الموت على التسليم اذ لم تبق من فائدة من دفاع النساء والاولاد والشيوخ امام جيش كرار مكمل بالغلبة والانتصار



” ولما اشتدّ الضيق واستفحل الجوع واخذت النساء والاولاد تزحم بعضها بعضاً في الازقة  
مسابقة الى التبليغ باجنس اللحوم واسخف البقول ولم يعد يسمع في المدينة الا صراخ المخوّرين  
وعويل المنكوبين وانين النازعين اضطررنا الى التسليم مكرهين مرغمين ففتحنا ابواب القدس  
للعالمين ورفع الملك العادل على اسوارها راية النصر والظفر

” ومن الواجب عليّ ان اعترف بفضل هذا الملك الذي تسامح معنا في الشروط فأذن لنا  
في الذهاب الى انطاكية بنسائنا واولادنا وكل مالنا . واطلق اسرى طبرية كلهم وافندى بماله  
جميع الاسرى الذين لم يكونوا في حوزته . واحسن الى الارامل اللواتي فقدن ازواجهن في  
الحرب وأمر ان يُعنى بالجرحى ويداووا علي نفقتهم . وبكلمة اقول انه ابدى من الارمينة  
والانسانية ما يصعب تصديقه ويعزّ نظيره . وفيما كانت شعلة هذا الاذلال تبتدئ في قلوبنا  
استعرهيب تلك الحادثة التي اودت بشرف ابنة اموري

” هذه الاميرة كانت مع لوسيان في معركة طبرية فلقبت الملك العادل وفوت سنان  
رمحها واخذت تطاعنه ببأس شديد وعزم يفلّ الحديد . ولكنها عنت اخيراً للذراع لم  
يستطع احد قط ان يقاومها . وبعد ما نزع سلاحها دهش اشدّ الدهش إذ علم انها امرأة .  
وتبعته في ساحة القتال الى سرادقه .

” ومن ذلك اليوم نشقت اغنس عن الافرنج وانكرتهم واستعبدت لمن اذلها في ساحة  
القتال - وحملتها الحماسة المعيبة - التي تدعى سفهاً محبة - على الافتنار بابتدال شأنها .  
فخدعتها نفسها الامارة بالسوء وزفت اليها الشهرة القبيحة بصورة الصيت الحسن الكاذب .  
فلم تلق ممن طاشت في حبه وعلت نفسها بالاخذ بجماع قلبه سوى الصدّة والإعراض  
والانزواء والانقباض .

” اما الآن وقد بلغتنا انباء ندامتها على ما قدمت يداها فلنضرب صفحاً عن تذكّر ذنوبها  
وخطاياها ولنبادر الى استقبالها بالشفقة والحنان ولننخذ حادتها عبرة لنا وذكرى . ولنعد  
الى نعمة الحديث

” لما خرجت الملكة سبيل ببقية شعبها صغيرة القلب ذليلة النفس تجرّ وراءها ذبول  
القنوط واليأس رآها صلاح الدين واسرع الى ملاقاتها وعرض عليها ان تطلب منه ما  
أرادت واعداً اياها بالاجابة . فطلبت على الفور اطلاق زوجها . ومع توقع السلطان هذا  
الطلب تظاهر بالدهشة وقال انه سيجيبها براً بوعده فقط والواقع انه كان راغباً كل الرغبة  
في اطلاق سراح لوسيان لعلمه ان ابقاءه اسيراً عنده يشدّ اعصاب الافرنج كلهم عليه فما



أبطاً ان فك قيود لوسيان وأطلقه زعيماً لحلّ عرى اتحاد الافرنج واتفقهم وداعياً الى نزاعهم وشقاقهم . وهكذا كان فان ملك القدس ما لبث بعد ان انحلت ربطة أن جاهر بحقوقه في عرشه وأثار ساكن الاحقاد في صدر كونراد حتى أوصد دونه ابواب صور وتحكم الاختلاف في معسكر الافرنج كما اراد صلاح الدين . وذلك كله كان على عرش خسروه ولم يعرفوا بعد كيف يستطيعون ان يستردوه

” وعلى هذه الحال تركت ارض فلسطين حين شخصت الى اوربا منادياً بالويل والثبور ومحترضاً ملوكها على مدّ ايدي المساعدة والمبادرة الى استرجاع بيت المقدس بنفسه واحدة . وقد نجحت مساعي ولي الملك ندائي كما تعلمان .“

ثم استحوذ عليه سكوت عميق غاص به في لجج التأملات ودلت ظواهر وجهه وشخص نظره على انقطاعه الى الصلاة . وساد عليه وعلى الاميرتين سكون اخنوق حجابهُ صوت حركة اشبه بجفيف رداء امرأة في اوراق الاغصان فالتفت رئيس الاساقفة والاميرتان واذا بامرأة في لباس أمة خارجة من ذلك المدخل السريّ ومتقدمة اليهم بقدمه مضطربة وهيئة ذلّ وخشوع لا مزيد عليهما . فسالها ولينها ناهضاً لاستقبالها :  
” من انت ؟“

فانطرحت عند قدميه باكية ولم تستطع الجواب . فصاح بها قائلاً :  
” الست اغنس المنكودة الحظ ؟“

” رحماك ايها الاب الصالح رحماك - تحنّ عليّ ولا تسحقني بالقسوة والجفاء والاحتقار والازدراء . ارفق بي واجعل للصفح عني سبيلاً فاني ان لم امت الآن لم اعش طويلاً !“  
فاسرعت متباعدة اليها وخاطبتها متشفعة : -

” لا ترفضها ايها الاب الصالح لانه في استطاعتك حتى الآن ان تردها الى طريق الهدى والصواب

فصاحت اغنس مذعورة : -

” من هذه التي تشفع فيّ ؟ اميرة انكلترة ؟ هي نعم هي وقد عرفتها من لباسها الديني - من جمال صوتها الفتان ! أفالي هذه الدرجة من الهون بلغت حتى اكون مديونة لمن اساءت اليّ وبغت عليّ ؟“  
فسألتها الراهبة متعجبة : -

” على مَ توبخيني انا الغريبة في دمياط - الاسيرة في هذا القصر - ولم اعلم شيئاً عن اسمك ووجودك الا في هذه الساعة ؟“



”يكفي انك اغضبتي حباً بذلت فيه اعز مالي في هذه الحياة . فانت علة شقائي ومبعث عنائي...!“

فاعترضها رئيس الاساقفة ساخطاً :-

”صه يا اغنس: ان شقائك نتيجة خطيئتك . واذ كنت لا تزالين مصرّة على غرورك فلماذا جئت الى هنا؟ بل ماذا دعاك الى تخديش الآذان بهذه الالفاظ القبيحة؟“

”جئت اطلب حماية من جور كنودٍ يعني اذلالى . جئت اطلب اسلحةً آخذ بها بثاري . ردت الى سيبي ورمحي فتعرف ذراعي كيف تخلّص اميرة القدس من هذا الذل العظيم .“

”اذهي ايها المرأة الشقية ارجعي ادراجك الى مقام عارك ابقى على الامتهان الجدير بك“

فقبضت متملدة على يده وخاطبته بصوت الاستشفاع :-

”رفقاً بها يا ابي - ارث لضعفها واعضدها . انها خاطئة - اشفق عليها وتغلب على عواطفها بقوة صلاحك وثقواك .“

وقالت الملكة :-

”نعم يا ابي جرّب اولاً علاج اللطف والحنو ولا تعاملها بالعنف مادمت ترى الى الرفق سبيلاً“

واذ ذاك جاءت الأمة التي تقدم الكلام على اجتماعها بالملكة ومتملدة وكلمت سيدتها اغنس بنفس متقطع قائلة :-

”لقد شعروا بغيبابك وهم الان يفتشون عنك وقد انتهزت فردة الاضطراب الناتج عن هربك واسرعت في الهجاء اليك . ونحن هنا في أمن لان هذا المدخل السري غير معروف عندهم . وقصر ملكة انكلترا معدود بأمر الملك العادل حرماً لا يجوز تفتيشه .“

فقالت الملكة :-

”تعالى يا اغنس تعالي الى منزلنا وعند رجوع الملك العادل من القاهرة أسأله ان يأذن لك في الانطلاق...“

فاعترضتها اغنس :-

”لا تسألني شيئاً لاجلي لاني لا أريد ان اكون مديونة له بجرىتي ولا بجميأتي . وعلني الاهتمام لنفسي . لاني سأتمس لي في عرض البيداء مسكناً انزله مدججة بسلاحي ومتوقعة نهاية امري فان ختمت بالخير فذلك من جودك وشجاعتي“



فاقنعها رئيس الاساقفة بتعذر ما تبغيه الآن ووجوب الإذعان الى الإقامة مع الملكة حتى تسخ لها الفرصة المناسبة للهرب . وحينئذ استندت الى ذراع امها وسارت تصحب الاميرتين الى القصر حيث اخلت لها متيلدة مقصورتها واعتزلت الى غرفة أخرى صغيرة بجانبها تراجع جميع ما عرض لها من هذه الحوادث العجيبة الغريبة . وفي الختام تغلبت طهارة ست عشرة سنة على انباء بضع ساعات . فقدمت صلاتها المعتادة ولم يبق في ذهنها من آثار ذلك المشهد سوى الاسف على شقاء اغنس المجهولة عندها اسبابه ودواعيه

### الفصل السابع

#### متيلدة والملك العادل

وكانت اميرة القدس قد عدت من زمان طويل السلام المخيم في فؤاد متيلدة واغلق عذاب ضميرها باب الندامة الحقيقية في وجهها وحال غيظها الشديد وحبها للانتقام دون الاسف على خطاياها فتحكم فيها بغض لحبيبتها الذي هجرها والملكة التي اجارتها ولمتيلدة البريئة من كل اثم ومظنة

ولما خلت بنفسها في حجرتها اخذت تراجع حوادث حياتها الماضية ولما تمثل لها فكر افتراقها الابدي عن الملك العادل انتفضت كصفور بللغة القطر وصرخت بصوت عال وهي غارقة في بحر الذهول والشroud فأفاقت متيلدة مذعورة

ولما طلع الفجر وكان جميع من في القصر باقنين نياماً طرقت اذن اميرة انكثرة اصوات زفرات وتنهدات خارجة من مصدر ذلك الصراخ الذي ايقظها في الليل فاسرعت الى مقصورة اغنس فرأتها تروح وتجيء بخطى متسارعة وعينين جامدتين المنخنيهما السهاد والحزن ولم تبردهما قط دعة . فلما رأت متيلدة قادمة اليها صاحت : -

” ماذا تريد مني ! وهل جئت بوجهك المطبوعة عليه صورة الملائكة لتسخرني بالارواح الشريرة العابثة بي ؟ “

فاجابتها الراهبة بدعة ورقة : -

” ايقظني عوبك يا اغنس فحئت لعلني اقدر ان اخدمك بشيء “  
 ” تخدميني ؟ نعم ! أبحق نقولين هذا ؟ اتريد ان تخفني عني وطأة حزني ؟ اذا أرجعي الي القلب الذي سلبتني ! ردّي الي حبيبي الملك العادل ! “  
 ” اشكر الله يا اغنس على ان قلب هذا الرجل ليس عندي ! “



فاخذت اغنيس بيدها وصاحت :-

” آه يا ليت قولك هذا يكون صحيحاً ! ليتني اقدر ان اُصدقك ! اسمعي لي . اذا عرض عليك هذا القلب الذي هو ملكي - وقوام سعادتي في هذا العالم وفي العالم الآتي - فرفضه لئلا تصيري مثلي ! “

” ألا تزومين ان تعيشي مذ الآن عيشةً جديدةً وتحبي حياة سعيدة . ألا تستطيعين ترك مبعث شقائك الى الأبد ؟ “

” ان اتركه ! ان اترك الملك العادل ! هذا مستحيل : لا اقدر ان احرم نفسي لذة محبته - آه لو تعلمين اي سعادة في تركي بين يديه بلادي - أهلي - نفسي - واعز شيء عندي . بل لم تعلمي مبلغ الاثم الذي بلغته باستسلامي الى ميلي الوحشي . فقد تمنيت من صميم فؤادي لو انقرض الافرنج كلهم عن وجه الارض حتى لا يبقى عائق في سبيل مجد حبيبي . وجل ما اشتتمته مطامع كبريائي ان ارى الملك العادل ملك الملوك وسلطان السلاطين . ولهذا ارى الانفصال الابدي عنه اشد هولاً من الدينونة الابدية . فاتركيني اذاً واذهبي اخبري رئيسك اني ارفض حتى الهه ان كان يأبى علي محبة الملك العادل ! “

واذ ذاك سمعت متيلدة وقع اقدام امائها فاوصتهن بالعناية باغنيس وخرجت نثعراً باذيال الذعر والرعب مما سمعت وعابنت وارسلت على الفور تدعو رئيس الاساقفة فلما حضر قالت له :  
” ان اميرة القدس مصابة بجمي شديدة ذاهبة بصوابها حتى انها تهذي هذياناً مخيفاً وتنطق بتجاديف لا تطيق الاذن سماعها “

فقال لها :-

” اذهبي الى الملكة واقتصري على العناية بما انت منقطعة اليه من التعب ولا ترجعي من غير ان تربني اولاً . “

فامتثلت متيلدة اشارته وذهبت تفتش عن الملكة فوجدتها في القاعة ولما نظرتها برنغاريا مقبلة نهضت لملاقاتها وقالت :-

” رجع الامير واما قليل باقي ليقص علينا ابناء شعبنا . فتعالى اجلسي بجاني . “

فاطاعت متيلدة وجلست بقلب مضطرب ووجنتين محمرتين . واخذت الاماء اللواتي كن قد جهن الى الملكة بسلال الفواكه والثمار واطباق الرياحين والازهار يرقصن على نغمت الصنوج والدفوف رقصاً لم تنبسط له الملكة وقرت عنه نفس متيلدة فانصرفت الى شرفة اطلت منها على زرقة الجو وخضرة الاشجار واستنشقت نسيم الصباح معطراً بارح الازهار ورات من



جمال الطبيعة حولها داعياً يدعوها الى الاعتزال للتأمل باقدس الخواطر واطهر الافكار فلبت هذا الداعي ونزلت الى الحديقة تلمس الشمس التمشي على انفراد وسارت تجاري مجرى انيقاً صافياً يترقق بلوره على عقيق وهو يقبل الاذبال المتدللة من اغصان الليمون وافنان الورد والياسمين . وظلت عاملة على المسير ذاهلة عن تحوّل تطوافها من بين الرياحين والازهار الى ما بين الادغال والعليق . ولم تنبه الى ما صارت اليه الارض هنالك من تشعب المسالك الأبعد ما ضلت سواء السبيل ورأت نفسها داخله في تيه يتعدّر عليها الخروج منه ولكن استئناسها بالازهار البرية والمناظر الغريبة التي لم تألفها قبلاً شغلها عن الخوف والقلق حتى طالت عليها شقة المسير على هذه الحالة وشعرت بالتعب فوقفت تستريح قليلاً تحت شجرة ياسمين باسقة الاغصان وارفة الظلال

وكان الملك العادل قد جاء الى القصر واذ لم يجدها فيه تعجب فارسلت برنغاريا بعض الاماء للتفتيش عنها فلم يجدها وبلغ رئيس الاساقفة غيابها فاضطرب . وحينئذ تذكرت الملكة انها شاهدتها في الشرفة المطلة على الحديقة فامرعت نازلة الى جنة القصر لتفتش عنها وادرك الملك العادل قصدها وعال نفسه بإمكان اجتماعه بتبليده على انفراد فعدا طائراً على جناح الامل والحب وسار يتأثرها في جهة يعرف مداخلها ومخارجها جيداً حتى ابصر ثوبها الابيض من خلال الاغصان فانطلق اليها مبطماً في مسيره كأنه يتمتع نفسه بلذة مشاهدتها قبل حصولها

فسمعت مثيلاً وقع خطواته ولما رآته وعرفته وثبت بقوة الخوف وولت هاربة . ولكن الحمامة التي قضت ايامها محصورة في القفص لاتستطيع الافلات من يدي الباز الذي يطاردها مطلق الجناحين فما ابطاً ان ادركها واخذ بثوبها وهم ان يطوقها بذراعيه ولكنه امسك عن ذلك خشية واجلالاً . وخاطبها قائلاً : -

” ايها الفتاة الحسناء ! يا ابنة السناء التي فاقت تصورات احلامي - التي صلتني ناراً لا اجسر ان المسها - لقد ملكت قياد انسان لم يدعن بعد قط لسلطة انسان . فمن اين لك هذه القوة ؟ بل ماذا يعثك على هذا النفار ؟ وعلى م ترمتيني بعين الذعر والارتعاد ؟ النظري الي بعين الثقة والاطمئنان واعلمي ان انكلترة لن تشاهدك بعد الان .“

فانزعجت يدها من قبضته وخبأتها في طي كعها وسدلت النقاب على وجهها وقالت : -  
” عزمت على ان اقضي حياتي راهبة متبتلة . وقد جئت قاصدة زيارة الارض المتدسة استعداداً لهذا الامر الخطير فاسمح لي اذا ان انضم الى شعبي ولا تحاول باطلاً ان تثنييني عن عزمي“



فرأى من شدة اصرارها انها ثابتة على عزمها وان استمالة قلبها تتطلب اولاً اكتساب ثقتها به واحترامها له فقال لها : —

” ايتها الطهارة المتجسدة افعلي ماشئت فلا اعوقك بعد الآن عن اتمام ما تريدن “  
واذ سألتها ان يرجع بها الى الملكة سار امامها في اقرب طريق الى القصر ومشت هي في اثره ولما اقتربا من القصر شاهدا الملكة ورئيس الاساقفة مسرعين لملاقاتهما فتقدمت متيلدة تصغي بمزيد الارتباك الى اسئلة الملكة وتصبر على وقع نظر الرئيس ولما استراحت افكار برنغاريا من جهة متيلدة سألت الملك العادل عما يعلمه عن زوجها وقبلما شرع في الجواب رفع نظره فرأى بارونا مقبلاً نحوهم فسأل الملكة مقتطياً : —  
” من هذا الذي اقدم في مثل هذه الساعة على المجيء الى هنا من غير اذن ؟ “  
فعرف رئيس الاساقفة ان البارون القادم جوسلين دي مونورانسي فذكره باسمه للملك فقال : —

” كثيراً ما سمعت بهذا الاسم الطائر الشهيرة ولكنه مع هذا كله لا يحق لصاحبه التهور والاعتساف . “

ثم قام يلاقي جوسلين ولما دنا منه قال له : —

” هل نسيت انه لا يجوز لاحد الدخول الى هنا بلا اذن صريح من ملكة انكلتره ؟ “  
” انا حينما استودعنا رتشرد زوجته وشقيقته حلفنا له بالذود عن حياتهما حتى تستنزف سفار السيوف آخر نقطة من دمائنا . والان لما جئت القصر سمعت بغياب الاميرة متيلدة غياباً يؤذن بالخطر الذي . . . . “

فاعترضه الملك العادل بقوله : — ” اي خطر يمكن ان يلّم بها هنا ؟ “  
” لم يهمني ان اعرف هذا بل كان ما سمعته كافياً لايحس الخوف عليها ولهذا جئت لاحامي عنها بما تصل اليه قوتي “

فأعجب الملك العادل بعزة نفسه وصاحفه قائلاً : —

” اي مونورانسي الباسل لا توجس بعد الآن خوفاً على اميرة انكلتره لاني سأتولى حراستها بنفسي . “

ثم حدثته نفسه بامكان تقرب مونورانسي من الاميرة ومناظرته له في حياها فسوّلت له الايقاع به واكتساحه من طريقه . لكنه ما ابطأ ان تثبتت في الامر واسترد لنفسه رصانتها المعهودة وقال مخاطباً البارون : —



” اني اعلم يا مونورانسي ان نفساً ابيه كالتي في صدر شهيم انوفٍ نظيرك تأبني الاقامة على ذلك الاسار وهون الانجاس . فانا اطلق قيادك وافك اسرك . فانطلق الى رفقائك حرّاً .  
وقل لهم اني لا اهرب جانبهم بعد ما اقدمت على اطلاقك اليهم .“

فتعجب جوساين ولم يستطع إقناع نفسه بقبول هذه المنة . وإذ كان قد حلف لترشرد بالبقاء مع الاميرتين وطن نفسه على ان يبرأ يمينه او يصدرها عن مشارف الاسر بورود حينه وكانت الملكة تود ان تطلق مونورانسي ليحمل الى ترشرد اخبارها فصرحت برغبتها في ذلك ولم يبق للبارون سوى تعلقه واحدة فتقدم الى الاميرة متوسلاً اليها ان تسمح له بالبقاء ولا توافق على انطلاقه - وحينئذ تقدم الملك العادل الى متيلدة وقال لها : -

اعلمي ايها الاميرة اني واقف لك احتراماً خالصاً طاهراً وخدمة صادقة بلا من ولا سأم . فتأمل في ما ينجم عن هذا كله من الفوائد لشعبك واصدقائك واخيك .  
فعبثت بها الحيرة والاضطراب ولم تستطع الاختيار وقد فارقتها العزم وخانها الجلد .  
فلاذت بحكمة رئيس الاساقفة وقالت له : -

” ارشدني يا ابي . قل لي ماذا يجب ان اخنار“

فاجابها : -

” اعلمي يا ابنتي اننا في حاجة شديدة الى حسام مونورانسي في ضواحي عكاء وليس من الحزم ان تبقى هنا مغفلاً في غمده وتحولي دون تجريدك في ساحة الوغى . ولكن اذا قضت عليك هذه الاعنبارات الجوهرية بان تطلقيه محلولاً من قسمه فهي ايضاً تضطرك الى رفض خدمة الملك العادل على عظمة شأنه وشدة كرم اخلاقه لما بيننا وبينه من الاختلاف السياسي هذا فضلاً عن انك في غنى عن مساعدة الناس“

فقلت : -

” ان جوابك يا ابي غاية في الحكمة والصواب . فعليه اعتمد وبه أعمل“

ثم التفتت الى جوسلين وقالت : -

” اي بارون مونورانسي ان سبيل المجد مفتوح امامك فلا احول دون تأهبك للسير فيه . فانطلق الى المعسكر الخائفة عليه اعلامنا واسفك دمك الكريم في ما هو اعظم شأناً من خدمتك لنا . ولا تنس ان تخبر اخي بكرامة اخلاق من نحن في اسره . وانه ليسهل عليك تفصيل ما تفضل به علينا لان نطق بارون مثلك بفضل المعروف والشهامة عبارة عن نطقه بلغة وطنه ولسانه الطبيعي“



فأثر كلامها هذا تأثيراً شديداً في مونوراسي فقبل هذب ثوبها وانحنى امام الملكة وحيماً  
الامير ورئيس الاساقفة وخرج

وبعد انطلاقه دنا الرئيس من الملك العادل وقص عليه قصة ابنة اموري - اخبره برغبة  
اغنس في التكفير عن جرائمها بالانقطاع الى دير تقضي فيه غابر حياتها والتمس منه ان يأذن  
لها في ذلك فقال له : -

” انت تعلم جيداً ايها الاب المحترم اني لم أغر اغنس بارتكاب ما ارتكبه بل هي التي  
عرضت علي حباً لم يمكنني جمالها الرائع من رفضه لكنني لم اجد من صفاتها ما بعثني على مقابلة  
حبها بمثله . والمرأة التي لقيتها في عمرة الكفاح وساحة الطعان حيث كانت تباع الارواح  
بالجنس الاثمان ولم يؤثر شيئاً في صلابه قلبها ما شاهدته من الفتك باعزاء قومها والسفك من  
دماء شعبها . لم تقو قط على امتلاك ذرة من حبي . ولا على الأخذ بشيء من مجامع قلبي .  
وانما للجمال الوديع الجمّل بالخفر والاحشام . وللذات المزدانة بالطهر المستوجب الاحترام . يحن  
فؤادي بزيد الهيام كما يحن الى . . . . “

فامرع الرئيس الى اعتراض النطق بالحكمة التي كادت تنم بها شفتا الملك العادل وقال له : -

” مولاي على م عزمت من جهة ابنة اموري ؟ “

” جعلت امرها في يدي الملكة فلتعن بها وتحنّ عليها لانه لم يبق لها غيرها من واقر  
بعدها فقدت شقيقتها من عهد قريب - سبيل ماتت . . . “ فصاح رئيس الاساقفة : -  
” ماتت سبيل ؟ فاذا يصيب لوسيان ؟ وبم يتعلل بعد الآن وقد ماتت من كان يتذرع  
بها الى طلب تاج بيت المقدس ؟ “

ثم افاض الملك العادل في شرح حالة الافرنج الراهنة واخبرهم بان موت سبيل لم يغير  
شيئاً من طيش لوسيان ورعوثه فلا يزال مصرّاً على الادعاء بحقه في الملك وقص عليهم ما  
بين الملك رتشرد وفيليب اغسطس من الشقاق الذي آل الى انقسام الافرنج بعضهم على بعض  
فزفر رئيس الاساقفة زفرة الحزن والاسف على سوء مصير شعبه وكانت الملكة متمطشة  
الى ابلاغ زوجها لواعج شوقها اليه فاستأذنت الامير في الانفراد وهو على الفور حياًها مودعاً  
وشيع متيلدة بنظر الوجد والحنين وذهب لشأنه

نحفت برنغاريا الى مخدعها واغلقت على نفسها واكبت على الكتابة وسارت متيلدة تصحب  
رئيس الاساقفة الى المصلّى قاصدة ان تعترف له بذنوبها التي وبختت نفسها عليها فلما بلغا  
المكان المقصود جثت على ركبتها امامه صارخة : -



” ما اشد حماقتي التي حملتني على هجر معتزلي الامين والمحيي الى هنا للوقوف على امور  
عبثت بسلامي السابق وذهبت براحتي الغابرة  
” ماذا عسى ان يكون قد اعتراك وكدر صفاء طهارتك ؟  
” ان الامير فاجاني في البستان واخبرني بانهُ يحبني  
فأخذ يحدّثها في ما من شأنه ان ينشطها ويزيل تأثير هذه الحادثة من افكارها . ولما  
رجعت الى مخدعها لم تجد اغنس هناك لأن الملك العادل كان قد امرها بالانتقال الى مخدع  
آخر قريب من برنغاريا وشدّد عليها التنبيه بأن لا تبرح مخدعها هذا الا حين تكون مع الملكة

## الفصل الثامن

ابعد رئيس الاساقفة عن دمياط

شغل حب اميرة انكلترة قلب الملك العادل فلم يعد يكثر لشيء آخر سواه . وكرت  
عليه الايام فلم يزد كرورها الا قلقاً واضطراباً وبات من جراء هذا الحب الجديد عرضة  
للآمال والخاوف فكان اذا نام يحوم الحب على وسادته ويبغته بالهواجس والاحلام . واذا  
جلس للاستشارة او خرج لاستعراض الجيوش انساه موضوع حبه كل شيء آخر وغادره  
مبصراً لا يبصر وسامعاً لا يسمع . وكان كلما زاد حبه بقل صبره وتضعف ارادته . ولم يخف  
عليه ان ما تعامله به الاميرة من الصدود والاعراض كانت يزيد بها هيماً ويزيدها  
في عينيه جمالاً

وعبثاً كان يذهب كل يوم الى قصر الملكة معللاً نفسه بان يرى الاميرة هناك وكثيراً  
ما كان يسأل عن سبب غيابها فيسمع جواباً واحداً وهو : - انها بمقتضى مطالب نذورها  
لا تستطيع الحضور امام الرجال

ولما لم يعد في إمكانه الصبر على هذه الحال جاء ذات يوم الى الملكة واطلعهما طلع  
امره وانذرهما بانهُ لم يعد يستطيع احتمال هذه المعاملة وانه اذا دامت متيلدة محجوبة  
عنه لم يكن مسؤلاً عما يأتيه من الاعمال التي يتحوّل فيها عن الرفق واللطف الى القسوة  
والعنف . الى ان قال : -

” تعلمين ما في اطلاقكم جميعاً بلا اذن صلاح الدين من الخطر . ومع ذلك فلو طلبت  
مني متيلدة الإقدام عليه لما تأخرت عنه ”



فتأثرت برنغاريا من كلامه وسرها الافتكار بامكان رجوعها الى زوجها لكنها لم تجسر ان تعلق الملك الكامل بمثل هذا الامل واقتصرت على مقاسمته الاسف على خيبة امله وصرحت له بانها لا تستطيع اكرامه مثيلدة على هذا الطلب مع انها تتوقعه بفرغ صبر . فاكثرت بهذا التصريح ولم يستزدها شيئاً

ثم ذهبت الملكة الى مثيلدة فوجدت رئيس الاساقفة عندها وقصت عليهما كل ما سمعته من الملك وانه مستعد ان يطلقهم جميعاً بكلمة يسمعها من مثيلدة لانه يحبها محبة تفوق الوصف فاضطربت الفتاة من سماع هذا الكلام وتوردت وجنتها البيضاء بحمرة فاقعة واطرفت اطراق الاتضاع واسرفت في لوم نفسها على اضرارها نار الحب في فؤاد هذا الامير فقالت لها الملكة : -

” ماذا عليك لو نزعنا عن الغلظ والعنف وسالت الاميران يُطلق سراخنا . اسمحي له ان يراك مرة واحدة فقط . فقد اقسم انه ليعطينك مهما طلبت ! “  
فاعترضها رئيس الاساقفة بقوله : -

” لا اكنتم عن جلالتك ان الاميرة بعدما اذعنت الى نصيحي وارشادي لا تبقى دقيقة واحدة في حضرة رجل اقدم على رفع نظره الى محياها الطاهر وفي الصباح التالي زار الملك العادل الملكة فبأنته خلاصة ما كان من اجتماعها برئيس الاساقفة ومثيلدة فقال لها : -

” بما انهما رفضا مقابلتي والاصغاء الى ما عندي من الاقتراحات فلسوف الزم الصمت المطلق وادع غيري يحصد نتيجة هذا السعي الذميم “  
فاجابته برنغاريا باكية : -

” اواه ! اذنا اين عدلك الذي هو موضوع افتخارك ؟ انا اخذني بذنب غيري ه الا تعلم انه لا يمكن تحقيق شيء مما تجوه ما دام رئيس الاساقفة بجانب الاميرة “  
” اذنا رئيس الاساقفة حائل دون ادراك مرامي ؟ “

” انه كما لا ازيدك علماً رجلاً ذو حكمة واخيار وثقوى . وهو عالم ان مثيلدة زهدت في العالم ونذرت ان تقضي حياتها في التبتل لله منقطعة عن كل ما يعيب بطهارة نفسها “  
فلما سمع الملك العادل هذا الكلام عزم في الحال على اخراج رئيس الاساقفة من دمياط ولكن الى اين ؟ الى احدى المدائن منفياً مأسوراً ام الى معسكر الافرنج ؟ . وهنا تنازعته الفطنة وكرامة الاخلاق . ولكن في مثل فؤاد الملك العادل تكون الغلبة على الدوام للعاطفة



الثانية وعليه لم يلبث ان سداً اذنيه دون استماع صوت الفطنة وعلى الفور استدعى اليه رئيس الاساقفة ولما حضر قال له : -

” ارسل اليّ صلاح الدين يقول انه لا يسمح باطلاق ملكة انكلتره حتى يرفع الافرنج الحصار عن عكاء . ولا اعلم هل يتغلب ميل رتشرد الى انقاذ زوجته من الاسر على مطامع نفسه الحربية ويفيدهُ جدّاً في مثل هذا الوقت ان يكون معضوداً باصالة رايك ونصائح حكمتك وبناءً عليه اطلق لك حريتك لتذهب اليه مع مونورانسي وتطلعه على ما يعرضه صلاح الدين فاذا قبله واقنع باقي الملوك الذين معه - وذلك في استطاعته - كفيينا البلاد والعباد غوائل الحرب وعشنا في صلح وسلام . ولكن ان اصرر على عزمه واثر عكاء على زوجته فقل له اني متاهب لملاقائه“

فلم يصعب على رئيس الاساقفة معرفة السبب الحقيقي لرغبة الملك العادل في ابعاده عن دمياط . لكنه قال في نفسه : - ” لماذا يطلق لي حريتي ؟ لماذا يأذن لي في الرجوع الى شعبي ؟ الم يكن في استطاعته ان يرسلني سجيناً الى مكان آخر ؟ او من الضروري ان تكون الشهامة الممتاز بها الملك العادل ظاهرة حتى في مساوئه ؟“

وجمل القول ان الحب الذي اطاش الملك العادل راع رئيس الاساقفة وزاده تمسكاً بوجود البقاء مع متيلدة ليقبها شر الخاطر المعرّضة لها . فقال للامير : -

” لا يظن سيدي الامير ان حب رتشرد لملكته يغريه بقبول هذا الاقتراح المهين فع انه لا يبخل حتى بسفك دمه في سبيل انقاذ الملكة من يدك ما كان قط ليحجم عن تضحية برنغاريا حباً بمصلحة بلاده وقومه . وقس عليه باقي ملوكنا وامرائنا . ولا اكتمك اني لو آنت فيهم اقل هشاشة الى قبول هذا الاقتراح لبذلت جهدي في صرفهم عنه بكلام يصبغ وجوههم بحمرة الخجل والاستحياء من ركوب مثل هذه الدناءة . وحاشا لكاهن مثلي ان يقبل وهو رسول السلام سفارة كهذه ليس فيها سوى استثارة العدا وحب الانتقام“

” ومع ذلك فايّك انتدبت الى ابلاغها . وفي مساء هذا اليوم تنطلق مع القافلة التي تصحب مونورانسي الى معسكر الافرنج محفوقاً بما كان لك عندي هنا من الرعاية والاكرام . لكنني لا اسمح لك بالبقاء يوماً واحداً في دمياط . وما اظنك تقدم على مخالفتي في هذا الامر“

وعلى الفور بادر رئيس الاساقفة الى الاجتماع باميرة انكلتره وقال لها : -

” لا ابق عندك سوى دقائق معدودة . فالاله الصالح يجرسك ويحفظك . انكلي عليه وحده . ان الملك العادل صمم على ابعادي عنك لكي يأمن مراقبتي ورعايتي ويضمن لنفسه



الاقتراب منك " فصاحت متميلدة مرتعدة :

" ماذا . أتتركني يا ابي ! "

" ان يوم الضيق قد جاء يا ابنتي فعلينا ان نستقبله بعزم وثبات . وليست هذه الامتحانات التي تُعرضين لها سوى عنوان محبته تعالى . واذا مسَّت الحاجة فأياك ان تُتأخري عن تضيحة حياتك في سبيل ما هو اثن منها وهو شرفك . "

فسألته باكية : -

" أوَاهُ يا ابي اني لم ادرك مرادك بهذا الانذار فأتوسل اليك ان تزيدني ايضاحاً "

" ان الامير يتخض بميل عالمي اليك ويروم ان يجعلك في عداد زوجاته - انت ابنة الملوك وعذراء الطهارة والقداسة ! انك ترتعدين من سماع هذا الكلام وتشعرين بان مجرد الافتكار به يشين قداستك ! فتشجعي ووطني نفسك على الموت ان مسَّت الحاجة لان الله يكون قريباً منك والسماء تنفتح لقبول نفسك المقدية رحماك يا ابي لا تتركني ! "

" اني مكره على ذلك كما اخبرتك . وفي مصارعنك التجارب وحدك زيادة مجد لك واذا شعرت من نفسك بالضعف وعدم استطاعة الثبات فالتسي من الامير ان يأذن لك في الذهاب الى البادية حيث تجددين اطلال دير للقديس يوحنا يقيم فيها ناسكٌ نقيٌ عرف قبلاً بالحكمة والاعتدال على حل المعضلات وكشف اسرار الارض والسموات . ثم زهد في الدنيا واقام في اطلال هذا الدير منقطعاً للصوم والصلاة وازافة الغرباء فاياه اعتمدي في المساعدة والتمسي صلواته فانها تعرف اقرب طريق الى السماء "

وبلغ برنغاريا خبر انطلاق رئيس الاساقفة فجاءت تروم الوقوف على السبب فلما اطلعها على مقترح الامير لاجل ابعاده عن دمياط صاحت : -

" ويلاه ! ابطلب صلاح الدين لاجل فديتي ما يكون فيه العار والخجل لزوجي ؟ فان صح ان هذا مراده فاني موتاً اموت ولن ارى رتشرد المحبوب ! ولكن ليعلم رتشرد اني لاموت وحدي بل يموت معي في احشائي وارث اسمه وعرشه ! "

" خلي عنك الجزع فالعناية الالهية حافظة لك وسوف تعودين الى انكلترة ومعك سليل هنري الثامن العظيم . والآن استودعك متميلدة فاشملها بعنايتك وقبل انطلاقي ساجتهد في افناع اغنس بالذهاب معي اذ لا سبيل الى خلاصها الا بابعادها عن دمياط . الوداع ايتمها الاميرتان المنكودتا الحظ "



وبعد ما رفع يديه فوق رأسيهما وباركهما انطلق وعيناه غارقتان في الدموع وفؤاده مملوء حزنًا واكتئابًا

### الفصل التاسع

#### الوصول الى عكا

وذهب رئيس الاساقفة الى اغنس وعرض عليها الذهاب معه قائلاً لها: - "إذا لم يسهل عليك الذهاب الى المعسكر في دير القديسة هيلانة على جبل الكرمل تلقين قبولاً ورحيباً من قديسات عائلات عيشة التقوى والطهارة والاتضاع وقمع النفس والجسد فلا يحسبن انفسهن افضل منك ولا يذكرن آثامك الا حينما يلتمسن لك الصغح والغفران . وفي هذا المنقطع تستطيعين يا ابنة اموري ان تكفري في المسوح والرماد وترضين اباك السماوي . واحذري من ان نقسي قلبك لان آثم التمرد والعصيان شر من آثم الخطيئة"

فصاحت اغنس مضطربة: -

"اتركني يا ابي . اتوسل اليك ان تركني . فما انا بقادرة - كلا لست بقادرة ان اتوب . ليس في فؤادي مكان الا لشيء واحد وهو حب الانتقام !"

"اذا كان الامر كذلك فاصحبيني الى المعسكر وهناك افرني خراوتك بغيره جيشنا وحمية عساكرنا"

"ليس الآن . ساتوقع ذلك هنا . ولا اذهب معك"

"خلي عنك العناد ولا تضيعي هذه الفرصة"

"قلت لك لا اذهب فلا تتعب ولا تعبت"

وحينئذ تركها وخرج ولما بلغ الباب التفت اليها لعله يرى في وجهها علامة - كلمة او دمة او زفرة تشير الى ندامتها فراها لا تزال مصرة على عزمها ولم تبد اقل علامة تدل على تحوّلها عنه . فذهب خائب الامل يطلب القافلة خارج بوابة دمياط الشرقية وهناك رأى مع مونورانسى عدداً من الاسرى الذين دفعوا فدية نفوسهم وأذن لهم ان يصحبوا هذا البارون ويتطوعوا لخدمته . وانضم اليهم فريق من الرهبان الزوّار الذين ارادوا الشخوص الى اوربا عن طريق صور . وارسل معهم الملك العادل فضيلة من الجنود لحمايتهم على الطريق وسار الزّكب على شاطئ البحر المتوسط ليثّقوا بنسبات البحر لنزع الحرارة المنبعثة من رمال الشاطئ المحرقة . وكانت جميع المدن التي اجنازوها قد اصبحت في حوزة صلاح الدين



ولم يكن منها واحدة خالية من رسوم عظمة الافرنج القديمة وآثار صولتهم الغابرة  
وبعد ما اجنازوا غزة وبافا وقبصية وعسقلان وجبل الكرمل اقبلوا على عكا وأبصروا  
من بعيد اعلام الافرنج خافقة فوق معسكرهم فأفعم فؤاد رئيس الاساقفة فرحاً ومروراً وجد  
المسير اليهم يتبعه مومورانسي وظلّ الباكون سائرين على مهل  
ولما رأى حراس معسكر الافرنج فصيلة من جند العرب قادمة اليهم من بعيد ومعها كاهن  
يتفحصان المعسكر عن قرب ظنوها خدعة حربية واوجسوا خوف المباغنة فاعلنوا الحذر بابوابهم  
فنهض الافرنج على الفور الى اسلحتهم واندفعوا الى المقدم حتى اذا بلغوا الحصون رأوا رئيس  
اساقفة صور وقد اخذ منه التعب كل مأخذ وكان لوسيان اول من عرفه فاسرع الى استقباله  
ولا حاجة الى وصف الترحيب والسرور اللذين لقيهما وليم ومومورانسي من ملوك الافرنج  
وامرائهم فانهما كانا عاملين شاملين يعجز القلم عن وصفهما .  
ولما سألها رتشرد عن زوجها وشقيقته قال له الرئيس :-

” لا يمكن ان تنالا حتى في قصرها ما تنالناه عند الملك العادل من الاكرام والاحترام  
وسأرجى تفصيل ما يتعلق بهما وبجيبتي الى هنا . اما الآن فارجو قبل كل شيء ان تحسنوا ما  
استطعتم معاملة الجنود الذين رافقوني . واسمحوا لهم بالذهاب الى عكا لاني وعدتهم بذلك  
جزاء حسن معاملتهم لنا في الطريق“

فاجيب مائمه باستحسان عام ورغب كثيرون من عساكر الافرنج في مرافقتهم الى  
بوابة عكا وقد بالنوا في هذه المسافة القصيرة في معاملتهم لهم كاخوة لا كاعداء .  
وظل رئيس الاساقفة الى رتشرد ان يأمر في الغد بانعقاد مجلس شوري عام واخذ  
يستعد له بايقاظ افكار الجموع وإعدادهم لاستماع ما كان مزماً ان يخاطبهم به . واطلع  
على اسباب الشقاق الطارىء وخاطب رتشرد في شأنه ووينج لوسيان على تصليه المنذر بشرت  
العواقب وعنف فيليب اغسطس قائلاً له انه لم يأت الى الشرق لاجل تنويج ملك القدس  
بل لاسترجاع بيت المقدس . وخلا بدوق بافاريا الذي تولى قيادة الالمان بعد وفاة  
الامبراطور فردريك واستمال اليه الموسيقيين وامراء جنوى والميكليين وفرسان مار يوحنا



## الفصل العاشر

## فتح عكاء

وما توردت وجنة الشرق بضياء الفجر حتى نهض رئيس الاساقفة من مضجعه وسار الى مجلس الشورى حيث نصبت ثلثة عروش احدها لرتشرد والثاني لفيليب اغسطس والثالث بقي فارغاً لانه نصب لامبراطور المانيا المتوفى فاستوى نائبه دوق بافاريا على كرسيه تحتة . وجلس بعده منتخبو المملكة وامراء فرنسا وبارونات انكاثرة واشراف الكنيسة كل في رتبته وقام في الجهة الرابعة اشراف المشرق وامراء انطاكية والجليل ويافا وطرابلس والقبر المقدس يتقدمهم كلهم لوسيان وكوزاد المتناظران والمتنازعان لعرش جلس عليه رجل آخر غيرها ولما انتظم عقد الجلوس وحف المجلس باولئك العظماء والكبراء نهض رئيس اساقفة صور مكشوف الرأس متوقد العينين وطفق يتدفق كالسيل بفصاحة سالة وبلاغة خالصة وحجج دامغة وبراهين بالغة منذراً بسوء المغبة ووخامة المنقلب متوعداً اولئك الجانحين الى زرع الإحن والفتن بحصار شر البلبايا والحن . جارحاً كبرياءهم باسنة الملام ناصحاً لهم بالعدول عن النزاع والخصام . ومما قاله لهم : -

” طالما سمعت رجال صلاح الدين يقولون بعضهم لبعض : لماذا زحف اولئك الملوك العظماء الينا ؟ أليخيموا في ارضنا ويتمنعوا في حصونهم وراء متاريسهم وهم لا يجسرون ان ينازلونا في ساحة الوغى ؟ . وليس هذا منتهى العجب وغاية المصاب الاكبر ان صلاح الدين غير واقف امامكم موقف المشاهد اللاهي بمنازعاتكم بل ترونه منصرف العناية الى تجهيش الجيوش وحشد الكتائب وتعبئة الفرض البحرية بالسفن الحربية حتى اذا تم له المراد من كمال التأهب والاستعداد صلاحكم ناراً لاتستطيعون عليها صبراً وكسرتم كسرة لاترون لها جبراً

” وهو فوق ذلك كله متوقع مضافرة حليف له اشد من جيوشه بطشاً وفتكاً فكل يوم يمر بكم في هذه الانحاء يحمل بين يديه عطشاً وجوعاً ووباءً حتى اذا بلغت الشمس السرطان واخذت ايام الدب تمطركم بصيب النيران ونضبت العيون والحياض وبيست الحقول والرياض وتفشى بينكم الوباء قائماً على قدم الاجنياح والاكتساح ومغادراً الذين نجوا منكم من فتكاته اسرى الضنى لا قبل لهم علي حمل السلاح حينئذ ينقض عليكم صلاح الدين انقضاض النيازك ويوردكم موارد البوائق والمهالك . حينئذ يباغضكم ضرغام المعامع والمعارك الملك العادل الباطش الفاتك فيمكن سنامه في الصدور وحسامه في الرقاب ويجرفكم جرف السيول للتراب



ويسد امامكم للنخاة كل باب ولا يبق من هؤلاء الامراء المجردين سيوفهم للجهاد سوى رسوم  
بوارٍ ودمارٍ وثارٍ خزري وعاري لا تمحي مدى الادهار!

فأخذ الجميع ببلاغة بيانه وسحر لسانه واستولى عليهم سكوت الاقرار بصحة كلامه وصدق  
انذاره وبدت على محيا لوسيان علامات التأثر والاسف واما مركزيز صور المتعجرف فلم يبد  
عليه اقل تأثر مما سمعه بل ظل "مجبباً بنفسه مباهياً بانه صاحب المدينة الوحيدة الباقية في  
حوزة الافرنج

ثم اراد رئيس الاساقفة ان يوطد بينهم اساس المصالحة فاسترعى الاستماع الى ما يأتي :-  
" اري امامي اميرين يدعيان حق الاستواء على عرش القدس وكل منهما معضودٌ  
بقوة تشده ازره وتذود عن حقوقه وغير خاف علي ان تاج القدس كان لسبيل وبعد موتها  
اصبح ميراثاً لاختها ايزابلاً زوجة كونراد فيكون مركزيز صور الوارث الشرعي لعرش بودوين .  
على ان لوسيان الذي توج ملكاً على القدس باجماع الامة لا يزال حياً . فليس من العدل ان  
يفتصب هذا المنصب السامي بغير الموت . وليس بينكم من يهون عليه ان يضم لوسيان  
ويخس حقه . ولكي لا يحرم كونراد ايضاً التمتع بالحق الذي اوجبه له اقترانه بايزابلاً احكم  
هكذا : ليبقى لوسيان معدوداً ملك القدس مادام حياً وبعد وفاته سواء تزوج مرة ثانية  
ورزق نسلأ اولاً ينقل حق الملك الى كونراد ونسله من بعده "

فاستصوبوا كلهم هذا الحكم واجمعوا على قبوله ثم نهضوا الى مائدة عليها الكتاب المقدس  
فوضعوا ايديهم عليه وتجالفوا على وجرب تنفيذ ما حكم به رئيس اساقفة صور . وبعد ما حلفوا  
هذه اليمين صاح رتشرد :-

" غداً نهاجم عكاء ! "

فاجابه فيايب اغسطس :- " نعم غداً نهاجمها ! "

وقبلاً انفرط عقد المجلس التمس مونمورانسي الاصغاء وقال :-

" لدينا امر آخر يستدعي النظر والاهتمام وهو وجود ملكة انكلترا في ربة الامر  
واقدم الملك العادل على طلب فديتها على وجه مهين لنا جميعاً وهو رفع الحصار عن عكاء !  
وفوق هذا فمن منأ لا يخدم غيظاً ويحرق اسنانه حنقاً حين يعلم ان الملك العادل شغف بحب  
الاميرة متيلدة وهو على الدوام يطارحها احاديث الغرام والهيام . او اذا كان الى الآن  
يرى لديه اسباباً تدعوهُ الى احترام سليمة الملوك فما ادرانا انه لا يتغلب يوماً ما على هذه  
الاسباب ؟ اراكم تنتفضون من هول هذا الفكر وارك ( مخاطباً رتشرد ) تشاركني في طلب



الشخص على جناح السرعة الى دمياط . ولكنني لا اطلب ان يذهب الجيش كله بل ان يرافقني الامراء الذين نذروا نفوسهم وفقاً على صون حرمة الجمال .

فصاح فيليب اغسطس

” ليس فينا من يتجلف عن الذهاب . لان الشرف والجمال موضوع حماية الجميع — حتى الملوك “

وقال لوسيان : —

” وانا سأحفل باسترداد عرش القدس بفاتحة انقاذ هاتين الاميرتين “

وبعد المداولة في هذا الشأن اتفقوا على انهم بعد افتتاح عكاء يمدون تجريدة ويرسلونها

الى دمياط بقيادة رتشرد ومونورانسى

ثم رتبوا الهجوم في القد بان يكون رتشرد في مقدمة الانكليز وعلى جناحيه الهوسبيتاليون

والفليميون مقابل البرج الغربي وفيليب اغسطس مقابل برج الناصرة من الجنوب . وعهد الى

لوسيان بالعناية بالآلات الهدم وابراج الرمي المعدة من وقت طويل لهذه الغاية لكي يحمل بها

على الجهات الضعيفة من الاسوار ووعد كرزاد وعد المضطر المرغوم ان يساعده

وعند اول الفجر خرج مونورانسى بكتيبة من الجيش لخراب امرب تحت الاسوار الخارجية

واقام لوسيان برجاً مشحوناً من معدّات الرمي مقابل الثغرات التي لم يحكم ترميمها . وزحف

الصوريون بالمجانيق والقذائف وسائر آلات الثغر والهدم

وهذه التاهبات كلها جرت وسكان عكاء لا يزالون غارقين في النوم مغترين بما كان

مستولياً على الافرنج من الشقاق الذي حصرهم في معسكرهم الى الآن ولم يدروا ان رسول

الموت قادم اليهم ونعيم بظلاله عليهم

وما نبلج الصباح الا ايقظهم صليل الاسلحة ورنين الابواق ووقع الحوافر فحفوا الى

الاسوار وراوا من اعاليها الألوف العاملين على النقب والتسريب فحاولوا صدّهم بان رموم

بالرصف ومدوّب الرصاص فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً لان المحاصرين امطروهم بصيب

السهم والمزاريق والقذائف والمجانيق واضطروهم الى النكوص فاخذوا يدافعون بقيادة الباسل

الامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب الذي اعمله صلاح الدين على عكاء وعهد اليه

بجمايتها . وكانت اكثر ابراجهم قد فرغت من معدّات الدفاع وثغرت الاسوار من جهات

مختلفة ومع ذلك كله ظلوا على ما يعهد فيهم من رباطة الجأش ولم يبد عليهم شيء من خوار

العزم والميل الى التسليم



وحينئذ حمل رتشرد برجاله على البرج الغربي فزلزله ودكه والقي بنفسه في الثغرة وامتلك الاسوار الخارجية بعد قتال عنيف اكره فيه العرب على التقهقر الى الحصون الداخلية واستولى فيليب اغسطس على برج الناصرة ولقي رتشرد وعقدا النية على مواصلة الهجوم حتى يمتلكا السور الداخلي

واذ ذاك بلغهما ان مومورانسي اخذ الميناء واستولى على حصونه بواسطة جسور مدها من الاسوار الخارجية الى الداخلية . فلم يشرعا في ثغر السور الداخلي حتى وجدا مومورانسي بينهما في المقدمة وقد القي بيديه سماً على السور واقطم الغارة وكان لوسيان يتبعه من ورائه وكان مومورانسي اول من وضع يده على القلعة فصاخبها بكف الظاهر الظافر غير مبال بالاخطار التي تهدده . ثم اخطف الراية من احد اصحابه ورفعها على السور اعلاناً للنصر والظفر . واذ ذاك انطبق عليه العرب انطباق القضاء المبرم واخذ يجول بينهم ويصول ويقوم دون تمكنهم منه ويجول . وفيما هو يفل عن يمينه الصفوف ويحمد حسامه في صدور الالوف ويورد من اقتحمة من تلك الجهة موارد الخنوف فاجأه واحد عن يساره بضربة بلطة فلقت خوذته شطرين وغادرت رأسه مكشوقاً للطنع والضرب . الا ان القضاء قدر له قدوم معين ونصير وفتح له منفرجاً من ذلك الضيق العسير وحقق له القول "وبينا العسر اذ دارت مياسير" وذلك ان لوسيان تمكن اخيراً من اغاثته مصحوباً برجاله فانتشلوه من وهدة المخاطر التي كان ساقطاً فيها

وكان احمد المشطوب قد احندم غيظاً من نجاة فريسته من يده فحول تيار غضبه نحو لوسيان وصوب رمحه اليه وطعنه طعنة لم تترك الملك القدس مجالاً للفرار منها فاصابت صدره وغادرتة بجندلاً بدمائه

ثم وقف المشطوب يفكر في ما افضت اليه هذه المعركة . فان الحصون اخذت جميعها واصبح جيش الاعداء يجوس خلال المدينة . واذ ذاك وثب رتشرد لاغاثة لوسيان فانقذه وثار على المشطوب فظفر به وامر فشد وثاقه

ولما رأى اهل عكاء قائدهم اسيراً سلموا وقبلوا شروط فيليب اغسطس كلها



## الفصل الحادي عشر

احمد المشطوب وصلاح الدين

وكان السلطان صلاح الدين قد انطلق بشطر من جيشه الى الموصل ليصد عنها هجمات عماد الدين صاحبها الاول . وبعد ما واقعه بضعة ايام وهزمه شر هزيمة اقل يتهادى براح الغلبة على ضفاف العاصي . ولما بلغ سنج جبل الجليل لقيه احمد المشطوب مرسلًا اليه في طلب فدية اسرى عكاء مكشوف الرأس حليف الكآبة والياس ولما مثل امامه انطرح عند قدميه صارخًا : —

”مولاي خذ حياتي ! فان الاعداء اخذوني على غرة وافتتحوا المدينة التي ائتمنتني عليها واكرهوني ان آتي اليك لاجل توقيع معاهدة الصلح“

فانقض هذا النبأ على صلاح الدين انقضا الصاعقة ووقف واجمًا منعقد اللسان وقد استحال عليه ان يصدق ان بلاغة رجل واحد تمكنت من التغلب على الشقاق الذي كان ضاربًا اطنابه في معسكر المسيحيين فوحدت كلمتهم وألفت قلوبهم ومهدت لهم في يوم واحد سبيلًا الى فتح اعظم معاقل فلسطين بعد القدس . فسأل المشطوب : —

”ومن عسى ان يكون ذلك الرجل الذي استطاع تنفيذ سلطته على افكار ملوك كثيرين ذهبت بهم المصالح الذاتية كل مذهب . وايء يد تمكنت من ثغر الاسوار المثلثة التي احصنت عكاء بها ؟“

”اما ذلك الرجل فهو اسقف صور المشهور . واما فتح عكاء فقد اشترك فيه رنشرد وفيليب اغسطس ولكنهما لم يكونا ليخذا الى الظفر من سبيل لولا سيف مونتورانسي الماضي الصقيل“

”اما ان يكون ما اسمعه منك في حلم او تكون كاذبًا لان اسقف صور ومونتورانسي هما الآن اسيران في دمياط“

”نعم كانا هناك ايها السلطان الاعظم لكن الملك العادل اطلق سراجهما وارسلهما الى معسكر الافرنج فبلغاه في السادس عشر من رجب . وفي السابع عشر منه عقد اسقف صور مجلس المصالحة بينهم وفي اليوم الثامن عشر شنوا علينا غارة شعواء ورفعوا اعلام انتصارهم على اسوار عكاء



” اتعلم ايها العبد الزنيم الى اي غرضٍ وخيمٍ ترمي بكلامك الاثيم ؟ ألا تدري انك تحاول بهذا حملي على اساءة الظن في اخلاص اخي ؟ “  
 ” ان الملك العادل يا مولاي لا يحاكيه احدٌ في امانته للسلطان الاعظم . ولكن ماقلتُ لجلالتك بصدقه ويشهد بصحته الرجال الذين اتوا بالاسيرين من دمياط . ولولا تهبي غيظ السلطان العادل وتنصت الذين حولنا لاطلعت جلالتك على اكثر من هذا “  
 ” نعال اذا كلفني على انفراد ولكن توخ الصدق جهدك واحذر الكذب اذا كانت حياتك ثمينة عندك “

ثم امر السلطان فضرب سرادقه وخلا بالمشطوب الذي جثا عند قدميه وقال : —  
 ” ان اخاك يا مولاي دان على عزته لهوى خانة عليه الصبر واخذ بقوة هي فوق ما يفعله السحر . فان فتاة ذات جمال فتان نيمت قلبه وسبت لبه فتغير منذ علق بها من حال الى حال ورمى كبد الامور المعهودة اليه بسهام الإهمال وجعل مصالح العباد والبلاد ضحية لتلك الفتاة البارعة الحسن والجمال “  
 ” ما اسم هذه الفتاة ؟ “

” هي الاميرة متيلدة شقيقة الملك رتشرد . هذه التي لاجلها هجر الملك العادل قصره وثر عقد نساءه واطلق سراح اسقف صور ومونورانسي ولو أمرته لجاء بها ايضاً الى معسكر الافرنج لانه اقسى ان يطيعها في كل ما تأمره به “  
 ” كفى بهذا دليلاً على كذبك لأن الملك العادل لم يقسم قط قسماً كهذا والا كانت قد أمرته ان ينضم الي الافرنج ويسلمهم كل ما أوتن عليه . فهل فعل شيئاً من هذا ؟ “  
 ” لم يفعل بعد . ولكن اذا هاجها لاجع الوجد وتساحت بشيء من كبريائها واقترحت عليه ان يضحى في سبيل حبيها وطنه و . . . “

” لا يتردد الملك العادل طرفة عين في إثارة الواجب على دواعي حبه ! ويستحيل عليه ان يغدر بي كما يستحيل علي ان ارتاب في شرفه . فقد يمكن ان يكون عاشقاً وقد يتسنى لهذه الاميرة ان تحمله على تضحية حياته في سبيلها . اما تضحية شرفه فذلك رابع المستحيلات . ولو لم تكن قد خاطرت بنفسك لاجلي في معارك كثيرة لأمرت بقتلك جزاء اجترائك على اتهام اخي بمثل هذه التهم الباطلة . ولكن لا تخف . فلسوف اطلب لك العفو بمن أسأت اليه . انطلق عاجلاً الى دمياط وامثل امام الملك العادل واعترف بجريمتك والتمس عفوهُ وسلمهُ الاوامر التي القاها اليك وانظر بعينيك امانته في اجرائها وانماها “



فانصرف المشطوب امثالاً لامر السلطان . وفي المساء استدعاه صلاح الدين وقال له  
بعدها اعطاه الاوامر مخنومة بجائمة السلطاني : -

” هذه تطلع الملك العادل على رغائبي . ينبغي ان يرسل ملكة انكلترة الى القاهرة حيث  
يحتفظ بها بكل ضبط فاضطررتشرد الى قبول ما اقترحه عليه قبل اطلاقها وهو تسليم عكا .  
ومعلوم ان الملوك الذين شاركوه في الفتح لهم مثله حتى تملكها وهم اقل منه اهتماماً  
بالمساهلة فيرفضون طلبي ورفضهم هذا يحدث بينهم منازعات جديدة - منازعات شديدة  
نقصر بلاغة اسقف صور عن حسمها وفصلها وتمكنني من سحقهم وتمزيق ثملهم . وفي اثناء  
ذلك يجمع الملك العادل جيوشه ويضمها الى الجنود التي في دمياط والقاهرة ويوافيني بها الى  
حيث انتظره . وقبل انطلاقه يرسل الاميرة الانكليزية الى اخيها . يعد لها سفينة في  
دمياط . واذا عفا عنك فانت تصحبها الى معسكر الافرنج . فاذهب الآن وانظر هل يجعل  
الملك العادل فتاة تحول بينه وبين اخيه ؟ “

وكانت متيلدة قد عملت بعد انطلاق اسقف صور بموجب وعدها له . فاغلقت على  
نفسها في مقصورتها واصرت بعزيمة شديدة على مقاومة اغراءات الملكة وتسويلات نفسها  
حتى ملت الملكة من خيبة مساعيها في استمالة متيلدة الى الملك العادل وساءها جداً تمادي  
اسرها وانفصالها عن زوجها حتى اصببت بمرض انجلها وخيف منه على حياتها - وامرعت  
متيلدة الى عيادتها ولبثت عندها لا تفارقها . وفيما كانت ذات ليلة جالسة بجانب فراشها  
قالت لها برنغاريا : -

” لا يسعني ان اشكر لك معروفك في سهرك علي وعنايتك بي . ومع ذلك كان في  
امكانك ان تعيديني الى الحياة بكلمة واحدة للملك العادل ان يرديني الى رثرد . علييني  
بأمل اللقاء برثرد فاتعافى وانشط من عقال الضعف والسقم “  
” سأجيب طلبك عند سنوح اول فرصة “

وفي ظهيرة اليوم التالي شعرت الملكة بنشاط نشأ عن تجدد آمالها وراحة افكارها  
فغادرت فراشها وحملت الى متكا مقابل الشباك حيث استنشقت النسيم العليل ومرحت نظرها  
في سهل الدلتا الريان الجميل وجلست متيلدة بجانبها تطربها بانشاد بعض الترانيم بلحن رخيم  
وصوت يشفي السقيم . واذا بعبد دخل يقول ان الملك العادل في القصر يسأل عن صحة الملكة  
فرمقت برنغاريا متيلدة بنظرة الناس اعربت عما لا يستطيعه ابلغ الكلام فنهضت متيلدة  
على الفور لتتجز ما وعدت



فلما رآها الملك العادل قادمة اليه اوغل في الدهشة ووقف لا يبدي حراكاً كمن رأى في حلمه رؤيا جميلة وخاف ان يتحرك فيطلع فجر التعقل ويلاشي ليل الوهم . اما متيلدة فانجنت امامه باحشام وقالت : —

” قد جئت يا مولاي باسم ملكة منكودة الحظّ التمس رحمتك . انها لا تزال مريضة جداً . والحزن والغمّ هما سبب مرضها . وحياتها الثمينة متوقفة على زوال هذا السبب فوعدك اياها بارجاعها الى زوجها ينقذها من مخالب الموت “

” لا اعلم ماذا تكون نتيجة هذا الامر . لكن مشيتك منشأ حرية الملكة . فهي حرة مذ الآن . هل تريد ان ارجعها الى زوجها ؟ فليكن كذلك “

” لله كرم اخلاقك وطيب اعراقك ! فلقد طوّفتني منة اذكراها ما حبيت بالحمد والشكر وجعلت اسرتي مديونة لك ابد الدهر ! “

ثم خرجت من لدنه الى حيث كانت الملكة وقالت لها :

” منيخك الملك العادل حريتك ولسوف تسافرين عندما تتمكنك صحتك من ذلك — “

فقال لها الملكة : —

” باي لسان استطيع ان اوفيك حقا من الشكر ؟ ومتى ارى الملك العادل فأوفيه حقه من الثناء على هذه اليد البيضاء ؟ “

واذ كان الليل قريباً حملت الملكة الى مضجعها حيث حفتها فيه احلام مفرحة لذيذة — اما متيلدة فعبتاً حاولت الرقاد لأن هجير النهار وحرّ الليل ارقاها وسلبا راحتها فالتمت لنفسها نرويحاً في حجره ملاصقة لمخدع الملكة تشرق من نوافذها على حديقة القصر . وجلست بجانب النافذة وفتحت كتاب الصلوات وحاولت القراءة لكن افكارها حالت دون ذلك واخذت عينها تنطبقان على رغامها ورأسها يميل متديلاً على يدها . وبينما كانت نسمات الليل تعبت بصفتها كتابها كانت افكارها تحوم حول كل ما عرض لها في اجتماعها بالملك العادل حتى قضت ليلها بين قراءة متقطعة قصيرة وذهول متوال طويل . وعند الفجر انطرحت على سريرها معيبة من تلك المعارك الذهنية التي شهدتها لكنها لم تنم الا قليلاً جداً فان احدى الجوارى جاءت تقول لها ان الملكة تريد ان تراها . تخفت مسرعة اليها وبعد ما جاست بجانبها سألتها بعد سكوت طويل : —

” عندما سألت الاميرامس ان يسمح باطلاقي هل سألته من جهتك انت ؟ “

” وما الداعي الى ذلك ؟ هل يخاطر بباله ان يفرقنا ؟ هل يرتكب الاميرامس حسي هنا ؟ “



” انك عندما تقيسين اعمال الناس باعمالك ولا تربيتها جارية على مبادئ العدل وقواعد الفضيلة لا تخطر ببالك المحبة مع انها محقة بك من كل جهة وقد تمت لك بصورها المختلفة في هوى اغنس العنيف الاثيم وغرام الملك العادل الشديد وتعلمي انا برتسرد هذه المظاهر كلها عرضت لك وانت عنها غافلة ذاهلة “

” اما وعدت اني لا اعرف محبة لرجل مدى حياتي ؟ ابصيح ان ابذل البذور التي جئت لانذرها ؟ “

فقالت الملكة : —

” على كل اري ان الملك العادل لن يسمح بانطلاقك “

” اذا انا شقية الى الغاية . وحالي مخيفة جدا ! “

” لا اظن ان قلبه المغرم بك يسمح له بفراقك “

” اذا ساراه ثانية واتمس ذلك منه “

” فوضي الامر الي لعلني اتمكن من اقناع الامير بالعدول عن افكاره من جهتك لعدم امكان التغلب على ما يحول بينك وبينه . وان اخفق مساعي عنده رفضت الحرية التي منحها ومت هنا “

” لا يجوز ان تذهبي ضحية ما قضى الله به علي “

” بل الواجب يفرض علي البقاء معك في دمياط “

” بل يا مارك بالانطلاق الى زوجك متى امكنت ذلك . اما انا فلا تخافي علي . الله ملجاي وقوتي . اذهبي يا اخناه اذهبي “

### الفصل الثاني عشر

#### حيرة الملك العادل

وفي ذلك اليوم اخبرت الملكة بقدوم الملك العادل فاستقبلته في غرفتها ومتيلدة جالسة بجانبها حسب العادة . وبعد ما هناها بمعافاتها وشكرت هي له جميله ومعروفه لسماحه لها بالانطلاق الى زوجها قالت له : —

” وهذه الحرية التي انعمت بها ليست لي فقط بل لشقيقة زوجي . . . . “

فاعترضها بقوله : —

” ان شقيقة زوجك لم تسألني من جهة نفسها “



” لم تر من ضرورة لذلك . او لم تعدنا باننا لا نفترق ؟ “

فالتفت الى متيلدة وسالها مجتهداً في اخفاء انفعاله : -

” هل ترومين الذهاب ؟ هل تريدان ان تبرحي دمياط ؟ “

” نعم يا مولاي . ان عيني تجنن شوقاً الى رؤية ارض ميلادي “

فامتقع الامير وذعر وانقطع عن الكلام وغاص في لجج التأملات . ثم افاق من ذهوله واخبر الملكة بانها عندما نتأهب للسفر ينظر في امر شقيقتها . ثم قال لمتيلدة : -

” وفي هذه الاثناء اذا اصغيت الي اطلعتك على الاسباب التي تحول دون الاسراع في حكمي من جهة سفرك الى ذلك الحين فان اصررت بعد ذلك على عزمك وانت عالمة انك تذهبين بيحياتي وسعادتي فينئذ لا امكنك بل يكون طلبك علامة انطلاقك وتضيحة حياتي “

وعلى رغم بسالته المشهورة وعزة نفسه المعهودة سحّت اجفانه بعبرات سالت على خديه وقبلما تمكن من مسحها رأته متيلدة وسالت عينها بمثلها واغزر منها . فلما ابصر دموعها ازداد اضطراباً على اضطراب ولم يعد في طاقته الصبر على هذا المشهد فخرج على الاثر . ولما خلت الملكة بمتيلدة قالت لها : -

” لا تيأسي فان موانع انطلاقك ستكون اقل مما ظننت “

فسألتها متيلدة : -

” وهل تظنين ان سفري يفضي الى موته ؟ “

” اذا اصررت على مقابلته بالصدر والاعراض فقد يقوده اليأس الى مثل هذه النتيجة “

فاوجست متيلدة خوف حصول هذه النتيجة ووعدت الملكة بالكف عن مجافاة الامير ومهدت لنفسها اعداراً ومسوغات لمخالفة نصح اسقف صور اهمها تغير الاحوال والعمل بمقتضى الضرورات . وعندما كانت تلجأ الى الصلوات الانفرادية والتأملات الروحية كانت صورة الملك العادل تجترق حجاب انفرادها وتمثل امامها على اسلوب لا يحول ولا يزول

ولم تلبث برنغاريا ان لاحظت تأثير هذه الاضطرابات في وجه متيلدة . لكن شوقها الشديد الى الاجتماع برتشرد حال دون تمكنها من الوقوف على سر هذا التغيير العايب باخت زوجها فنسبته الى خوفها من البقاء وحدها في دمياط .

وظل فؤاد الاميرة متيلدة عرضة نزاع بين الواجب وداعي المحبة يوماً بعد يوم حتى خارت قواها واصفرت وجنتاها



ولما اتمت الملكة استعدادها للسفر رأّت من الضروري ان تكلم الملك العادل عن  
متيلدة لعلها تتمكن من اخذها معها . ففي احد الامساء بينما كانت جالسة مع متيلدة دخل  
الملك العادل على الفور وجلس قريباً من متيلدة . فاستكدت الملكة ذهنها لعلها تظفر بمقدمة  
لكلامها فلم يفتح عليها بشيء وفيما هي تضرب اخماساً لاسداس كانت متيلدة تتلعلل من هذا  
السكوت المخيم على مجلسهم ولم يسمعها ان تنظر الى عيني الملك العادل . واذ لم يعد في امكانها  
الصبر على هذه الحالة نهضت تريد الخروج . واذ ذلك نشطت الملكة من عقال حيرتها وانطلق  
لسانها بالكلام فقالت : —

”مولاي قد حان وقت تعيين سفري فساموت ان لم اذهب لكنني لا اقدر ان اذهب  
بلا متيلدة“

فاجابها : —

”اذا كانت هذه مشيئة متيلدة فلن تراني بعد اليوم لكنني اطلب ان اكلمها على انفراد  
فاذا الحت بعد ذلك على الذهاب معك لم اعارضها وتعيين يوم السفر متوقف عليك“  
فنهضت الملكة وقالت لمتيلدة : —

”سمعت ما قاله الامير . فانطلقك متوقف عليك“

وبعد خروج برنغاريا جلس الملك العادل مكانها وساد عليها سكوت طويل خشبي  
ان يخترق حجابها وخافت متيلدة الاقدام على ذلك فدنا منها ولس يدها يده فانقدت جبهتها  
بجمرة نارية ولم تعد تستطيع التنفس واخذ المندبل المسدول على صدرها يعلو ويهبط بحركة  
قلبها المضطرب فلما رآها في هذه الحالة جلس امامها معرباً عن عزة نفس وطهارة حب وصدق  
اخلاص بندر وجودها في قلب غيره . ولكنها ابت على رغم مواعيده وتوسلاته ان تصفي  
اليه وحاولت الخروج فبسط ذراعيه وطلب ان تصفي اليه فقالت له

”لا اصفي الى شيء سوى الامر بانطلاقي“

”وهل هذا شرط عفوك؟“

”اذا منجني حريتي وعدتك باني لا اذكر سوى حسناتك“

فلما رآها عازمة على الانصراف ولم يستطع احتمال فراقها ناداها قائلاً : —

”فني قليلاً فسيكون لك ما تريد“

فصاحت وقد انساها فرحها ثقل الالم الذي اتاخذت به على فؤاد محبها : —

”يا لسوقي الى ارض ميلادي ! الى انرابي ! الى ديري“



فانقض عليها الامير مغتاظاً وامسكها بيدها على رغم مقاومتها وقال لها : —  
 ” يا لك من فتاةٍ عادمة الشكر فاسية الفؤاد ! تسرين بما فيه عذابي غير آسفةٍ علي  
 ما بي ولا ساحةٍ بدمعة حزنًا علي مصابي ! فلست بذاهبة قبل ان تسمعي ما اقولهُ لك ”  
 وبعدما اضطرها الى الجلوس اخذ كلتا يديها في يدهِ الواحدة واسند يدهِ الاخرى على  
 ظهر كرسيتها وتفرّس في وجهها وقال : —

” لا استطيع فراقك لا اقدر ان اُبعدك عن نظري — فان رُمت الرجوع الى اوربا  
 ذهبت معك . وان اردت البقاء هنا فملكك ذلك لك ”  
 ” ايها الامير الكريم . اما لك جلد ان نحمّل كرجل شجاعٍ ما قضى به القدر من الموانع  
 التي بيني وبينك ؟ ”

” استعدي من الآن للانطلاق فلست بمعارضٍ لك على الاطلاق ”  
 وبعد خروجها دخل عبدٌ ووقف بتوقع الاستئذان — فلما طال عليه الوقوف تكلم  
 فتنفّس فيه الملك العادل صامتاً ثم اعرض عنه ودخل الى مخدعه .  
 وكانت ابناه مقبوط عكاه قد انتشرت في دمياط ولم يبق من يجهلها سوى الملك العادل  
 الذي اغلق على نفسه ولم يجسر احدٌ ان يدنونه غير مدعوٍ .  
 وكان احمد المشطوب قد ارسل العبد ليبلغه خبر قدومه فلما اعياه الانتظار الح  
 بوجوب دخوله اليه حالاً واطهر اوامر السلطان مخنومة يخاتمها الملكي . فانفتحت له الابواب  
 وانزاح من طريقه الحراس ولم يجسروا على معارضته . فلما مثل بين يديه سلمه كتاب صلاح  
 الدين واخبره بسقوط عكاه . فدهش الملك العادل لسماح هذا الخبر ولم يستطع تصديقه .  
 فقال له المشطوب : —

” اتعجب جداً من دهشتك مع انك انت ايها الامير علة مكابدتنا لهذه الخسارة العظيمة ”  
 ” ماذا تقول ايها العبد المهان : ”

” اقول ان فصاحة اسقف صور وبسالة موفور انسي مكنتنا الافرنج من فتح عكاه .  
 فعليك اذا تبعة انكسارنا ”

” لا انكر عليك اني ارتكبتُ خطأً فادحاً لكنني سأُكفر عنه باسترجاع عكاه ”  
 ” ولكن كيف تعيد ايها الملك نفوس اولئك الامناء الذين قضوا في سبيل الدفاع  
 عن عكاه ؟ ”

” ساخذ بشار اولئك الشهداء الذين كنتُ سبباً لسفك دمائهم الزكية ”



” يعزُّ عليّ ان ارى ملكاً مثلك يدين لهوى نفسه الامارة بالسوء ويذهب وطنه  
ضحية فتاة صحابة ... “

فزجره الملك العادل قائلاً : —

” اخرس ايها العبد الزنيم . واحذر من النطق بكلمة اخرى تتمهن بها اميرة انكلترة !  
اغرب عن نظري ! “

فاطاع المشطوب وصية سيده الاخيرة لا الاولى وخرج يجاهر بين الشعب في ذم الملك  
العادل والاميرة الانكليزية التي كانت سبب هذه البلية

وبعد ما اطلع الملك العادل على كتاب اخيه تنازعته الافكار المتناقضة والامبال  
المتخالفة فخار في امره لا يدري ماذا يفعل ايطيع داعي هواه وبعصي اخاه أم ايطيع امر  
السلطان ويخالف داعي امبال قلبه وعواطف نفسه — وبعد جهاد عنيف قضاه في التأمل  
والافتكار عزم على اجراء ما يأتي : —

في الصباح يصدر امره باعداد سفينة تحمل متيلدة الى عكاء . وفي فجر اليوم التالي  
ينبغي ان تسير الى طيتها — وهو نفسه يذهب بالملكة الى القاهرة . ويسرع الكرة الى صلاح  
الدين ويطلب منه تصديق وعدم لها بالاطلاق

وفي الصباح ذهب الى الميناء ليعد السفينة المزمعة ان تنقل الاميرة متيلدة فاصدر  
الوامر المشددة بخصوص استكمالها معدات راحتها وسلامتها . وفي طريقه لقي المشطوب فقال  
له بلسان الابهة والسيادة : —

” غداً ايها العبد ترافقك الاميرة فاحفظ بها بما لا مزيد عليه من العناية اذا كانت  
حياتك الاثيمة كريمة في عينيك “

ثم دفع اليه كتاباً الي الملكة يخبرها فيه بانّه اضطر بناء على اوامر السلطان ان يوَجِّل  
اقام وعدم لها وبعد يومين يصحبها الي القاهرة واعدّا ايها بانّه لا يلبث بعد ذلك ان يبعث  
اليها بكوكبة من الفرسان تذهب بها الى معسكر الافرنج

وبرح دمياط يجمع العساكر ويدربهم على فنون الحرب استعداداً للانطلاق بهم الي  
صلاح الدين



## الفصل الثالث عشر

## سفر الملكة

وتذكرت برنغاريا وعدها لاغنس اميرة القدس فخفت اليها لتخبرها بانها اصيبت فادرة على انجاز وعدها بارجاعها الى شعبها وكانت اغنس قد صمحت على عدم مفارقة موضوع حبها فبثت عليه العيون والارصاد استطاعا لحر كانه وسكناته . ولما علمت بمجيء المشطوب قابله سرًا ووقفت منه على الاوامر القادم بها من لدن صلاح الدين . واطلعت على هيام الملك العادل بالاميرة الانكليزية وتفحيطه مصالح الامة والوطن في سبيل شفقه بها . فلما جاءت اليها الملكة ودعتها الى الذهاب معها قالت لها : —

”الم يبلغك نقض الامر المؤذن بانطلاقك؟“

”ماذا تقولين؟ فقد وعد الملك العادل امس بانطلاقنا“

”وبعيد وعده جاء احمد المشطوب من عند السلطان يأمر بارجاع الاميرة مثيلدة حالاً الى معسكر الافرنج وحبس جلالتك في القاهرة حتى يرضى رثرد برد عكاء“

نحان الملكة الصبر والجلد عند وقوفها على هذا القضاء المخيف وسقطت مغشياً عليها . ولما افابت رأت مثيلدة جاثية بجانبها فقالت لها : —

”رحمك يا مثيلدة خذي من هنا — فلا ارى هذه المرأة القاسية التي سرها مصابي واضحكها التخابي“

ثم حملت الملكة الى مقصورتها حيث انطرحت على سريرها باكية بكاء مرًا وقد اطلعت مثيلدة على ما سمعته من اغنس واهابت بدوق لنكستر وامرته ان يذهب في الحال الى الملك العادل ويسأله عن صحة الخبر . فقال لها الدوق : —

”لقد برح الملك دمياط وعهد الى المشطوب بتنفيذ اوامر السلطان في غيابه . وغداً نقلع السفينة بسمو الاميرة الى عكاء“

”فصاحت الملكة اوآه يا اخناه . ان تركني قضي علي في الحال ! اسرع اليه التمسى رحمة“

”فنهضت مثيلدة وقالت لدوق لنكستر : —

”مر بي ايها الدوق الى قصر الملك“



وعلى الفور ذهبت الى القصر ودخلت تجترق صفوف العساكر غير مبالية بسوى السعي في اطلاق الملكة . ولما طلبت الدخول الى مقام الملك اوقفها الحراس واخبروها انه برح دمياط منذ بضع ساعات

ثم خرج اليها المشطوب واخبرها ان رجاءها باطل وانها ينبغي ان تذهب غداً الى اخيها والملكة تؤخذ الى القاهرة حيث تبقى الى حين ردة عمكاه الى المسلمين . ومما قاله لها : —  
 ” ماذا تسألين الست تعلمين ان اوامر السلطان مقدسة عند رعاياه ؟ فلو طلب حياتك لا غمدت علي الفور هذا الخنجر في صدرك . ولو طلب رأسي لملتته اليه بيدي . فلا ترومي ما لا ينال ولا تعلمي نفسك بالحال . اذهبي استعدي للانطلاق معي غداً صباحاً وخذي معك لزوجة رتشرد هذا الكتاب من الملك العادل“

فرجعت متيلدة مسرعة بالكتاب وقد احيا فيها شيئاً من الرجاء قائمة في نفسها لعل الملك رثى اخيراً لحالة الملكة . ولما دخلت دفعته اليها ففضت خنامة ولم تر فيه لسوء حظها سوى القضاء عليها بالاسر في عاصمة مصر . فاستولى عليها اليأس واستجوذ واخذ منها الغم كل ما أخذ وقالت لمتيلدة التي كانت قد اوغلت في النوح والبكاء : —

” خلي عنك البكاء يا متيلدة واتركيه لزوجة قضي عليها ان تموت متجرعة غصص البؤس والشقاء . “ ثم رفعت عينيها الى متيلدة فرأت في وجهها بارقة امل لاحت كنور اضاء في الدجى . فصرفت امامها بحجة التماسها الراحة وقالت لمتيلدة بلهفة : —  
 ” ماذا بدالك ؟ قولي . رحماك قولي !“

” بدا لي ان تنطقي غداً عوضاً عني لابسة ثيابي وسادلة علي وجهك برقي الطويل . وانا ابقى هنا مكانك واتحمل تبعه ذلك اياً كانت . لا محل للرفض والوقت اقصر من ان نقضية بالاخذ والرد . لا يسعنا ان نذهب كلتانا . فلا بد من ذهاب واحدة منا انت او انا . ولكن يجب ان تذهبي انت الى زوجك وشعبك الذين بك نتعلق آمالم من جهة توقع خلف لرتشرد“

” ليكن كما تريدن . ساذهب واخبر العالم بانكارك لنفسك“

وقبيل الفجر نهضت متيلدة وصرفت عنها جواربها بحجة اشتغالها بوداع الملكة . ثم خلعت ثيابها والبستها لبرنقاريا ولبست هي ثياب الملكة . وبعد ما فرغنا من تنكرها دخل دوق لنكستر ونساء الاميرة وبعض الحراس . فقال الدوق مخاطب الملكة القائمة بزي متيلدة : —  
 ” نتنظر امر سموك في نشر الشرع للإقلاع“



فاومات اليه برغبتها في المسير واطاع الدوق اشارتها وسار بها الى الميناء . قدخات السفينة من غير ان تكشف برقعها . ولما جلست في الحجرة المعدة لها رجع حراس الملك الى المدينة ورفع البحارة المرساة ونشروا الشراع واخذوا يشقون العباب بمجاديفهم والسفينة تتخر بهم جارية وفق المشتهي

ولزمت الملكة حجرتها بحجة الدوار ولم تسمح بالدخول اليها لسوى دوق لنكستر وبعض حاشيتها الذين اطلعوا على سر تنكرها ونجاتها . ولم يهتم المشطوب بامر الدخول اليها . ولهذا لم يعلم بشيء من امرها حتى بلغت عكاء وراها مع زوجها تمزاً به وبوعيده

### الفصل الرابع عشر

#### نصريح الملك العادل

وبعد انطلاق برنغاريا اسرعت متيلدة الى مصلاًها واقامت فيه عدة ساعات قضتها في الصلاة لاجل سلامة الملكة لاهية عن نفسها بالاهتمام بغيرها . ثم دعت اليها هرميون كونتة لستر واطاعتها على امرها وسفر الملكة وقالت لها : —

” اكنمي هذا السرجهدك واذيعي ان الملكة مريضة . وغداً اذا رجع الملك وطلب مقابلة الملكة فلا بأس لان برنغاريا تكون حينئذ قد بلغت حيث يثعد راجعها “

وفي اليوم الثالث اصدت جوانب المدينة بصليل الاسلحة وهتاف المبوقين ايداناً برجوع الملك العادل بالجيوش التي حشدتها . وما لبث بعد وصوله ان امر باعداد سفينة ليسير بها في الغد الى القاهرة . ثم ارسل يطلب مقابلة الملكة

نحفت هرميون الى متيلدة واخبرتها بقدم الملك العادل فراعها هذا الخبر المفاجي لكنها تجللت واسرعت الى مصلى الملكة وجلست تنتظره هناك

فلما دخل وراها في مجلسها لم يخامر ريب في انها برنغاريا . فحياها من بعيد وجلس مقابها واخذ يفكر في حزنها الذي عد نفسه سبب حدوثه ومبعث صدوره وقال : —

” لا بد انه بلغ جلالتك اني انقدت على رغبتي الى تخيب امك واخلاف وعدي لك على ان ذلك لا يطول امره فلسوف تكون شقة حزنك قصيرة العهد . ففداً اذهب بك الى القاهرة حيث نعيمين في قصر الخلفاء حرة مخنارة كما انت هنا . وبعد ما اجمع جيوشي



انطلق بهم الى السلطان واستأذنه في اطلاق سبيلك فتذهيبين الى قربنك وثرين التي  
انحجبت رؤيتها عن عيني الى الابد . فهل تذكريني عندها؟ هل يلذ لها الاصغاء الى  
حديثك عني؟ قولي لها انها ذهبت بسعادتي ورجائي ومطعمي في الحياة . اخبرها اني سأخرج  
الى الحرب عازماً على التخلص من وجوده لم يعد له بعدها من قيمة في عيني! "

فتحركت الاميرة بعامل شفقة لم تستطع التغلب عليه ونهضت وقد ازاحت عنها برقعها  
وقالت له: —

"عبثاً احاول ان اخدعك يا مولاي . . . "

فصاح الملك العادل بصوت الدهشة والفرح وانتصب على قدميه وهو يكذب عينيه واذنيه  
بما رأى وسمع . اما هي فتغلبت على اضطرابها وقالت: —

"رأيت الملكة مشرفة على الموت . فقديتها . البستها ثوبي واطلقتها عوضاً عني . فافتح  
لي باب السجن ودعني ادخل المعتزل الذي اخترته لنفسني "

فاجابها: —

"قضى القدر ان تبقي على رغمك ورغم الاوامر التي صدرت بوجوب انطلاقك وفي هذا  
ما فيه من الدليل على وجوب بقائنا معاً متحدين اتحاداً لا يفصلنا عنه سوى الموت! "

فاقشعر جسم الاميرة عند سماعها هذا الكلام وصاحت: —

"صن لسانك ايها الامير عن مثل هذا القول المنكر "

"اسمعي يا متيلدة . ان حبي لك يفوق الوصف ويعجز ابلغ الكلام عن ايضاحه .  
بجيوش شعبك واخوك ورجاله حتى اخي ايضاً . هؤلاء كلهم ليسوا بقادرين ان يفصلوا  
احدنا عن الآخر . يجب ان تكوني لي على رغم كل قوة تحول دون ذلك . واني احترم عادات  
قومك وشعائر مذهبك فلا تعرض لك في شيء من هذا القبيل . لا اطب منك سوى  
ان تمنحيني محبتك "

"مولاي ان صح ان لارادتي سلطة عليك فارجوك ان تتركني الآن . وغداً اكون  
مستعدة للذهاب معك الى القاهرة "

فلبى طلبها على الفور وحيأها وخرج



## الفصل الخامس عشر

## اطلاع اغنس على سرّ بقاء متيلدة

خرج الملك العادل من عند متيلدة يفكر في الاسباب التي حملتها على البقاء في دمياط وارسال الملكة عوضاً عنها . فلم يمكنه ان يصدق ان بقاءها نشأ عن مجرد محبتها للملكة ورغبتها في اجتماعها بزوجها . بل حكم بان ميل متيلدة اليه مهمل عليها انكار نفسها وايتار الملكة عليها . وبناء على اعتقاده هذا عزم ان يسعى جهده في تقوية هذا الميل حتى ينمو ويستجيب الى محبة شديدة تشغل قلب متيلدة وتستأثر بعواطفها واميالها وتغلب على ارادتها وتزيل ما بينها وبينه من الحواجز والموانع

هذه الاعتبارات كلها عرضت له في اثناء تأملاته فمش لها وبشّ وعلل نفسه بادراك ما تصبو اليه وتنتهي الحصول عليه . ولم يبطل ان ملك المحبة قياده وجعلها الآمرة الناهية في جميع شؤونه واحواله

ولكنه مع خضوعه المطلق لسلطة المحبة لم ينس العلاقة الاخوية التي تربطه بصلاح الدين . ولم يفته ان اخاه هذا يتوقع قدومه بذهاب الصبر وان مصير سلطنته متوقف على وصوله اليه في الوقت المعين . فعليه اذا ان يندل جهده في الاسراع اليه . ولكن ماذا يفعل باميرة انكثرة ؟ ياخذها معه ويعرضها لخطر قربها من معسكر شعبها ام يبقياها في مصر ويكابد لوعة فراقها ؟

وبعد تأمل طويل في هذا الامر عزم ان ينطلق في الغد بمتيلدة الى القاهرة فيبقياها هناك في قصر الخلفاء محفوفة بما تستحقه من الاعزاز والاكرام ويذهب الى ملاقاته اخيه في المكان المعين . وعلى الفور اصدر امره الى احد قادته بالمسير بالجيش الى حيث يوافق بعد بضعة ايام . وكانت اغنس في هذه الاثناء قد بثت الرقباء والجواسيس للوقوف على حركات الملك العادل وسكناته . فعلمت انه بعد رجوعه الى دمياط دخل قصر الملكة عابساً مقطباً وخرج من عندها طلق الحياً باسم الثغر وانه عزم على المسير في الغد الى القاهرة وان يرتفقا بها ذاهبة معه . وان عنده اموراً مهمة يجب ابلاغها لآخيه قبل ذهابه اليه ولذلك سيرسلها اليه الليلة مع رسول مخصوص

فراياها هذا الامر واخطرت الفيرة على بالها ما اخطرت المروءة على بال متيلدة وعزمت ان تتحقق الامر بنفسها بما يمكنها من السرعة . ولم تلبث ان امرعت الى حيث تقيم الملكة



وطلبت ان تراها . فلم تجبها هرميون كونته لستر الى ذلك بحجة ان الملكة مريضة جداً لا تستطيع مقابلة احده اياً كان . فاعترضت اغنس على هذه الحجة بان الملكة قد قابلت الملك العادل وانها عازمة على الانطلاق غداً الى القاهرة فهي اذاً ليست مريضةً وتستطيع ان تقابلها اذا شاءت . لكن هرميون ظلت على عزمها ولم يثنها عنه اعتراض اغنس والحاكما . فعادت من حيث انت وقد زادت اقتناعاً بصحة ما رايها من امر الملكة . وعمدت الى السعي في الوقوف على جلية الامر من وجه آخر . وذلك بان اجتمعت بالرسول الذاهب برسالة الملك العادل الى اخيه ورشته بجميع الخلى والجواهر التي كان الملك العادل قد اعطاها اياها فدفع اليها الرسالة وفيها ما خلاصته : —

”وددت ان اطيع اوامرك يا أخي ولكن القدر حال دون ذلك . وكأن الله ابي ان أخلف وعدي لملكة انكثرة . ففي غيابي خدع المشطوب الذي فوضت اليه تنفيذ امرك من جهة سفر الملكة على انه براء مما حصل وكذلك انا . وسأبرهن لك ذلك عمماً قليل باسترجاع عكاء ووضع مفاتيح جوهرة الشرق عند قدميك“

فلما اطلمت اغنس على مضمون الرسالة صاحت بصوت الغيظ والغضب : —

”اذاً صدقت هواجسي وظنوني ولم اكن مخدوعة باوهامي !“

ثم التمس منها العبد ان تعيد الرسالة اليه فصاحت به : —

”ان تراها في يدك ابد الدهر . اذهب الى شمال سورية والتمس لنفسك ملجأ حيث تقصر يد الملك العادل عن الوصول اليك“

فما ابطأ العبد ان عمل باشارتها وفرّ آبقاً حين كان الملك العادل يظنه ذاهباً في طريقه الى اخيه صلاح الدين

اما اغنس فسعت بعد هذا الى الحصول من بعض حراس القصر على خوذة وئرس ورمح وعزمت على إنفاذ ما سؤلتها لها نفسها الاثيمة من اغتيال من عدتها مناظرة لها في حب الملك العادل

## الفصل السادس عشر

### محاولة اغتيال متيلدة

وكانت متيلدة الى الآن تجهل ما عزم عليه الملك العادل . فلم تعلم أبقى معها في القاهرة ام يضطرها الى تصحبه الى سورية . وكان كلا الامرين مكروهاً عندها فلا يرضيها غير الانفصال عن الملك العادل ولو بالزج في غيابات السجن



وفي صباح اليوم التالي زارها الملك العادل واطمعاها على ما عزم عليه من جهتها وقال لها :-  
 "سامضي بك الى قصر الخلفاء في القاهرة حيث تقيمين على ما تشائين من السعة والرحب  
 والاعزاز والاكرام واذهب على الفور الى ساحة القتال حيث اقوم بما يفرضه عليّ وطني وصلاح  
 الدين" فصاحت متيلدة :-

"يا لشقاء الافرنج ! اواه يا اخي رتشرد . اسفي عليك يا شقيقي . انك وارد حنقك  
 لا محالة بيد خصم لا تستطيع مقاومته !"  
 فاجابها الملك العادل :-

"ثقي يا متيلدة اني اصحي نفسي في سبيل دفع كل مكروه يقضي بذرف دمعة واحدة  
 من عينيك . ولن يصاب اخوك باذى استطيع دفعه عنه بنفسه . ولكن اذا بذات حياتي  
 في سبيله فهل لك حينئذ ان تذرفي على دمي الزكي دمعا رافة قصرت محبتي عن  
 اكتسابها منك ؟"

وفيا هو يتوقع منها جواباً على سؤاله هذا وهي تحاول إخفاء دموعها التي تبوح لمحبتها بسر  
 ضعفها وتطلعها على شيء مما في قلبها ارتفع صراخ مخيف في الغرفة المجاورة ودخل على الفور  
 رجل مدجج بالاسلحة ويده سيف مسلول وهجم على متيلدة - واذ لم يكن مع الملك العادل  
 سلاح يحميها به عزم ان يقيها بنفسه فحال بينها وبين الذي هجم عليها ولكن اليد التي اعدت  
 السيف لاخترق قلب متيلدة قصرت عن ان تبلغ به فواد الملك العادل فلم تصبه بسوى جرح  
 خفيف اسال دمه غزيراً . فلما رأت متيلدة الدم سابقاً حلتها البيضاء توهمت ان الضربة  
 قاضية فاضاعت رشدها وخانها عزمها وهمت بالسقوط على وجهها لولم تسندها يد هرميون التي  
 اسرعت بالمجيء اليها على اثر دخول اغنس

اما الملك العادل فترك متيلدة مغشياً عليها بين يدي كونته لستر وخرج يتأثر الجاني .  
 فادرك اغنس خارج المصلى واذا بها قد نحتت الى جانب وقالت له والسيف مسلول في يدها :-  
 "احذر فلن توائس من يدي ضعفاً ولا رحمة"  
 "تبال لك !"

"نم تبال لي لاني لم اتمكن من الانتقام كما اردت ولكن اذا اخفق مسعاي الان فلن  
 يخفق فيما بعد"

قالت هذا واسرعت في الخروج . فارصى الملك العادل هرميون بجراصة سيدتها وخرج  
 يتأثر اغنس ليحول دون انفاذ مسعاها



ولما افادت متيلدة من اغنائها سأت هريمون بلمفة شديدة  
 ” اباقي الملك العادل حياً ؟ “

” لم يُصَبَّ بسوى جرح خفيف وقد خرج لاطفاء الفتنة التي شبت اغنس نارها فانها  
 وشت بالملك العادل الى الجيش والشعب وقالت لهم انه استهان باوامر صلاح الدين فأطلق  
 الملكة وابقاك انت وانه مفتون بملك . فهاجوا كلهم وماجوا وتبعوها الى ابواب القصر  
 طالبين حياتك . ولو اصابتك الطعنة التي وجهتها تلك الاثيمة اليك لتضت عليك حالاً  
 ولكن محبتها للامير حالت دون اصابتها مثلاً منه ومن هذا يتضح لك انه عرض نفسه  
 للقتل حباً بوقايتك منه “

وفي المساء جاء دوق نورفولك واخبر متيلدة بان الملك العادل تمكن من اخماد الفتنة وان  
 اغنس لاذت بالفرار وقد فتشوا عنها في المدينة كلها فلم يقفوا لها على اثر  
 وكانت هذه الحادثة قد حملت الملك العادل على تغيير ما رتبته من جهة متيلدة فعدل  
 عن ابقائها في القاهرة وعزم ان يأخذها معه . وكتب الى صلاح الدين رسالة أخرى اخبره  
 فيها بما كان من امر الفتنة التي اثارها اغنس في دمياط وارسلها اليه مع احد رجاله الامناء  
 اما اغنس فلما رأت خيبة مساعيها الشريرة تدججت بالسلاح الكامل وامتطت جواداً  
 يسابق الرياح فسار بها ينهب الارض على طريق سورية . وفيما هي سائرة في طريقها ابصرت  
 رجلاً يجري وراءها على ظهر ناقه فعلمت على الفور انه رسول من قبل الملك العادل فاستوقفته  
 فلم يحفل بها فحمت عليه وقومت سنان رجمها نحوه ففعل مثلها ولكنها عاجلته بضربة القتة  
 على الارض وغادرته ضحية امانته لسيد . وما ابطأت ان عمدت اليه وانزعجت الرسالة من  
 صدره واستأنفت مسيرها

ولما اطلع الملك العادل متيلدة على عزمه ان يأخذها معه الى حيث ينتظره اخوه توصلت  
 اليه ان يسمح لها بالذهاب الى اطلال دير على شاطئ البحر . فدهش اشد الدهش من  
 طلب كهذا واخبرها بما في طريقها الى الدير المذكور من المخاطر والصعوبات التي يتعذر على  
 من كان مثلها ان يتغلب عليها . فلم تنثن عن عزمها بل الحت عليه واكثرت من التوسل  
 والالتماس قائلة ان اتكأها على معونة من انقطعت لعبادته يسهل عليها كل صعب وبقية  
 كل خطر

ولما رأى انها مصرة على عزمها هذا اصراراً يصعب عليه ان يجوّلها عنه وعدها انه ينظر  
 في الامر بعد وصوله الى القاهرة



وخرج من عندها متعجباً جداً من ثبات جاشها وشدة عزيمتها وغير مصدق ان فتاةً مثلها تقدم على تعريض نفسها لتحمل اخطار واتعاب مثل هذه

### الفصل السابع عشر

#### السفر الى القاهرة

وفي صباح اليوم التالي خرجت اميرة انكلترة بصحبها دوق غلوسستر وهرميون كونتيسة لستر وبعض الضباط الانكليز الى شاطئ النيل حيث كانت سفينة معدة لآخذهم الى القاهرة . فتقدمهم الملك العادل وصعد بمثيلا الى سرادق من نسج الذهب مفروش باثمن البسط الفارسية وعليه انفس النمارق فاجلس الاميرة وجلس بجانبها

ونشر البحارة الشرع واعانوا الريح بمجاديفهم فدفعت السفينة من موقفها فسارت تشق بهم لجج النيل الى القاهرة . وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي النهر مما يسر النواظر ويبهج الخواطر ولكن متيلا حرمت نفسها لذة التمتع بهذه المشاهد الجميلة وارخت برقعها الطويل واحتجبت في مطاويه واخفت يديها في ثنانيا كميها . واخذت افكارها تجول حول موضوع ذهابها الى الدير على شاطئ البحر الاحمر وانفصالتها الابدي عن احبها محبة لا توصف وخاطر بنفسه في سبيل نجاتها من يد اغنس . فتمثلت لها مرارة اليأس التي يجرعها بفراقها وشق عليها ان تقابل معروفه العظيم بمثل هذا الصد والاعراض . فرثى له قلبها وحدتها بوجود العدول عن عزمها وكادت تصغي الى هذا الصوت الجديد لولا ان ضميرها وبجها على ما بدا من ضعفها وذكرها نذورها وما عليها من الواجبات لله

وكان الملك العادل في هذه الاثناء يتفرس في جمالها المنقطع النظير ويزداد بها شغفاً وهياماً . واذ لم يعد يسعه الصبر على الانقطاع عن محادثتها مد يده ليمسك بيدها فانزعمتها منه وقالت وهي في ذهول عميق اشبه بسبات : -

” اللهم عفوك وغفرانك ! انك شاهد يا الهي على جهادي العنيف في مقاومة هذا الحب اصغ عن ضعفي وعجزتي وهب لي قوة تمكني من التغلب على اميال قلبي “  
ثم التفتت الى الملك العادل وقالت له وقد افافت من ذهولها : -

” رحماك ايها الامير حول عينيك عن شقائي ودعني اذرف دموع الندامة بعيدة عن  
كان سبب انسكابها . واجعل من هذه الدقيقة فاصلاً ابدياً بيني وبينك “

فحرك كلامها عاطفة الاحترام في قلب الملك العادل ولم يعد يجسر ان يرفع نظره الى



وجها . وبعد ما لاذ هنيهة باطراف الصمت قال لها : —  
 “عيشي بسلام ايها الفتاة الشريفة . فلن اكلمك بعد الآن عن المحبة التي يعيظك سماعها”  
 ولما وصلوا الى القاهرة لزمتم متيلدة عزلة انتقطت فيها عن مقابلة الزائرين ما عدا بعض  
 الجالية الذين لما سمعوا بقدومها اسرعوا اليها للسلام عليها فسألتهن عن المخاطر التي بلقاها  
 المسافر الى ساحل البحر الاحمر ثم اطلمتهن على قصدها بقولها : —  
 “نذرت نذراً لا تستطيع قوة على الارض ان تنفي عزمي عن اتمامه وهو ان اجناز  
 المفاوز المحرقة لالتمس مشورة الناسك المتعبد المقيم على ساحل البحر الاحمر . فمن منكم يا صدقائي  
 يروم ان يصحبني في هذا السفر ؟”  
 فاجابوا بصوت واحد : —  
 “كلنا”

” اذاً اكتبوا هذا الامر ولا تبوحوا به لاحد . واعدوا كل ما نحتاج اليه سرّاً . وعما  
 قليل اخبركم بزمان اجتماعنا ومكانه”

وبعد خروجهم دخل دوق غلوسستر وقال لها : —  
 “هوذا الملك العادل يستعرض الجيوش التي جمعها استعداداً للزحف بها الى اخيه  
 وسيقضي اليوم وغداً في حشد الجيوش واستعراض الكتابب وبعد غد يذهب بها وبسموك .  
 وقد ارسل هذا الكتاب الى مموك واظنه يذكر فيه تفصيل ما عزم عليه”  
 فتناولت الكتاب من الدوق وتلت فيه ما خلاصته : —  
 “بعد يومين انطلق بك الى بلاط صلاح الدين واعدك اني اطيعك في كل ما تطلبين  
 ما عدا ارجاعك الى معسكر الافرنج ولا اعارضك في شيء ما خلا ذهابك الى ساحل  
 البحر الاحمر”

ولكن معارضة الملك العادل لم تكن لتثنيها عن عزمها . ولما كانت واثقة باخلاص دوق  
 غلوسستر وامانه اطلعه على قصدها فأعجب بشدة عزمها وثباتها والتمس منها ان تأذن له في  
 ان يصحبها في زيارتها . فاجابته الى ذلك واخبرته بالمكان الذي عينته للتأهب والاستعداد  
 وقالت له : —

” اذهب الى حيث قلت لك وقل للذين وعدوا ان يصحبوني ان يبذلوا جهدهم في اعداد  
 كل ما يلزم باسرع ما يمكن . وعند ما يرخي الليل سدوله و يبرح الملك العادل القاهرة الى  
 منف اذهب اليكم ونخرج معاً لطيتنا”



## الفصل الثامن عشر

## زيارة الناسك

برح الملك العادل القاهرة الى منف لتعبئة ما بقي من الجيش من غير أن يداخله اقل ريب في ما عزمت متيلدة عليه . والآن لم يفارقها ساعة واحدة ولكنه كان يعمل نفسه بأنها مثلت لعينيها احوال المخاطر التي تهددها في هذا السفر فعدلت عنه

ولما اقبل الليل جاء دوق غلوسستر الى متيلدة وخرج بها بحجة الذهاب لزيارة عين في المطرية يقال ان العذراء استراحت عليها عند مجيئها الى مصر وغسلت المسيح بمائها . فلما بلغتها وجدت الذين وعدوا ان يصحبوها في انتظارها ومعهم ثلاثة ادلاء وقد اعدوا جملين وبعض الثار اليابسة ومقداراً من الماء

وكان سيرهم في اليوم الاول سهلاً لم يعانون فيه شيئاً من الصعوبة ولكنهم في اليوم الثاني اقبلوا على اطراف البادية واخذوا يسرون في رمضاء محرقة لا ماء فيها يروي الظماء ولا اشجار يلطف ظلها حرارة الشمس . ولكن متيلدة ظلت على رغم هذه المشاق والمصاعب متجلدة متحملة فلم يبد عليها اقل علامة لخوار العزم ولا بدرت منها كلمة بالتذمر والشكوى . على انها رثت من صميم فؤادها لما عاناه رفاقها من ألم الجوع والعطش والحر والتعب وبذلت في مؤاساتهم جهدها وكثيراً ما اثرتهم على نفسها واروت عطشهم بجرعات من قطرات الماء المعينة لها

ولا نشغل القارئ بتفصيل ما عانوه من المشاق والمتاعب التي يعجز القلم عن وصفها بل نكتفي بالقول انها كانت اعظم ما يستطيع الانسان تحمله . وبعد ما كابدوا في اجنيز البادية جهد البلاء اقبلوا على عين ماء على شاطئ البحر فوردوها بلهفة وشوق لا مزيد عليهم

وبعد ما ارووا غليلهم واستوفت اجسادهم قسطها من الراحة استأنفوا المسير على شاطئ البحر وقضوا يوماً في التفتيش عن اطلال الدير فلم يقفوا لها على اثر . اخيراً ابصرت متيلدة من بعيد صخرة كبيرة يتكسر موج البحر على قاعدتها وفي قممها شيء مستدق اشبه بالحربة او السهم فحدتتها نفسها بان هذا هو المكان المقصود واهابت برفقائها فخفوا اليه مسرعين . ولما دنت منه اتضح لها ان تلك العلامة في قممها انما هي صليب مرفوع فوق صومعة الناسك . ولما بلغت اطلال الدير جاست خلاها حتى انتهت الى باب مصلى او كنيسة صغيرة فدخلتها غير هيابة ولا وجلية وقد اعانها ضياء القمر على رؤية الناسك جاثياً في صدرها يقيم صلاته المسائية . فاقتربت اليه وقالت له : — " السلام عليك ايها القديس المحترم من الناس والمبارك من الله ! "



فاجفل الناسك من سماع صوت بشري لم يسمعه منذ ثلاثين سنة سوى مرة واحدة وزاد عجباً واستغرباً لما رأى صاحب الصوت فتاةً بارعة الجمال وقد اقدمت على ما تخور دونه عزائم الرجال . فاستأنفت الاميرة كلامها وقالت له : -

”جئتك ممتمة منك عوناً ومساعدةً وقد عانيت ما عانيت من المخاطر والاعاب حباً بالحصول على نصائح وارشادات من حكمتك وثقواك وصلاحك فهب لي ما املت ولا تخيب رجائي“  
فعطف الناسك عليها وانفضها من مجاشها وقال لها : -

”طبيبي ايها الفتاة نفساً فسيكون لك ما تطلبين . ولكن من المحقق عندي انك لم تجيئي وحدك فاين هم رفقاؤك ؟“

”لقد سبقتهم اليك وها هم قادمون ورائي . واني اسمع الآن وقع اقدامهم خارجاً“  
فخرج الناسك لملاقاتهم مرحباً بهم وقد سرّ جداً بمشاهدة بني جنسه بعد انقطاعه عنهم سنين هذا عددها . وبعد ما حياهم التحية المعتادة واكرم متواضعاً ودعا لهم وباركهم سألم عن بلادهم وشعبهم فقال له دوق غلوسستر : -

”نحن الضباط من اوربا وهؤلاء الملكيون من مصر وسورية وهذه الفتاة هي الاميرة متيلدة اخت الملك رتشرد الملقب بقلب الاسد“

وبعد ما استراحوا قليلاً دعاهم الى الجلوس حول حجر كبير منبسط امام مخدعه ودخل فاخرج اليهم كل ما عنده من الطعام غير مهتم للغد وكان مقصوداً على كعك وتمر وشهد العسل فوضعه امامهم على الحجر وطلب اليهم ان يتناولوه ويعذروا قصوره عن تقديم شيء اخر منه قائلاً لهم : - ”هذه اول مرة شعرت فيها بفقرى مدة الثلاثين سنة التي قضيتها في هذا المكان“  
فاجابه احد الضباط : - ”ان كرم الضيافة في كوخك الحقير اعظم جداً مما يراه الانسان في بلاط الملوك وقصور العظماء“

فقال الناسك : -

”كان بلاط فرنسا مشهوراً بكرم الضيافة فهل خالف ملكها الحالي ما كان عليه سلفاؤه“  
فقال له احد السوريين : - ”ان ملكها فيليب اوغسطس في سورية مع ملك انكلترا يحاولان استرجاع بيت المقدس من السلطان صلاح الدين“

ثم قصوا على الناسك ما لصلاح الدين واخيه الملك العادل من الهيبة والسطوة في مصر وسورية وسائر المشرق . وما يلقاه ملوك الافرنج من المصاعب في سبيل التغلب عليهما واسترجاع بيت المقدس منهما



## الفصل التاسع عشر

انقاذ متيلدة من ايدي اللصوص

وبعدما تناولوا الطعام الذي اعدّه لم الناسك طلبوا في ظلال النوم راحة كانوا جميعهم في اشد الاحتياج اليها

وفيما هم نيام ذهب الناسك الى شاطئ البحر يجمع ما يستطيعه من المحار وبيض السلاحف ليطعم ضيوفه في الصباح . ونهضت متيلدة في اول الفجر تطلب الناسك ولما بلغت الشاطئ وقفت على صخر عال تستنشق نسيم الصبا وتستقبل مليكة الانوار شمس النهار فشاقها المنظر وهاج بها تذكرا ما مرّ بها في ايامها الاخيرة من الحوادث وانجملها جداً ان هذا المنظر الطبيعي البديع الذي تجلى لها بمثل جلاله وجماله لم يكن كافياً لتحويل افكارها عن الحب الذي اصي قلبها وسي لبها بل كان في عيني نفسها اقل اعتباراً من موضوع ذلك الحب وحينئذٍ نهضت تنهداً عميقاً وأخرجت من اعماق صدرها زفرة سمعها الناسك الذي لم يكن بعيداً عنها نجف اليها ودنا منها وقال لها : —

”قولي لي يا ابنتي ماذا عسى ان يكون هذا الحزن الذي يكاد يمزق احشاءك ؟ واية خطيئة مريبة تذهب براحة ضميرك وتكدر صفاء سلامك ؟ وهل يمكن ان ظاهرك المشرق بنور الطهارة والبراءة يخفي داخله نفساً ملطخة بالآثام ؟“  
”نعم فان خطيئتي عظيمة وحمل نفسي ثقيل . وسألقيه امامك ملتمسة منك عوناً على ازالته عني“

”اتضي يا ابنتي امام الله وتوبي اليه توبة صادقة فيمنحك الغلبة على الافكار الباطلة التي نزعج نفسك وتكدر صفاء راحتك“

ثم عاد بها الى اطلال الدير حيث كان رفاقها قد افاقوا من نومهم ودعاهم الى صلاة حضور صلاة الصباح . وبعد انقضاءها رجع بهم الى صومعته وجاءهم بالطعام الذي اعدّه لهم . وفيما هم يتناولونه أخذ يسألهم عن رئيس اساقفة صور وقال لهم : —

”لما انقطعت عن العالم كان وليم بعد في حدائته . ولكن ما لاح عليه حينئذٍ من ملامح الحكمة والتعقل انبأ بما سيكون له من الشأن العظيم والمقام الرفيع“

فطفقوا يتحدثون عن رئيس الاساقفة ويخبرونه بفضائله الرائعة وشهره حكيمه الداعة وسلطته الدينية الفاتقة وغير ذلك مما امتاز به من المواهب السامية والسجايا الحسنة



وقضوا صحابة يومهم يتحدثون تارة عن الدير وبانيه وما بقي من اطلاله وتارة عن بعثات الافرنج واسبابها ونتائجها . حتى اذا توارت الشمس بالحجاب واقبل الليل طلب الزائرون الراحة حيث وجدوها في الليلة الماضية وذكّرت مثيلدة الناسك وعده لها بان يسمع اعترافها ويعينها على ازالة حمل همومها وخطاياها فسار بها الى قرب البحر وجلس بجانبها واخذ يستدرجها في الاسئلة وينشطها بسرده الآيات الكتابية حتى باحت له بسر محبتها للملك العادل بين سحيم العبرات وتصيد الزفرات وقصت عليه بالتفصيل قصة شخوصها من بلاد الانكايذ مع اخيها الملك رتشرد الى الشرق والغرض الذي من اجله غادرت الدير وحادثه اسرها مع الملكة في دمياط وما تلا ذلك من الحوادث التي يذكرها القارىء

فدهش الناسك من سماع هذه القصة العجيبة دهشاً مزوجاً بالحزن والاسف وقال لمثيلدة

” ما العذر الذي تحملته لجواز التمتع بمثل هذه المحبة الاثيمة ؟ “

” لا ادري سوى اني رأيت الملك العادل فاحببته “

” هل أخذت بسحر جماله ؟ “

” بالجهد شعرت بشيء من ذلك “

” هل اغريت بتوقع الحصول على امجاد عالية والتمتع بملاذ دنوية ؟ “

” لم يدر ذلك قط في خلدي ولا خطر بيالي “

” كنت تشعرين عندما كان يجلس بجانبك ؟ “

” بأني أحبه “

” ألم تفكري حينئذ بالامور التي تحرم عليك محبة كهذه ؟ “

” لم اكف قط عن تذكرها “

” هل نسيت ان هذا الرجل خصم الافرنج العنيد ؟ “

” لم انس ذلك قط “

” وبعد ذلك ؟ “

” سرت في طريق الحب مواصلة النوح والبكاء غير جاهلة بانّه ينتهي بي الى البؤس

والشقاء “

” خلي عنك يا ابنتي الاستسلام لضعفك . تمسكي بما كان لك من العزم وارجمي الى

حامي الفضيلة والطهارة “

” يصعب علي يا ابنت ان اصف لك حقيقة حالتي . ارى نفسي منقاداً علي رغمي الى



ما ترتعد فرائصي من تصور هول الوقوع فيه . ارى امامي هوة عميقة لا قرار لها ولست  
مستطبعة التغلب على ميلي الى الهبوط فيها . اكابد تباريح اشد من آلام الموت وقعاً وبلد لي  
تجرع الآماها . وقد عرضت نفسي لاختار قطع البادية التي يحجم عنها اشد الرجال إقداماً  
لاتمس منك عوناً على نحو صورة الملك العادل من قلبي ومع ذلك اخاف كل الخوف انك  
تخني سوئي هذا . وفي هذه الدقيقة الرهيبة - حين ارى سيف الانتقام العادل مسلولاً  
فوق رأسي وصوتك المهيب معداً للنطق بالقضاء الخيف علي - يحدثني قلبي العاصي بالحب  
ويسموني الى ما فوق هذه المخاوف كلها  
”صه ابنتها الفتاة المنكودة الحظ ؟“

ولكن متبلدة لم تعد تستطيع سماع شيء من كلام الناسك لان جلدتها خانها وقواها  
خارت من فرط الاعياء وطول الصوم وشدة الجهاد والنزاع المتواصل بين عواطف قلبها  
وعوامل عقلها فسقطت مغشياً عليها

فاضطرب الناسك لاغمائها واوجس خوف دنو اجلها وعدا الى ينبوع ماء قريب منه  
وجاءها بقليل من مائه ورش به وجهها فافاقت من اغمائها وفتحت عينيها الزرقاوين والتفتت  
حولها فرأت اشعة القمر الفضية تنير ظلام الليل والناسك حانياً عليها حنو المرضعات على  
القطيم . ثم نهبت ذاكرتها واسترجعت ما فارقتها من الإدراك فاحاطت علماً بما هي عليه الآن  
فأفشعرت من شدة الذعر وانتفضت كالعصفور بلله القطر . وهم الناسك بان يكلمها في ما يبدد  
محب بأسها ويعيد لها بعض العزم والثبات واذا باصوات صليل اسلحة وصياح خوف وذعر  
اخترت فجأة حجاب السكوت السائد على تلك الاطراف ولما طرقت اذني الناسك صرخ :  
” اخاف ان يكون البدو قد اكتشفوا آثار الزائر في البادية واتوا يفاجئونهم وهم  
نيام . اني ذاهب لتضحية نفسي في سبيل الدفاع عن اخوتي . اما انت يا ابنتي فادخلي هذا  
الكهف ولا تعرضي جمالك لعيون لصوص البادية . . . . .“

قال ذلك وادخلها كهفاً هناك واعترض ثمة حديثه ظهور اشباح حجبت ضياء القمر  
فنظروا واذا برجال ليس عليهم من الثياب الا ما يستر عورتهم وقفوا في مدخل الكهف  
وسيوفهم المسلوطة ملطخة بالدم وعميونهم تحترق داخل الكهف لترى ما فيه . ولما ابصروا انداء  
ذات جمال منقطع النظير هجموا عليها يريدون اختطافها . فالتقى الناسك نفسه امامهم ورمقهم  
بناظر يتطاير منه شرر الغضب والحنق ورفع يديه نحو السماء وزعق بهم : -

” نحموا يا ابناء المعصية : ارجعوا من حيث جئتم والآن استنزلت من السماء ناراً آكلة



على كل يد اثيمة تمتد الى مس هذه الفتاة بسوء  
فراغهم سمع هذا القضاء الرهيب الذي أنذرهم به واجمعوا بعض الاجام لكن زعيمهم  
ما لبث ان زجر كالاسد المفترس وازاح يد الناسك من طريقه وهجم على متيلدة  
وباسرع من انقراض الصاعقة التي انذرهم الناسك بانحدارها نشب بينهم شاب يتطاير  
الشرر من عينيه وينقض الموت من حدة حسامه المسلول وقد حكه في كل من قام في سبيله  
واخترق به منفذاً الى متيلدة . فلما وصل اليها اخذها بين ذراعيه على اسلوب استخف بكل  
خطر حتى بالموت نفسه وخرج بها من الكهف قبلما يترك للناسك مجالاً للاعتراض  
اما الناسك فلما استرجع رشده الذي ضعفه هذا الحادث الفجائي خرج يعدو في اثر  
الخاطف فلم ير في طريقه سوى من بقي من اللصوص الذين مزق شملهم الرعب وشتتهم الذعر  
وقد اطلقوا سوقهم للريح مرددين باعلى اصواتهم اسم من كان علة ذعرهم واضطرابهم وسبب  
نكوصهم على اعقابهم : — " الملك العادل ! الملك العادل ! "

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد بذل ما ينتهي اليه جهده في الاسراع بحمله  
التمين فلم تثنيه اناث النازعين ولا احوال الموت نفسه عن مواصلة العدو والاسراع غير مبال  
بسوى المخاطر التي انتشل متيلدة من مخالها ولا يزال معرضاً لكرة تعيدها عليه بقوة تنبو ذراعه  
الشديدة عن رد تيارها حتى بلغ حيث كان جواده في انتظاره فاعلى صوته وامتيلدة باقية  
بين يديه واطلق له العنان فانطلق به في عرض البادية يسابق الرياح ووراءه فصيلة من  
جنوده يجدون السير في اثره

اما متيلدة فامسكت بذراعي من احبته وانقطعت كمن في حلم عن التحرك والتنفس مخافة  
ان تستيقظ وتقف على ما هي فيه من الخطر الشديد

## الفصل العشرون

### عهد الخطبة

ولما بلغ الملك العادل سفع القلزم ترجل عن جواده ليتمكن متيلدة من الحصول على شيء  
من الراحة . وكان بالقرب منه ربة تظللها اشجار الجميز والطرفاء فصعد بمتيلدة اليها واعد لها  
في ظلالها مجلساً تسريح فيه قليلاً وتركها تتمتع بصفاء هذه الراحة وحدها

ولما خلت متيلدة بنفسها راجعت الحوادث التي عرضت لها فلم تستطع ان تدرك سر ظهور  
الملك العادل امامها عند تعرضها لاشد خطر طراً عليها في حياتها ليدفعه عنها ويخلصها منه



حين كانت تظنه ذاهباً في طريقه ليوافي اخاه صلاح الدين. ثم تحولت افكارها نحو الناسك واصدقائها الذين محبوبوها في هذه الزيارة ولا سيما دوق غلوسستر فاضطربت اضطراباً شديداً لاجلهم واوجست ان يكونوا كلهم قد ذهبوا ضحايا تطوعهم في خدمتها

واذ ذاك جاءها الملك العادل بقليل من الماء البارد لتروي به غليظها فنظرت اليه نظرة تعجب مزوج بالشكر والخيرة وصاحت :-

”لله من هول هذه الحوادث الاخيرة ! فماذا اصاب الناسك ؟ وماذا ناب اصدقائي الامناء وماذا خباة لي القدر من الكوارث ؟“

فقال لها الملك العادل :-

”اشربي هذا الماء البارد وسكني روعك قليلاً . فاننا سنبقى هنا حتى يهب من البحر نسيم ليليل يلطف حرارة الهواء ويمكننا من استئناف المسير وسانتبهز هذه الفرصة في توبيخك ولو قليلاً على ما بدر منك من الطيش وقلة الحكمة . ولو اقتصر عملك هذا على تعريض نفسي وحدها لخطر الموت لسكت ولم افه قط بشيء من التذمر والاعتراض . . .“

”لم اجهل الخطر الذي عرضت نفسي له ولكني لم اتوقع قط بلوغه اليك لاني كنت واثقة انه لاشيء على وجه الارض يحول دون انطلاقك الى اخيك الذي كان ينتظر قدومك اليه بذهاب الصبر“

”ولكن هل ظننت اني بعدما رجعت الى القاهرة وسمعت بانطلاقك وتوقعت تعرضك للخطر الذي وجدتك فيه انا اخرج عن المبادرة الى انقاذك لسبب من الاسباب ؟ اني على الفور عزمت على اتباعك واقتفاء اثرك غير مكترث لما اعترضني من الموانع . فلواطعتني منذ البداية لآمنت التعرض لهذه الاخطار وكفيتني الاتهام بالتمرد والعصيان“

ثم قص عليها تفصيل ما عاناه من المشاق قبل وصوله الى اطلال الدير واختبرها بانته عند دخوله اليها كان اللصوص قد فتكوا باصدقائها وكان دوق غلوسستر في حالة النزاع فنظر اليه وعرفه وتكلف النهوض قليلاً وقال مشيراً الى الكهف حيث كانت متيلدة والناسك ”خلص متيلدة“ واسلم الروح

فصاحت متيلدة وقد اجهشت في البكاء :-

”اسفي عليك يا دوق غلوسستر الشريف العظيم صديق اخي الامين لقد ذهبت ضحية اهتمامك بي وكنت انا سبب فقد حياتك الثمينة ! - وهل قتل معه جميع اصدقائي ؟“

”تركت معظم رجالي عندهم ليدفنوا من مات منهم ويعنوا بالجرحي . ولم يمكنني ان ابقى



بنفسي لان همي الوحيد كان منصرفاً نحو تخلص حياتك  
 ثم نهض بها نازلاً الى حيث كان رجاله ينتظرونه وكان الحر في معظم اشتداده وريح  
 السموم تفتح باحر من اللهب والخييل لانزال تلهث لهنأ متواصلاً عاقها عن استئناف المسير  
 والرجال يتشأمون متطيرين ويندرون بعضهم بعضاً بسوء المصير - فارتأى الملك العادل  
 ان يسير بالجمال ويترك الخييل . ولكي يسهل على رجاله اطاعة اوامره استعان بالقدوة والتمثيل  
 وانطلق امامهم ماشياً على قدميه بجانب الجمل الذي امتطته متيلدة وسار رجاله وراءه على  
 رغمتهم وفي وسطهم ما بقي من الجمال محملة قرب الماء والزاد والخيمة  
 وانقضت بقية ذلك اليوم بلا حادث يستحق الذكر وكان من رأي الرجال ان يقضوا  
 الليل كله في السرى تخلصاً من حر النهار . لكن الاعياء كان قد بلغ من متيلدة مبلغاً كاد  
 يذهب بحياتها . فلم ير الملك العادل بدءاً من الوقوف على رغم تدمير رجاله وتبرمهم . وما ابطأ  
 ان نصب الخيمة وانزل متيلدة فيها طالباً اليها ان تلتبس الراحة بالنوم ولو بضع دقائق  
 وانطرح الرجال على الرمال وما ابطأوا ان استغرقوا في نوم عميق من شدة التعب . وظل  
 الملك العادل وحده ساهراً على حراسة الخيمة لا سمير له في تلك المفازة المقفرة الموحشة  
 سوى القمر والنجوم

ولم تغمض اجفان متيلدة سوى دقائق معدودة حتى افاقت وطلبت الى الملك العادل  
 ان يستأنف المسير فاجاب طلبها في الحال وايقظ رجاله وسارت هذه القافلة الصغيرة تجده  
 السير في ما بقي من ساعات الليل

ولما طلع النهار وبرزت اشعة الشمس رأوا عن بعد اعمدة رمال كثيفة منعقدة في الجو  
 وهي مقبلة عليهم تارة تسرع اسراع الرياح الهوجاء وطوراً تتناقل وتسير الهويناء فلم يبق  
 عندهم اقل ريب في تعرضهم لريح جنوب تشويهم شيئاً

وحينئذ بدت علامات التمرد على رجال الملك العادل وجاهروا بان ما أصابهم هو نتيجة  
 وجود متيلدة معهم وانهم اذا سمحوا ببقائها كانت البادية قبوراً لهم لا محالة . ولكن الملك  
 العادل تمكن ولو في الظاهر من قمع عصيانهم واكرهمهم على مواظبة المسير حتى انتصف النهار  
 واخذت الشمس تمطرهم بعارض من نار شوى اجسادهم . وحينئذ اصابت شظية من الصوان  
 المحدد رجل الجمل الحامل متيلدة فمطلتها واقعدته عن المسير . فأمر الملك العادل في الحال  
 بإعداد جمل آخر عوضاً عنه . ولكن رجاله عدوا هذه الحادثة دليلاً على صدق ما اعتقدوه  
 فجاهروا بالامتنان عن اطاعة امر اميرهم واجمعوا على وجوب تضحية من كانت سبباً لتعرضهم



لهذه المخاطر وتقدم اشد هم جسارة وتمرداً ليقبض على متيلدة فانقض الملك العادل الى جانبها وبسط احدى يديه عليها لهمايتها فهاج الجنود هياجاً تعدى كل حد وصاحوا بصوت اصدت له جوانب البادية وهجموا على الامير بنفس واحدة ليخنطفوا فريستهم من يده ولم يكن قيام عشرين جندياً على الملك العادل يحول دون تمكنه من البطش بهم لولا وجود متيلدة معه . ولذلك عمد على الفور الى الاستعانة عليهم بالحيلة . فنكص بمتيلدة الى الوراء وصوب سيفه الى صدرها وقال :-

” اذا كان لا بد من تضحية هذه الفتاة فانا الذي يفعل ذلك ولكن بعد ما انتزع نصل حسامي من صدرها اغمدته في صدري فاموت واطلب الى الله ونبيه ابن بنتهما لي منكم ويطالبكم بدمي . وسوف يطاردكم صلاح الدين الى اقاصي الارض وياخذ منكم بشار اخيه ” اننا نطلب دم هذه الفتاة لا غير . دعنا نبطش بها وافعل بنا بعد ذلك ما تشاء ” ان تقدمت خطوة واحدة مزجت دمي بدمها وتركت السماء والارض تتحجان من شدة هول الانتقام الذي يحل علي رؤوسكم الاثيمة !

فاجحموا عند مماع قوله هذا ونحوا جانباً يتشاورون في ما يفعلونه واخيراً عزموا على ان يتركوه هو و متيلدة لما يقضي به عليهما القدر ويكونون هم براء من تبعته . فابقوا له الجمل الجريح والخيمة وثلاث قرب ماء و قليلاً من الثار المقددة وانطلقوا وكانت متيلدة في اثناء هذا المشهد الرهيب في اغماء اشبه بالموت فلم تفق منه حتى غابت الشمس ولطف نسيم المساء شيئاً من حر النهار الخانق ففتحت عينها وهي في الخيمة التي ضربها الملك العادل فوقها بعد ما هجره رجاله . ولما اخبرها بانصرافهم وقص عليها ما جرى له معهم رفعت يديها الى السماء وقالت والدموع مل عينها :-

” انظريا ابي السماوي ! انه باذل حياته لاجلي ومع ذلك يمنعوني عن محبته ”  
” اسمعي يا متيلدة . اننا الآن وحدنا في هذه البادية الواسعة الاطراف كما كان ابوانا الاولان . وربما كان الغد موعد انطلاقنا من هذا العالم . فماذا يمنع انطلاقنا معاً متحدين كانتنا شخص واحد ؟ ”

” اعلم ايها الملك العادل اني احبك . واعترافي هذا الذي اُبديه امام الله لم تكن قط لتظفر بسمع كلمة منه لولا دنو الاجل ورؤيتي الموت مخيلاً بظلاله علينا . اني احبك . ولولا الاختلاف الذي بيني وبينك لفضلت البقاء معك في هذه البادية على جميع الامجاد التي يخصني بها ملوك الارض . ولو كنت موافقاً لي في معتقدي لربطت نفسي بك بعهود امام الله



وحده . ولكنني مع ذلك كله ما تحوّلتُ عن الحرص على واجباتي وشرفي . فقد تكون حياتي قصيرة جداً ولكن يجب ان تبقى على طهارتها ونقاوتها . حتى اذا دُعيتُ غداً لتسليمها وجب عليّ ان اردّها الى الله بلا عيبٍ ولا دنسٍ كما اعطانيها . قل لي ايها الملك العادل هل تعتقد اعتقادي ؟ ”

” لا احاول الحصول على محبتك بالغشّ والخداع كما اني لا أنكر عليك ما أجدهُ فيك من الفضائل التي اعجب بها كل الاعجاب . ولكنني لا أُقيد نفسي بالخضوع لقوانين معتقد أجهل قواعدهُ وفرائضهُ فاذا امرتني بالعدو بأخي وحمل السلاح ضدّ وطني عصيتها كل العصيان . على اني لا اظنّ ان الدين الذي يحملك بهذه الفضائل يفرض عليّ ارتكاب خيانه كهنه ! فاقبليني كما انا فاكون لك والله وحدهُ يتولّى رشادي وهدايتي ان كنت في حاجة الى ذلك ”

فجثت متيلدة على ركبتيها ودعت الملك العادل فخرّ علي ركبته بجانبها ثم اخذت يديه بيديها ورفعتها الى السماء وقالت : —

” اسمح لي ايها الاب السماوي ان آتي به اليك ”

ثم قالت : —

” انهض الآن فقد اصيبت اهلاً لما تطلبه مني . اني ادك بانهُ لن يكون لاحد سواك حق بان يدعوني زوجة له . اقول هذا واقسم به امام الله الذي يملأ وجوده المطلق هذه البادية الواسعة ويخيم على فؤادك ”

## الفصل الحادي والعشرون

### الرجوع الى مصر

وعند الفجر نهض الملك العادل يستعدّ لاستئناف المسير فقدم الى متيلدة قليلاً من الماء والتمر وقال لها : —

” هذا كل ما استطع تقديمه لك يا حبيبتي في وليمة خطبتنا ”

” ان المحبة تجعله انخر وليمة في عيني ”

ولما عزموا على المسير حاولت متيلدة ان تمشي لكن الملك العادل ثناها عن عزمها هذا مخافة ان تدمي الحصى قدميها فحملها بذراعيه بنشطة الامل الجديد الذي احياه فيه المشهد الاخير . فأسندت رأسها الى صدره واغمضت عينيها وكان التعب والحرق قد أخذاً منها كل



مأخذٍ فأخذت تراوح بين الحلم واليقظة . ثم تغلب عليها الضعف تدريجاً فلم تعد تذكر شيئاً مما حولها ولا رأت ريح الجنوب القائمة على قدم الثوران ولا الشمس الصافية على اطراف البادية احمر النيران — هذه كلها مع تباريحها وآلامها وتويج ضميرها ووطنها وآلها — غابت عن ذاكرتها فلم تعد تذكر شيئاً سوى محبتها وذلك الذي تطوقها ذراعاهُ

ولكنها بعد مضي عدة ساعات شعرت باضطراب عابث بخطوات حاملها فأعادها هذا الشعور الى الصحو التام وفتحت عينيها فراعها أن رأت علامات الاعياء الشديد على وجهه وزادها رعباً على رعب حين شاهدته ملطخاً بالدم . فانلقت على رغمه من بين ذراعيه وصاحت :-

” حبيبي الملك العادل ! مالك ؟ ماذا اصابك ؟ “ ” خلي عنك الجزع . لم يصبني شيء “

وكان العرق البارد مكللاً وجهه وقد اقمده الاعياء عن الوقوف ولا يزال الدم يقطر

من فيه من شدة التعب والحز ومع هذا كله حاول اخفاء ما به عنها وقال لها :-

” اني الان احسن كثيراً . فلنستأنف المسير لان جبل الخليل لم يعد بعيداً عنا “

” لا بل دعنا نموت هنا . وليس في موتنا معاً من بأس ! لاننا اذا عشنا فقد يعرض لنا

ما يقضي باقتراعنا احدنا عن الآخر وحينئذ نأسف اشد الاسف على فوات اليوم الذي

وعدنا فيه الموت بالتجاه ابدى “

فلذت هذه التأملات للملك العادل . ثم استعان بمتيلدة على النهوض واطلق لنظرو

عنان الاستشراق فلاحت له قمة جبل على بعد شاسع . فرفع صوته واخذ ينادي باعلى ما

يستطيعه من اصوات الاستغاثة فلم يكن من سامع ولا من مجيب . فعاد الى متيلدة يتعثر

بازيالك الخيبة وانطرح على الرمل يجانبها بتوقع الموت الذي لم تكن فيه قوة على رده .

فادركت متيلدة ما هو عليه من شدة اليأس واخذت يدها بيده وقالت :-

” ان هذه الساعة التي اتمكن فيها من محبتك بلا خوف ولا خطيئة لحي اثنى ساعات حياتي

كلها . فليتنى اتحقق اننا حتى في العالم الآتي نجتمع معاً ولا نفترق “ . ” حيثما ذهبت اذهب “

” اذا الى الابد ؟ “ . ” الى الابد “

وفي هدوء الليل حمل النسيم على جناحيه من نحو الشرق صوتاً ضعيفاً اشبه بالهمس

فدب الرجاء في صدر الملك العادل ونهض بصغي والصوت يزداد قوة ووضوحاً حتى سمع

اقدام حمل ثم صهيل جواد ثم اصواتاً بشرية . فصاح من شدة الفرح :-

” هذه قافلة قادمة ! لقد نجونا ! “

وكانت هذه القافلة عبارة عن رجاله الذين تركهم في اطلال الدير . فلما ابصروه هو



ومتيلدة في حالة النزاع من شدة الاعياء والجوع والعطش هبوا باسرع من لمح البصر اليهما واغاثوهما بقليل من الماء والطعام لارواء الظم وسد الرق ثم اركبوها واسرعوا بهما الى جبل الخليل حيث انزلوهما كهفاً تمكنا فيه ان ينالا حاجتهما من النوم الطويل العميق وفي اليوم التالي استأنف الركب مسيرهم الى القاهرة ولم يعرض لهم في الطريق شيء يستحق الذكر سوى ان متيلدة أخذت تمثل لعينيها الموانع العظيمة التي تعرض لها وتفضي بانفصالها عن حبيبها فتذكرت الحرب الحامي وطيسها بين العرب والافرنج وموقف الملك العادل الحرج فيها . فلم ترج منه الانجياز الى جانب الافرنج ولا ارادت ذلك واذا ظل اميناً لوطنه أبي اخوها وملكها الذي له السيادة المطلقة عليها ان يعطيها لآخي صلاح الدين وساعده الامين وهذا الاضطراب الذي عبث بافكار متيلدة أخذ ايضاً مأخذاً عظيماً من افكار الملك العادل فتذكر ان الشرف والحبة الاخوية فرضا عليه واجبات عظيمة جداً وان حبه لمتيلدة عاقه عن اتمام هذه الواجبات . كان يجب عليه ان يكون منذ وقت طويل بجانب اخيه يطرح اكايل الانتصار عند قدميه ولكن الحب انساه الواجب والشرف وحمله على ترك جيشه عندما وجب عليه ان يزحف به . ولما دخل القاهرة استقبله الشعب والجيش بالاكرام والاحترام ولكنهم كلهم نظروا الى متيلدة شذراً واعرضوا عنها بوجوه باسرة لانهم عدوها علة سقوط عكا وتأخر الملك العادل عن موافاة اخيه

### الفصل الثاني والعشرون

” اياها طالب “

وفي اليوم التالي وقف ببوابة القصر فارس متتقع متتظي جواداً اسود فاحماً وطلب الاجتماع بالملك العادل . فادخله احد الجباب الى غرفة محاذية لمجلس الامير ودخل يخبره بقدمه فامر ان يدخل به عاجلاً . فلما دخل ورجع الحاجب ادراجه قال له الملك العادل : -  
” اكشف ايها الفارس قناعك . وقل ما تريد مني . فلا اظن ان وجود الاميرة متيلدة يشنيك عن اظهار نفسك وطلب ما جئت لاجله “

فازاح الفارس لثامه واسفر عن محياً مونمورانسي الجميل الجميل ولما رآه الملك العادل ومتيلدة دهشا دهشاً لا مزيد عليه وكادا يكذبان اعينهما

وكان على ترس مونمورانسي منطقة البروج وفي مركزها سهم موجه نحو رسم العذراء ( برج السنبله ) وحوله نقشت عبارة ترجمتها ” اياها طالب “ فلما وقع نظر الملك العادل على



هذا الشعار ادرك حالاً ان متيلدة هي ضالة مونورانسي التي ينشدها في القاهرة فقال له  
 "اي بطل عكاء لا ادري اي طيش اغراك بالمجيء الى حيث يكفي ذكر اسمك لان  
 يقضي عليك بموت عاجل لا قبل لي بانقاذك من مخالفه؟"

فاجابه مونورانسي بعد ما ادى التحية الواجبة لاميرة انكلترة :-

"اعلم ايها الملك العادل ان احمد المشطوب لما بلغ معسكر الافرنج وانكشف له حقيقة  
 الخدعة التي جازت عليه وانه قد جاء بالملكة لا بالاميرة غضب غضباً لا يوصف واتهمك  
 بالقدر والخيانة واشاع عنك بان هيامك باميرة انكلترة على شدته كان دون رغبتك في  
 الاستقلال عن صلاح الدين ومخالفة الافرنج ليعينوك على الاستئثار بعرش مصر . وقد ذاع  
 هذا الخبر في معسكر الافرنج وكان الملك رتشردي في مقدمة المصدقين له وتوقع انك تشتط  
 لمخالفتك لنا قبوله بان تكون اخنهُ زوجة لك . فلم يسره هذا الامر لان لوسيان منذ شاهد  
 الاميرة متيلدة في قبرس شغف بجهاها وبعد وفاة زوجته سبيل التمس من رتشردي ان يسمح له  
 بها . ونظراً لما بينهما من الصداقة المحكمة العرى اقسم له ان متيلدة اذا رفضت نذر  
 الترهب ورضيت ان تزوج لا تستطيع ان تفتن برجل سواه . . . ."

فقال الملك العادل حاتقاً :-

"ما اسخف هذا الوعد المبني على الطيش والرعونة ! وما اشبهه بوعد ان يعيد اليه التاج  
 الذي اضعاه ! وان عرش القدس وقلب متيلدة كليهما ليسا تحت سلطة رتشردي ؟"

فصبغت حمرة الخجل وجنتي متيلدة واستأنف مونورانسي كلامه :-

"اما فيليب اغسطس وباقي ملوك الافرنج فخالفوا رتشردي في تحزبه للوسيان وفضوا  
 بوجوب اعطاء الاميرة متيلدة لك اذا وعدت بالانضمام الينا . فناقضهم عدة امراء في ذلك  
 وقالوا ان حق الاختيار يجب ان يكون لمتيلدة نفسها . اما انا فلم اكن من رأيهم فقط بل  
 عرضت ايضا ان اخرج بالف من الفرسان الامراء طالباً الاميرة لاسمع من شفقتها ما تخارهُ  
 واسفك آخرقطرة من دمي في سبيل تنفيذ ارادتها

"ما اظنك اقدمت على دخول المدينة بفرسانك"

"دخلتها وحدي . وتركت فرساني متوارين في ظاهرها ولا يظهرون الا اذا مست

حاجة اليهم واييت ان تطلق الاميرة متيلدة"

"لست بقادر على اخذ الاميرة اتكالاً على ما لديك من القوة . فان لي في المدينة جيشاً

كبيراً يحول دون قصدك هذا"



”ضاعفهم اذا شئت فلا اهرب جانبيهم . ولكن اجبني على سؤالي — هل تقبل بما اشترطه عليك ؟ وانت ايها الاميرة هل ترومين الانطلاق ؟“ فاجابه الملك العادل : —

”لا اقبل بشروطكم . ان شرفي اعظم من ان يسمح لي بان اخون اخي واغدر بوطني اما الاميرة فلعلها لم تبق حرة لتختار ما يعرضه عليها ملوكها وامراؤها“

فاخذت مونغورانسي دهشة عظيمة يعجز القلم عن وصفها . ثم سمع الملك العادل وقع خطي قادم في الغرفة المجاورة فخف لاستقباله ليعترض دخوله ويجول دون مشاهدته لمونغورانسي ولما انتهى الى الباب حياه ضابط يدعى خالد كان من اشد رجاله امانة واخلاصا واشجع ضابط في جيش صلاح الدين والتمس منه على الفور ان يخلو به على انفراد لامر ذي شأن واذ لم يسعه انتظار جوابه دنا منه واسر اليه وقال

احذر ايها الملك العادل ولا تضع دقيقة واحدة في سبيل التخلص مما انت فيه الان . فالمدينة كلها في هياج واضطراب . وفي اجنيازي اليك سمعت القوم يهيمسون بعضهم الى بعض ان في القصر فارساً من فرسان الافرنج . وقد تدفعهم شدة الهياج الى الهجوم على القصر . ثم ان هياج الشعب اصفر الاخطار التي تهددك . فان اخاك قد قضى عليك بالموت :

فاغلق الملك العادل الباب وادخل خالد الى حيث كانت متيلدة ومونغورانسي وقال له : اعد با صديقي حديثك بلا خوف امام اميرة انكلترة وهذا الامير المخلص الشجاع فحسر مونغورانسي لثامه وقال : — لا خوف علي من بدعوة الملك العادل صديقه فتأثر الملك العادل من شدة ثقته به واكد له انها لم توضع في غير موضعها ثم طلب الى خالد ان يطلع على سبب قضاء صلاح الدين عليه بالموت فاجابه : —

”كيف نسألني عن السبب وانت عالم به ؟ اما أعدت ملكة انكلترة الى زوجها ؟ اما ابقيت اخنوخ عندك ؟ وهذا العصيان المزدوج ارتكبت اثمه في شر الاوقات — حين كان خفو صلاح الدين عن ذنبك في سقوط عكاه باقياً حديث الاسنة والشفاه !“

”الم تبلغه رسائلي التي اوضحت له فيها ما سألتني عنه الان ؟“

”لا اعلم . ولكني علمت ان ابنة اموري ( اغنس ) ذهبت اليه واكدت له خيانتك فابي ان يصدقها وظل واثقاً بامانتك حتى جاءه المشطوب معفر الوجه ممزق الثياب وشكا اليه انك خدعته وخنث سلطانك . فاقشعرت ابدان الحاضرين من شدة هول هذه التهمة الفظيعة ولا تسئل عن غيظ صلاح الدين فانه كان مما يفوق وصفه ويتعذر التعبير عنه . ثم قص عليه المشطوب تفصيل خيانتك مبتدئاً من ذكر ازدرائك باوامره اذ ارسلت الملكة وابقيت



الاميرة . وانطلقت بها الى القاهرة لتجملها ملكة مصر مستعينا بالافرنج على تأييدك في مملكته الجديدة . وحينئذ عقد صلاح الدين مجلس شورى وطلب من اعضاءه الحكم عليك بما يستحقه عصيانك . ولما اجتمعوا عن النطق بالحكم وعلم انك لا تنهاب الموت لو حكم به عليك اهاب بالمشطوب وامره ان يركب في اثني عشر الفا من العساكر الى القاهرة ويقبض عليك باية وسيلة كانت ويقودك مكبلاً بالسلاسل الى ساحة المدينة وقبلما يذيقك الموت الاليم يسلم اميرة انكلترة امام عينيك لا يدي الطعام الرعاع ليفعلوا بها ما يحسن في عيونهم ! ولما سمعت قضاء السلطان الرهيب نسيت اثمك ولم اعد اهتم بسوى نجاتك فخرجت من المجلس وامتطيت فرسي التي تسابق الرياح فبلغت جبل الطور في يومين ومن قته شاهدت جيش المشطوب يجهده المسير فضاعفت سرعة عدوي حتى بلغت القاهرة الآن ولكني لا اضمن تأخر المشطوب عن الوصول الى ما بعد شروق شمس الغد

فاخذ الملك العادل يضرب اخماساً لا سداس توصلاً الى طريقة ينقذ بها متيلدة من الخطر المحقق بها من غير ان يضطر الى ابعادها عنه . فلم ير في الحالة الحاضرة منفذاً لما اراد ولا مخرجاً مما احاط بها من الضيق الخائق بسوى تسليمها الى مونمورانسي . فاخذها بيدها وقادها اليه وقال له : — "خذها يا مونمورانسي الى معسكر الافرنج . واني لا اخلاصك وشياعتك وشرفك مستودع خطيبة الملك العادل

فصعق مونمورانسي بهذا البلاغ الغريب لان مخاوفه التي اوجسها من جهة متيلدة لم تبلغ هذا الحد . وهم بالاعتراض والاستيضاح . فسبقتهم متيلدة الى التصريح بما اغناه عن ذلك واخبرته بما عاهدت الملك العادل عليه في البادية

وحينئذ خرج الملك العادل بنظر في اعداد ما يلزم لانطلاقها

### الفصل الثالث والعشرون

#### سفر متيلدة الى عكا

تجمع كل النصارى الذين في القاهرة وامر بتوزيع الاسلحة عليهم واوعز اليهم ان يخرجوا افراداً الى ظاهر المدينة قرب المطرية حيث يوافيهم باميرة انكلترة واميراً آخر لم يسم باسمه ثم عاد الى متيلدة وقال لها : —

"كل شيء معد . ان نساءك ومحفتك في انتظارك وستنطلقين من احد ابواب القصر

السرية مصحوبة بخالد"



” اني مفارقة لك فراقاً قد يكون ابدياً . افلا تخبرني بالخطر الذي يتهددك والوسائل التي عزمت على اتخاذها لصرف غضب صلاح الدين عنك ؟ “

” لا اعلم . ولست مبالياً الآن بغير الاهتمام بسلامتك ونجاتك من الخطر . فلا تسألني شيئاً واقصري يا حبيبتي حتى عن الكلام معي . واذهي حرصاً على حياتك الثمينة - اذهبي قبلما يخونني جلدي واعدل عن التسليم بسفرك . تعال يا مونورانسي . انك في اشد خطر . فلا يصح ان اترك وحدك . اتبعني لنوافي الاميرة في آخر القناة قرب سفح جبل المقطم “

ولما خرجا وجدا عند بوابة القصر جمهوراً غفيراً يروم اعتراض مسيرهما . وكان مونورانسي قد سدل قناعه على وجهه بخلاف الملك العادل فانه سار حاسر اللثام و اشار الى الجمع بالتمحي فاطاعوه ما خوذين بهيبة جلاله واخلاوا له الطريق فانطلق هو ورفيقه آمنين

وكان الملك العادل ينظر الى مونورانسي في اثناء مسيرهما من طرف خفي فرأى رباطة جأشه نقية لا يشوبها شيء من الخوف . فاعجب بشجاعته اشد الاعجاب واطلمه على ذلك بعدما اجنازا الجموع وقال له : -

” اعترف لك يا بني لورأيت للخوف اقل اثر عليك - بل لو ان يدك التي قبضتها ضغطت يدي اقل ضغط بصورة التلق والاضطراب عند اجتيازنا في وسط ذلك الجمهور الخائق الغاضب لما عددتك اهلاً لحفظ الوديعة التي ائتمنتك عليها ولا توقعت لمتيلدة اماناً معك لان الرجل الضعيف في حضرة الموت يكون اضعف في مقاومة عواطفه وامياله “

فاجابه بلهجة الترفع والاباء : -  
” مهما يكن من عواطف واميالي فثق بانك - بعدما استودعني سر العلاقة التي بينك وبين اميرة انكلترة - قد ائمت بيني وبينها حاجزاً حصيناً لن تجسر امالي على محاولة تعديده واذا كان سوء الحظ قد قضى علي بان ادفن جبي العقيم في اعماق صدري فاعلم اني سأعنى عناية لا مزيد عليها بشدة كتمان حتى يتعذر علي متيلدة اختراق استاره والوقوف على آثاره “

وبعد قليل جاء خالد بالاميرة متيلدة ونسائها فساروا كلهم الى ظاهر المطرية حيث كان النصارى ينتظرونهم فعرفهم الملك العادل بمونورانسي فرحبوا به واكرموا استقباله وولوه قيادتهم

ولم يبعدوا قليلاً حتى وصلوا حيث كان الفرسان الامراء ينتظرون مونورانسي نخفوا الى استقبال اميرة انكلترة واحاطوا بحفتها وحيوها تحية التجارة والتعظيم ثم ادوا التحية نفسها للملك العادل بعدما عرفهم به قائدهم مونورانسي



وبعدما استدل مونمورانسي من خالد على الطريق التي يجب ان يسير وافيها ليحتملوا ملاقاته المشطوب وجيشه اشارت متيلدة بالسير والحزن يقيمها ويقعدتها ورجع الملك العادل وخالد الى القاهرة وفي فؤاده نار جوى احرق نار الجحيم ابردها

### الفصل الرابع والعشرون

#### خيمة المشطوب

ولما دخل الملك العادل المدينة امر بجمع جيشه المتفرق فاطاعوا الامر باسرع من لمح البصر وفي ساعات معدودة اقيمت الحصون والماريس والخنادق حول المدينة احنياطاً لصد هجمات المشطوب اذا حدثته نفسه بذلك بعد وصوله الى ضواحيها

وفي اليوم التالي اعلن الحراس القائمون في ابراج القاهرة للاستطلاع والاستكشاف انهم رأوا على بعد جيشاً كبيراً يزحف على المدينة فجمع الملك العادل الجنود والاهالي في الساحة الكبرى وقال لهم: — "لقد اوغر صدر صلاح الدين علي ووشي بي اليه فعدي خائناً وارسل المشطوب لقتلي فهل تسلمون بذلك؟"

فصاحوا جميعهم صيحة استنكار دوت لها جوانب القاهرة واقسموا بصوت واحد انهم يقدونه بنفوسهم ولا يسلمونه الى المشطوب الا بعدما تسفك دماؤهم في سبيل الدفاع عنه حتى تاثر الملك العادل من شدة محبتهم له وقوة سلطته على قلوبهم

فانفذ على الفور رسلاً الى المشطوب يدعوه اليه للنظر في ما هو آتٍ لاجله بطريقة سلمية اجتناباً للعداء وحقناً للدماء . فلبى المشطوب الدعوة ودخل القاهرة مصحوباً ببعض اعوانه وزار الملك العادل في قصره . وبعد ما حياً وجلس قال له الامير: --

"بلغني ما انت قادم لانه من قبل صلاح الدين فاعلم انك لست بقادر على تنفيذ واحد من الامرين . لان الاميرة متيلدة اصحبت على مقربة من معسكر اخيها وراشي الذي تروم قطعه بيد رجالي الذين بكلمة من في يكتسحونك انت وجيشك من عالم الوجود قبل مغيب الشمس . فنصحتي لك ان ترجع الى اخي وتخبره بما رأيت وسمعت . وقل له اني عالم بان الافرنج عازمون على مهاجمة فيصرية . فليوافني اليها وهناك يرى هل اصاب ظنة في ما اتهمني به وهل اسحق العار الذي قضى به علي؟"

"لا انكر ان فيصرية لا تسقط اذا نصرتها ولكني لا استطيع الرجوع الى اخيك ما لم آخذك اسيراً"



” تأخذني انا اسيراً ! وبكلمة واحد تفعل ما عجزت عنه جيوش الافرنج كلها ! ان شرف  
اسر الملك العادل اكبر جدّاً مما يستحقه رجل نظيرك ! واليد التي تقيده يديّ بالسلاسل لم  
تخلق بعد . واذا لم يرضك ما قلت لك فارجع حالاً الى معسكرك واستعد للقتال وسترى قبل  
مغيب الشمس من منا يكون اسير الآخر  
فنهض المشطوب وأعلن استعدادهُ للقتال ومضى

وبعد مضيهِ اسرع الملك العادل الى رجاله ودرهم على الاحاطة بالعدو في الدقيقة  
المعيّنة . وما كاد جنود المشطوب يتحركون حتى رأوا انفسهم محاطين من كل جانب بجيش الملك  
العادل وباسرع من وميض البرق نشب اخو صلاح الدين في وسطهم شاهراً حسامه وحاسراً  
لبامه . وناداهم بصوت طالما اطربهم سماعه في ساحات الوغى وبث فيهم روح البسالة والاقدام  
في حومة الصدام وقال : —

” اعلموا يا رفقائي في الكفاح والجلاد واخوتي في المذهب والاعتقاد انهم يطلبون منك  
قتلي فهل تجيبون هذا الطلب وترضون ان يورد الملك العادل موارد العطب ؟  
فلما سمعوا صوته الذي طالما حنوا الى ترديد صده وشاهدوا جمال طلعتهِ وجلال مجياه  
عبث التشويش بصفوفهم ولم تنجح للمشطوب حيلة في اصلاح اختلالهم وحفظ نظامهم لانهم لم  
يعودوا يطيعون له امرّاً ولا يسمعون كلمة بل بعضهم القوا اسلحتهم الى الارض والبعض فروا  
هاربين ومعظمهم انحازوا الى صفوف قائدهم القديم . ولما رأى المشطوب انه بقي وحده قائداً  
بلا جيش دعا اليه بعض ضباطه الذين اخذتهم شفقة عليه وسار بهم راجعاً من حيث اتى  
وبعد ما اراح الملك العادل رجاله يوماً واحداً خرج بهم قاصداً قيصرية ليُدفع عنها  
غارات الافرنج . ولما وصلها بعد سفر طويل شرع في الحال يتفقد حصونها واسوارها وامر ببناء  
ما كانت في احتياج اليه من معدات الدفاع

ثم اهاب بخالد صديقه الحميم وطلب اليه ان يذهب حالاً الى معسكر الافرنج ويتجسس انباء  
متيلدة وينظر هل وصلت بسلام . فلبى اشارته على الفور ووعد ان يقوم بهذه المهمة حق القيام  
وفينا كان المشطوب راجعاً الى صلاح الدين لقي اغنس في مقدمة فرقة من العرب قادمة  
لاعاته على الملك العادل . فابلغها ما حل به وقال لها ان متيلدة برحت القاهرة الى عكا فلعلها  
تدركها على الطريق قبل وصولها اليها . فلبت اشارته على الفور وسارت وراءها واستأنف  
المشطوب مسيره الى صلاح الدين واخبره بما حصل فقام يستعد للزحف على قيصرية ليوقع  
باخيه اشد العقاب



## الفصل الخامس والعشرون

في سبيل انقاذها

عرض لأميرة انكلترة منذ مال قلبها الى الملك العادل صوراً مختلفة من مشاهد الحب وتقلبت عليها في دمياط والقاهرة والبادية اطواراً متعدّدة واحوالاً متنوعة علمتها ان للمحبين طرقاً كثيرة يشرحون بها غرامهم فينطقون بلا لسان وبلغون القلوب شكواهم من غير حاجة الى آذان . لذلك لم يخف عليها ما كان في فؤاد مونمورانسي مع شدة حرصه على كتمانها واعجبها جداً انه تغاب على عواطفه وكبح جماح امياله فلم تعدد حدود التأدب والاحترام . وسار بجانب محبتها ساكناً لا يتكلم الا اذا كلمته . واذا سألته عن شيء أجابها بما لامزيد عليه من الاختصار

وما اجناز الركب عسقلان والرملة حتى رأوا على بعد فصيلة كبيرة من جنود العرب مقبلة وكأنها استقلت عدد الحامية السائرة في حراسة اميرة انكلترة فشتت الفارة عليها

وتوقف مونمورانسي هنيهة يفكر في ما يجب عليه لانه لم يتعود قط غير الهجوم في جميع المعارك التي خاض غمارها . اما الآن فوجود الاميرة التي اوّتمن على حراستها وحماتها قضى عليه ان يلزم خطة الدفاع مكرهاً لا مختاراً وحذا بقية الامراء حذوه واصطفوا حول محفتها ورأى العرب ذلك فتعجبوا لانه كان على خلاف ما عهدوه من فرسان الافرنج فطمعوا بهم وعدوا وقوفهم موقف الدفاع دليل خوفهم وضعفهم فزادوا جرأة واقداماً واشتد عزمهم على مهاجمتهم . لكنهم بالجهد تمكنوا من الدنو اليهم حتى فتك حسام مونمورانسي بطليعتهم فتكاً ذريعاً وفرقها شذر مذر . ولما علموا ان خصمهم بطل عكاه تذكروا كيف كانت ينتقض على اسوارها انقضاض الصواعق وهو يفل الصفوف ويورد الالوف موارد الختوف فنكصوا على اعتابهم واركنوا الى الفرار ما عدا فارساً ظل واقفاً لا يبدي هجوماً ولا يحاول عن نفسه دفاعاً وهو يرمق المحفة التي فيها الاميرة بعين الغيظ والحنق . ثم دنا منها وباسرع من لح البصر سدّ مزراقه نحوها ورماه فاخترق استارها واصاب طرفه ذراعاً متيلدة فجرحها جرحاً خفيفاً . فخف مونمورانسي اليها ورأى اطراف ثوبها مظلخة بالدماء وكان الفارس قد لوى عنان جواده وبذل المهماز في شاكلته فعدا به بسابق البرق

فاعترى مونمورانسي غيظاً شديداً أخرجه عن رشده وصوابه وأغراه بمطاردة ذلك الفارس غير حاسب للامور حساباً . اما الفارس فظل يجنذبهُ وراءهُ وهو يروغ في النكوص



قدامه حتى صار على مقربة من رفائيه الذين سبقوه الى الفرار . واذ ذاك ادركه موغورانسي وابتدره بضربة القته الى الارض وما أبطأ ان ترجل عن جواده واستل سيفه ليورده حنقه فصاح به الفارس : —

” اطعن يا موغورانسي اطعن واغمد حسامك في صدر امرأة بلا معين ولا نصير ! “

فازاح موغورانسي اللثام عن محيا عدوه واذا به اغنس نفسها . فشق عليه ذلك وأبى ان يفارقها قبلما يعينها على النهوض مع انه رأى فرسان العرب يقتربون اليه ويستعدون لاعادة الكرة عليه . وما استوت اغنس على قدميها حتى اخذت رمحها وترسها وحملت عليه . اما هو فاقصر على ردة حملاتها من غير ان يتعمد الايقاع بها . واذ ذاك كان فرسان العرب قد لموا شعيتهم وجمعوا اطرافهم ودنوا منها فصاحت بهم اغنس : —

” النجدة يا رجال الدين على عدوكم موغورانسي ! “

ولما احاطوا به من كل جانب تركتهم اغنس وعدت الى الجهة التي كانت فيها متملدة . فادرك موغورانسي مرادها واخترق بقوة حسامه منفذاً بين الصفوف المحدقة به وجرى وراء اغنس فادركها فحملت عليه حملة صادقة . لكنه مع تحققه ان فتكه بها يمكنه من الانضمام الى رفائيه قبل وصول فرسان العرب اليه فضل الموت على حياة يشوبها عار البطش بامرأة . فظل يتقي ضربها على شدته وعنفه مترقياً عن الحمل عليها حتى انضم اليها رفقاؤها واخذوا بها جمونه من كل جانب وهو يجول بينهم ويصل وقد قطع الامل من النجاة لكنه ارتاح الى بذل حياته في سبيل من وعد بسفك آخر قطرة من دمه في الدفاع عنها . وأعجبت اغنس ورجالها ببسالته التي لم يروا لها شبيهاً وكادوا يعدلون عن الحمل عليه ابقاءً على حياته الشريفة لو لم يروا في الحرب من امامه عاراً لا يستطيعون احتماله .

ولما استبطأ الفرسان الامراء رجوع قائدهم تفرقوا بفتشون عنه حتى اتوا حيث وجدوه جاثياً على ركبته يرد هجمات الحاملين عليه بقطعة من سيفه وقد أشخن بالجراح وامتزج دمه بدماء الذين ارداهم واقام جثيتهم حوله متراساً . فاندفعوا بنفسه واحدة لانتقاده ولم يبر رجال العرب مندوحة عن الفرار فاركبوا اليه واغنس في طليعتهم

وكانت قوى موغورانسي قد انحلت من شدة آلام الجراح ونزف الدماء فحملوه الى حيث كانت بقيتهم تحرس محفة الاميرة ونزعوا عنه عدة الحرب فشاهدوا بملء الرعب والاسف قطعة رمح ناشبة في صدره . ولما فحص جراحه جروحه كلها قال انه يرجو شفاؤه اذا تمكن من نزع قطعة الرمح من صدره . ولما حاول ذلك انشأ في موغورانسي الماء اعاد اليه رشاده ففتح



عينيه ونظر نظرة بحث وتفتيش عمن لم تفه شفتاهُ بذكر اسمها وفاءً بوعدو خطيبها . فدنت منهُ ووجهها غارق بالدموع ووضعت يدها على يده فاخذها وادناها من شفتيه وقبلها قبلة احترام لا ينكرها عليه الملك العادل نفسه . فقالت له متيلدة : —

” ان اخي وجميع ملوك الافرنج سيلوموني اشد اللوم على نضحية حيائك الشريفة ا “  
 ” لا بل سيفرحون . واني لاستحلي موتاً نقودني يدك الى بابي . قولي للملك العادل اني ساطلب هدايته امام عرش الرحمة الالهية حيث افق عما قليل لان سعادتكما آخر شيء اتمناه على الارض . وارجوان مبادئ الشرف والاحترام التي عشت عليها تبقيني حياً في قلوب مواطني وفي قلبك ايها الاميرة ؟ “  
 ” الى الابد ! “

” اذا اموت سعيداً “

ثم استخلف رفقاهُ الامراء ان يأخذوا جثته معهم ويدفنوها على ربوة امام عكاء وقال لجراحه ان يحاول نزع قطعة الرمح من صدره فأحجم من شدة اشفاقه فمد مونغوراسي يده اليها وانتزعها وأسلم الروح

وبعدما وقاهُ الامراء حقه من الندب والرثاء أعدوا له نعشاً وضعوه عليه وغطوه بالرايات والاسلحة التي غنمها في ساحات النزال وساروا قاصدين عكاء

وقبلما دخلوها تقدمهم احد الامراء وقص على الملوك خبر وفاة مونغوراسي فخرجوا كلهم لاستقبال متيلدة وجثة فاديها وكاد حزنهم على موته يساوي سرورهم بسلامتها ان لم يزد عليه وبعدما صلوا عليه وابته رئيس اساقفة صور تأييناً كأنه لاعظم الملوك والامراء دفنوه في المكان الذي عينه قبل وفاته

### الفضل السادس والعشرون

#### هواجس لوسيان

ولما حلت الملكة بمتيلدة سألتمها ان تطلعها على ما جرى في غيابها بين الملك العادل وبينها فقالت لها : —

” لم يكف الملك العادل منذ برحت دمياط عن اقامة الادلة الصادقة على شدة تعلقه بي فلم يعد في وسعي الاستمرار على التصلب وعدم التأثر . على انه يجب علي ان استشير رئيس الاساقفة في امري قبلما اطلعك على حقيقة ما اشعر به من جهة الملك العادل “



وما لبثت متيلدة بعد رجوعها الى المعسكر أن صارت قبلة انظار جميع من فيه من الملوك والامراء ولا سيما ملك القدس فكانوا يتسابقون الى اكتساب رضاها ونيل نعمة سيف عينيها . اما هي فلم تبد لاحد من اهل ميليشيا بشعر بالايثار والتفضيل بل عاملتهم كلهم معاملة واحدة ولكنها كانت ترتاح الى سماع حديث امير جليل القدر متقدم في العمر وهو الكونت هوغ امير طبرية

هذا الامير اقام عدة سنين اسيراً بالاسم في بلاط صلاح الدين فعرف الملك العادل معرفة تامة وأعجب كل الاعجاب بشجاعته ومروته وشرف نفسه وعلى يده أطلق سراحه واعيد الى اسرته وقد استرجع كل ما كان له من الاموال والمقتنيات . فكان حديث هذا الامير الشيخ اطراء شمائل الملك العادل والثناء عليه وكانت متيلدة تصغي الى هذا الحديث المشتغى اصغاء الجليس الى الوتر

وكان رجال العرب في اثناء الهدنة كثيراً ما يدنون من معسكر الافرنج ويشتركون معهم في العابهم العسكرية على اختلاف انواعها وازداد الفریقان في الاختلاط والتمازج والتآلف حتى صار عساكر الافرنج يرقصون على نغمات موسيقى العرب ورجال العرب ينشدون اغاني الافرنج

وفي ذات يوم دخل ساحة الالعاب في معسكر الافرنج فارس عربي ممثلاً بجواداً كريماً وطلب ان يكون من جملة اللاعبين وقال انه مستعد لمطاعنة فارسين من فرسان الافرنج بشرط ان تكون جائزة الغلبة السماح بان يجي اميرة انكلترة وبذهب من غير ان يميظ لثامه فقبلوا شرطه وطلبوا الى متيلدة ان تختار فارسين وعلى الفور حدثتها نفسها بوجود اختيار من يكونان اقل الفرسان دربة واختياراً فدعت امير جليل ويافا فبرزوا للفارس العربي وبعد جولات معدودة انتصر عليهما وسار على ظهر جواده الى جهة الرواق الذي اقامت فيه متيلدة . وكان لوسيان واقفاً بجانبها فحسد الاعرابي على هذا الظفر وطلب ان يبارزه فاعترضته متيلدة وقالت :-

” ان شروط الكفاح تمت والشرف لا يسمح بخالفها “

وحينئذ ترحل الفارس عن جواده وصعد الى حيث كانت الاميرة فانحني امامها وقبل طرف ثوبها ثم نهض واسر اليها :-

” هزم الملك العادل جيش صلاح الدين في القاهرة وهو الآن في قيصرية . وقد ارسلني اليك ليظمن قلبه بالوقوف على انباء سلامتكم . اني انا خالد “



فغشي محياً متيلدة حمرة خجل لم تخف على جميع العيون التي كانت ناظرة اليها . فضغطت الملكة بدها وزاد رئيس اساقفة صور اضطرابها بان رمقها بعين التفحص . وبعد انطلاق خالده سألها اخوها : —

“ هل تعرفين هذا الفارس ؟ ”

“ لكن شروط الكفاح لا تبيح لي اعلانه ولو كنت اعرفه ”

“ يحق لي كاخيك وملكك ان اطلب ذلك منك ”

فقال فيليب اغسطس : —

“ لكنك كاشرف امير على الارض تأبى فعل ذلك . وماذا يضرب سيدة ذات جمال

منقطع النظير ان يتسابق الرجال الى اكرامها من كل صوب ؟ ”

واذ ذاك اعلنت الملكة رغبتها في الانصراف فنهضت وتبعها متيلدة على الاثر . واستأذن

لوسيان ملك القدس في ان يصحب الاميرتين الى محفتيهما فقال لمتيلدة لما دنا منها : —

“ ان حسدي لهذا الفارس على انتصاره اقل مما على الارتياح الذي ابديته اليه ”

ان اخي نفسه لم يهتمني بابداء ارتياح الى هذا الفارس . واذا كانت نفسك تحدثك

بنزاهه فليس لي حق ان احول دون ذلك ”

“ سانا زله واغلبه ولو كان الملك العادل نفسه ”

ف نظرت اليه متيلدة بعين الشك والارتياح في إمكان ما يعلل نفسه به وادرك لوسيان

ذلك فقال لها : —

“ اتظنين انه لا يمكن التغلب عليه ؟ ”

“ يظهر لي ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يراه الافرنج في الملك العادل ”

واذ ذاك بلغت محفتها فحنت رأسها للوسيان اشارة الوداع ودخلت المحفة من غير ان

تمكنه من الجواب

ورجع لوسيان ادراجه مفتاضاً من الاسلوب الذي اشارت به متيلدة الى الملك العادل

ورأى ان موت مونمورانسي لم يرحه من عناء اكبر مناظر له . وكان الحب والطمع بالشهرة

قد اغرياه بالسعي في الحصول على شقيقة ملك انكلترة ولم ير من رتشرد الا كل ما زاده

اقتناعاً بإمكان نجاح مساعيه . ولكن خوفه من مناظره الملك العادل له كدّر صفاءه وأضعف

رجاءه ثم تذكر ان متيلدة قضت وقتاً طويلاً في الاسر عند الملك العادل وليس بعيداً انها

تكون قد مالت اليه واذا نجحت في حملته على اعنتاق مذهبها لم يبق لرتشرد باب لعدم قبوله



زوجاً لشقيقته لان محالته تفيده الافرنج فائدة لا تقدر  
وعند تصوّره امكان حصول هذا الامر اشدّ اضطرابه وازداد قلقاً على قلبي وعزم  
على مقاومة كل سعي في هذا السبيل  
وكان اول شيء فعله على الفور انه خلا برتسرد وبعد ما افوخ جهده في تلقفه  
واستعطافه عرض امامه بذكر متيلدة ورغبته في خطبتها فوعده رتسرد انه سوف يجعل  
هذه الخطبة ختماً لما بينهما من الصداقة وقال له في الختام : -  
” اذا كان قلب شقيقتي باقياً فارغاً شغلته بك كما أريد والأفستري ماذا افعل !“

### الفصل السابع والعشرون

#### الاعتراف

ثم ذهب الملك رتسرد الى مخدع شقيقته فوجدها جالسة مع الملكة ورئيس اساقفة صور  
وبعد ما حياهم وتمكن من الجلوس قال لها : -  
” اراك يا متيلدة لا تزالين لابسة ثياب الحداد على مونمورانسي الشريف المأسوف  
عليه ولا بد من القول ان استمرار هذا الحداد يفسح مجالاً للظن بانك تقومين به لداع  
اعظم من الأسف على فقد منقذك“  
” اذا سأخلمها مذالان واعدود الى ثوب الترهّب“  
” لكني رأيتك في الايام الاخيرة اقل اهتماماً بالامور الدينية فقلت لعلك عزمت على  
العدول عن اتمام نذورك . ولا اقول هذا لقلّة احترامي لما كنت مصممة ان ثقتني نفسك  
عليه بل لاني ارى انك ولدت لأن تكوني ملكة لا راهبة . ولديك كثيرون من الامراء  
الذين يثمنون شرف الحصول عليك وافضلهم ملك بيت المقدس . لكني لا اراك تجدين  
في صفاته الشخصية ولا في صداقته لي ما يحملك على الاحتفال به فانك غير مكترثة له  
ولا لغيره وقد بلغني من رئيس الاساقفة والملكة انك كنت كذلك في دمياط فلم تبالي بالملك  
العادل على رغم ما امتاز به من الفضائل الرائعة . فهل باقى قلبك فارغاً من هذه المواظف؟  
وهل في عزمك ان تبقي الى الابد غير دائنة لسلطة الحب البشري؟“  
” لا اعلم ماذا يجباه لي القدر في كنانته ولكن اذا خطر الزواج بيالي فما من قوة على  
الارض تكرمني على العدول عن اخياره وارضاه“



”قولي لي اليس بين الامراء الذين حولك من تحدثك نفسك برفض نذورك لاجله؟“  
”ولا واحد.“

”اذًا انت عازمة على اتمام نذورك؟“

فلم تجبه على هذا السؤال الصريح بسوى السكوت وذرف الدموع فقال لها : —  
”لا بد من شغل سرّي عابث بافكارك وسأنوط استجلاءه برئيس الاساقفة فهو  
يطلع عليه باعترافك له ويخبرني به“

ثم خرج الملك والملكة وبقيت متيلدة ورئيس الاساقفة . فدنت منه على قدم الوجلي  
والاضطراب وجثت على ركبتيها قدامه وقالت بين ذرف العبرات وتصعيد الزفرات : —  
”اسمع يا ابي اعترافي . واطلع على سرّي المحزن . واعلم ان عهداً — رباطاً سرّياً —  
يربطني بالملك العادل!“

”بالملك العادل مع ما بينك وبينه من الاختلاف في المعتقد والعادات؟“

”لا يخفى عليك انه كان منقذي الوحيد من مخالب الموت في البادية وقد آثر ان يضحي  
حياته في سبيلي على ان يتركني اموت وحدي . فبينما كان ظلّ الموت مخيماً علينا — وامام الله  
الذي ظننا انه يدعونا عما قليل لنعطي حساباً عما فعلناه — أحببت ووعدت ولكنه هو ايضاً  
ارفضي ان يكون مثلي ولا يخالفني في شيء“

”اللهم لك الحمد والشكر! — افتحي يا ابنتي قلبك لله بلا خجل ولا استخياء واشكري  
له رفقه بك واتقاه حياتك . وأعيدي على مسمعي ذكر هذه الحوادث العجيبة . وكيف  
قبل الملك العادل ان يجاريك“

”قبل ذلك عند ما رأى نفسه مشرفاً على الموت“

”وهل عدل عن عزمه هذا بعد ما نجى من مخالب الموت؟“

”لم يكن من السهل اقناعه الى النهاية على يد فتاة ضعيفة مثلي . ولا بظن — كما لا  
اظن — انا ايضاً — ان معتقدي يوجب عليه ان يخون بلاده ويندر باخيه .“  
”اذا تمكنت من اقناعه بما أريد لم يبق لي حاجة في هذه الدنيا سوى ان ابارك  
اقتراك واموت“

”واذا صار الملك العادل كما انا فهل تأذن لي يا ابي ان أحبه؟“

”نعم بلا ريب وسأبذل السلطة المنوحة لي في الحصول على رضى اخيك“

”وأبي حاجة تبقى حينئذ للحصول على رضى اخي؟“



” لانه وعد غير الملك العادل بك . . . . “

” ليس لاحد غيري حق التسلط على قلبي . وحياتي انما تتركس لله او تعطى للملك العادل . واذا ابي الله علي هذه المحبة اطعته لانه هو وحده قادر ان يفصلني عن انا مديونة له بحياتي “

” اخاف ان اصرارك على ما يخالف رضي اخيك يكلفك عناء شديداً اذا حاول الملك العادل عدم مجاراتك في ما ترومين . على انك اذا كنت واثقة بصحة موافقتك لك من هذا القبيل فلا تخافي لاني سابدل جهدي في تذليل الصعاب والتغلب على جميع الموانع التي تعترض نجاح مسعاك “

” لما فارقتك في القاهرة كان اخوه صلاح الدين قد ارسل يتوعدك فلم يخفل بوعيدك وقد بلغني انه استظهر على مندوب اخيه وهو الان في فيصرية . “

” اذاً يجب علي ان اسرع في اطلاع ملوكنا على هذا النبأ المهم . فقد طالما استفاد العرب من انشقاقنا وانقسامنا فيحقق لنا الان ان نستفيد من انقسامهم “

” وهل انت عازم ايضاً ان تطلع اخي على سرّي ؟ “

” نعم ساقص عليه بالتفصيل كل ما جرى لك من الحوادث منذ كنت مع الناسك على شاطئ البحر الاحمر حتى رجوعك الى القاهرة وحينئذ يعلم علم اليقين بانك في محبتك للملك العادل لم تزيغي عما يجب عليك “

## الفصل الثامن والعشرون

### وليم ولوسيان

ولما دخل رئيس الاساقفة مجلس الملك رتشرد وجد عنده ملك القدس ودوق برجندي يتشاورون في امر ذي بال وهو ان فيليب اغسطس ملك فرنسا رجع الى اوربا ووكل قيادة جيشه الى دوق برجندي . وكان رئيس الاساقفة يعلم ذلك لان ملوك الافرنج كانوا يستشيرونه في كل امر ارادوه . اما رتشرد فافلقه سفر مناظره بغتة وارتاب منه موجساً خوفاً انتهازه فرصة غيابه عن انكلترة وشبه الغارة عليها

فسكن رئيس الاساقفة اضطرابه وازال ارتيابه واقنعه بوجوب الانكال على شرف ملك فرنسا وعزة نفسه اللذين يحولان دون اقدامه على عمل معيب كهذا . ومما قاله له : -



”دعه يذهب الى بلاده ويتول بنفسه تسكين القلائل التي هبت رياحها في غيابهِ وعوض ارتيابك منه تأسف على حرمانه مشاهدة بيت المقدس واعلم ان العناية الالهية قدّرت لنا معيناً غير منتظر يسير امامنا ويمهد لنا سبيل استرجاع هذه المدينة المقدسة . ان الاسدين اللذين يحميانها يقتتلان وصلاح الدين والملك العادل في شقاق ونزاع وقد التقى جيشاهما في القاهرة فاستظهر الملك العادل على جيش اخيه وهو الآن في فيصرية . واذا لم نتخذنا الظواهر كان زحفه عليها تمهيداً لسبيل دخولنا اليها“

فدهش السامعون لهذا الخبر المفاجيء وعرض دوق برجندي ان يرسلوا وفداً الى الملك العادل لا بلاغته قبولهم بشروط مخالفته

فعارض لوسيان في ذلك معارضة شديدة وقال ان اول شرط يطالبه يكون خطبة الاميرة متيلدة فهل بلغ من قيمة مخالفته ان نضحي اثمن كنز عندنا في سبيلها ؟ فردّ عليه رئيس الاساقفة : -

”ولكني لا اعلم هل توافق متيلدة على رأيك هذا ؟“

فاجابه رنشرد بشيء من الغمظ : -

”انريد بقولك هذا ان شقيقي تحبّ الملك العادل ؟“

”أريد ان شقيقتك وعدته ان تكون خطيبة له . . . . .“

”لا تقدر شقيقي ان تعد وعداً كهذا . لانها تعلم ان حق خطبتها منوط بي وحدي وقد تصرفت فيه منذ الآن . فلوسيان خطيبها ولن يكون لها خطيب سواه“

فاعترضه دوق برجندي بقوله ان مجلس امراء الافرنج وجميع رجال هذه البعثة بل جماهير المسيحيين يطلبون موافقته على مخالفة الملك العادل اذا اشترط خطبة شقيقته

فانبرى له لوسيان وقال بلسان الواجد الخائق : -

”وماذا عسى ان يدعو الى وجوب عقده هذه المخالفة ؟ اليس بين ملوك الافرنج وامرائهم

من بضاهي الملك العادل بل يفوقه اهلية وكفاءة ؟“

فاجابه رئيس الاساقفة بشدة ومخبط : -

”اني لا عجب منك يا لوسيان كيف لم تر بفقد ملكك واعظاً وموَدِّباً يكسر من حدة غلوائك وكبرائك ويعلمك شيئاً من اللين والتواضع . الم يكفنا ما جرّه علينا صلفك من اضرار الشقاق والانقسام التي كادت تذهب بنا كل مذهب وتفرق شملنا المجموع تحت كل كوكب ؟ او ما كفناك اعترافنا بحقك في عرش لم تمكنك اهليتك وكفاءةك من الاحتفاظ



به؟ فأربأ على ظلمك وقف عند هذا الحد من الجرأة والقحة ولا تحاول تقييد رتشرد بوعدي  
ليس الوفاء به من مصلحتنا

فردت عليه رتشرد وهو بالجهد يستطيع ان يملك غيظته : -  
” قل لي ايها الاب المحترم الست متمدياً حدود حقوقك الدينية وسلطتك الكهنوتية  
وهل من حقوقك ان تقضي بيني وبين ملك القدس ؟ “

فاجابه ” نعم من حقوقي وواجباتي ان اذود عن مصلحة الدين كل من يحاول العبث بها وان  
أعين الضعيف وأُجحد المظلوم واذا كنت لم اذخر وسعاً في احترام ذوي السيادة والسلطة  
علناً امام الناس فالواجب علي ان اكلمهم على انفراد كاناس غير ممتازين عن غيرهم بما ينزههم  
عن الخطي وبعصمهم من الغلط . فلك يا رتشرد اقول علناً انك اذا استخدمت سلطتك كاخ  
وملك في الجور على شقيقتك اميرة انكلترا تضطرنني الى استخدام سلطتي المقدسة في الدفاع  
عنها . وانت يا لوسيان اذا اعمتك محبة الذات وحاولت حمل رتشرد على الوفاء بوعدي ليس  
فيه صلاحنا فاعلم اني اصرح علناً بسقوط حقك في العرش الذي اتفقنا على سفك آخر قطرة  
من دمائنا في سبيل استرجاعه . فاذا كر وعيدي هذا واحذره ولا تنس اني لم اتوعد قط  
ظلياً او باطلاً “

ثم حنا رأسه امام الملوك بهيبة ووقار وخرج من لدنهم . فقال لوسيان لرتشرد : -  
” ماذا بهمني وعيده ما دمت واثقاً بصدق وفائك “

” ثقتك في محلها . ولننظر الآن في ما سمعناه عن الشقاق بين صلاح الدين واخيه  
حتى اذا كان هذا الخبر صحيحاً اغتمنا سnoch هذه الفرصة واسرعنا في احراز النصر والظفر  
وعلى الفور عقد رتشرد مجلساً حريباً اطلع فيه الامراء على ما سمعته من رئيس الاساقفة  
عن الشقاق المستحکم بين صلاح الدين واخيه وقال لهم ان الانباء ترجح انضمام الملك العادل  
اليهم فسروا جميعهم بهذا الخبر واعلان الاساقفة كلهم ونائب البابا معهم ان قبول الملك  
العادل الانضمام اليهم اعظم شأناً من اكبر انتصار يحوزونهُ في ساحة القتال وان كل من  
يسعى برفض الشروط التي يطلبها لعقد هذه المحالفة يعدّ مجرماً في عيني الله والناس

فاستشاط لوسيان غيظاً وقام في المجلس يسفه هذا الرأي ويشير الى العار الذي يلحق  
بالانرج باعتمادهم في محاولة استرجاع بيت المقدس على مساعدة رجل غريب عنهم في المعتقد  
والعادات واخذ يدعو كلاً من الامراء باسمه مستنجداً مستغنياً للعدول عن هذا الرأي الوخيم  
فقالوا كلهم اليه ولا سيما الذين كانوا مثله يعللون انفسهم بامكان خطبة متيلدة واعلنوا



استعدادهم لمقاومة هذه المحالفة اذا كانت خطبة الملك العادل لمثيلة من شروطها  
واذ ذاك نهض رئيس اساقفة صور وبدد بجذقه المشهور سحب الاوهام التي ادخلها  
لوسيان عليهم وقال لهم ان مصلحة الدين اهم شيء تعنى به مثيلة المعروفة بصلاحتها ونقواها فهي  
احرص من غيرها على حفظ حقوق هذه المصلحة وصيانتها من العبث . وانه هو نفسه اول  
القائلين بان خطبة الملك العادل لها يجب ان تتوقف على رضاها وحدها

فوافقوا كلهم على كلامه هذا واتفقوا ان يرسلوا فرقة كبيرة من جيشهم بقيادة رتشرد  
الى قيصرية للاستطلاع والوقوف على افكار الملك العادل من هذا القبيل . وخرج رتشرد  
يستعد للسفر ولم يبطئ ان جمع الذين انتخبهم من الضباط والعساكر واطلعهم على قصده وابلان  
لهم ما يرجوه من مساعدة الملك العادل لهم . فضجوا جميعهم بهتاف الفرح والسرور واعلنوا ثقتهم  
بالظفر اذا كان الملك العادل معهم وليس عليهم

فدهش رتشرد من بلوغ شهرة الملك العادل الى هذا الحد واحفظه جداً ان يرى رجاله  
المنتخبين يضعون في الملك العادل ثقة اعظم من ثقتهم به . وكان قد عادى فيليب اغسطس  
ملك فرنسا لانه حاول ان ينازعه هذه الشهرة فكيف يسمح للملك العادل بها ؟ هذه الهواجس  
هاجت غيرته وحسده ومكنت فيه العزم على الوفاء بوعد اللوسيان نكاية بالملك العادل  
وذهب الى مخدع اخيه مثيلة وكانت تصلي فدخل متهجماً بلا استئذان ولا اعتذار  
وقال لها والقيظ آخذ منه كل ما أخذ : -

” اني ذاهب عما قليل الى قيصرية وساحمل عليها بغتة وافتحها عنوة وقد بلغني ان الامير  
الذي يحميها يميل الى الانضمام الينا . ولعل هذا الخبر بلغ رئيس الاساقفة منك كخبير  
عصيان الملك العادل على اخيه ولا يهمني الآن ان يبحث في هذا الموضوع بل يهمني ان  
استرجع بيت المقدس قياماً بما تركت بلادي لاجله . وقد وعدت لوسيان انك تكونين  
زوجة له وسأفي بوعدتي هذا من غير ان اعلم او اطلب ان اعلم افكارك من هذا القبيل لأن  
بنات الملوك متقيدات بالطاعة للملوك وعمل ما فيه مصلحة بلادهن “

” لعلك نسيت ندوري “

” لادخل لها في الموضوع “ قال هذا وخرج على الفور



## الفصل التاسع والعشرون

## اصطلاح الاخوين

كانت عيون اهل الشرق قاطبة منجبة الآن نحو قيصرية التي كان الملك رنشرد زاحفاً عليها من الساحل وقد بلغ غابة قريبة منها تطل عليها وصلاح الدين قادماً من جهة مقابلة وقد وصل تحت اسوارها . وبلغ الملك العادل قدوم اخيه فاستعدّ للملاقاة ولحق الافرنج جيش السلطان صلاح الدين منتشراً في السهل فنجأوا الى الغابة يرفقون مجرى الحوادث بعين القلق والاهتمام لكن بعد المسافة حال دون تمكنهم من مشاهدة كل شيء بالتدقيق فلم يستطيعوا ان يروا السلطان زاحفاً نحو بوابة المدينة وعيناهُ نقدحان شرر الغيظ والحنق ولا رأوا الملك العادل خارجاً لاستقباله بخضوع اوجبه جلال السن والقدر على ان صلاح الدين لم يحفل بهذه الطاعة من عاصي القاهرة بل عدّها رهبة وخوقاً وقال لحرسه : -

” اقبضوا على العاصي ولا تبظثوا ان تزووا سيوفكم بدمه ”

قرّد الحرس في اطاعة امره وخفّ رجال الملك العادل اليه واحدقوا به من كل جانب واستعدوا لافتدائه بارواحهم . وحينئذ استلّ السلطان حسامه واهاب بعساكره ان يتبعوه وحمل على رجال الملك العادل الذين مع قلة عددهم اقدموا على صدّ هجمات السلطان وهجموا مدفوعين بقوة حب الذود عن حياة اعظم رجل بكرمونه على الارض وحملوا على عساكر السلطان المدفوعين بارادة صلاح الدين لا بارادتهم فوقعوا فيهم التشويش والاضطراب واضطروا السلطان نفسه الى التقهقر

ولما رأى الافرنج ذلك تحقّقوا عصيان الملك العادل على اخيه وهبوا لانتهاز هذه الفرصة السانحة وانقضوا على ساقه جيش صلاح الدين فزّقوها تمزيقاً واسروا منها عدداً كبيراً وعلى الفور اهاب الملك رنشرد بامير تارنتو واوعز اليه ان يركب في خمسة عشر الف مقاتل ويأخذ الاسرى الى عكا وبشر الافرنج بفاثحة النظر والظفر وبلغهم ان الملك العادل يجارب معهم وان راياتهم ستخفق في المساء على ابراج قيصرية . فاطاع امير تارنتو الامر وذهب بالاسرى مقيدين الى عكا

وكان الملك العادل قد رجع الى المدينة ووقف على اسوارها فشهد اعلام الافرنج خافقة في السهول ورأى جيش اخيه مولياً الادبار . فناداه صوت الوطن والأخاء نداءً لم يستطع



ان يسدّ أذنيه عن سماعه وخرج باسرع من لمح البصر يخترق الصفوف المتقطعة الاوصال حتى بلغ حيث كان اخوه يجتهد عبثاً وباطلاً في لمّ شعث رجاله تارة بالوعيد والتهديد وطوراً بالرجاء والتوسّل وتارة بالقذوة والمثال وقال له : —

” اي صلاح الدين دعنا نخالف الآن حتى نستظهر على عدونا وبعد ذلك افعل بي ما يحسن في عينيك “

وانطلق — من غير ان ينتظر منه جواباً — يجول بين العساكر ويدعوها الى التجمع والانتظام ويحضها على الاتحاد والانضمام وبالف من بضع دقائق احيا فيهم ما امامه الخوف واعاد ما اذهبه الفشل

فتعجب صلاح الدين مما رأى وسار وراء اخيه يسأل نفسه أهذا هو الملك العادل الذي وشوا به اليّ وعظموا جرم خيانته في عيني ؟

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد صدم مئنة جيش الافرنج صدمة ازاحتها عن موقفها واضطرتها الى النكوص . اما الميسرة فكانت قد حملت على الجيش الذي يقوده صلاح الدين ورأى رتشد صلاح الدين فهجم عليه ودعاه الى التسليم ومدّ يده ليأخذ بعنان جواده فابتدره صلاح الدين بضربة من سيفه فلقّت ترسه شطرين فالتقى بهما رتشد الى الارض واخذ بعنان جواد خصمه وقال له : —

” لا فائدة من المقاومة سلم لملك انكلترة الذي اصبحت اسيره “

” لا اسلم حتى جثتي فان اخي يستردها منكم “

” اخوك معنا “ . ” ستري ! “

ثم صفر السلطان صفرة مخصوصة كان متفقاً عليها هو واخوه . وما سمعها الملك العادل حتى عدا كالطائر الى حيث كان السلطان فألقده من يد مضايقه وهجم على خصمه هجمة لم ير قط اشد منها وانتشب بين هذين البطلين عراك شديد ادرك فيه كل منهما ان خصمه عنيد وعزمه بفل الحديد

وكان الملك العادل قد وجّه الى خصمه ضربة قاضية نخلها منها برشقاته المعهودة واصابت جواده فقتلته على الفور فوثب رتشد عنه الى الارض واستأنف الطعان على رجليه ثم عاجله الملك العادل بضربة ثانية اطارت خوذته عن رأسه وعرضت ملامحه لعينيه فرأى فيها على الفور ما ذكره حبيته فارتدّ حسامه الى جنبه ولم تعد يده طيعه على الضرب به . فقال لخصمه : —



” ما اسمك ايها الامير الشجاع ؟ ان نفسي تجدثني وملاحك تشهد بصحة حديثها بانك قريب اليّ وعزيز عليّ “

” اني عدوك . عدوك الخنق الخاقد . فقد استظهرتُ على اخيك لكنك انتزعت انتصاري من يدي وغلبتني وابقيت عليّ . فلا يمكنك فعل شيءٍ ينسيني مرارة هذه الاساءة “  
” عرفتكَ الآن من انت . رتشرد المتعجرف ! واذا ساءك اخلاصي لوطني فإلي حيلة في ارضائك . علي اني لا اتفكُ أكرم بك اعظم ملوك الافرنج وأحب اخا تلك التي بذلت نفسي في سبيل انقاذها من مخالب الموت . “

ثم أبصر فرقة من جيش العرب قادمة اليه فترجل عن جواده واعطاهُ لرتشرد وقال له :-  
” انج بنفسك عاجلاً ما استطعت . اسلم لزوجنك ولشقيقتك لا تدفع نفسك الى التهلكة بلا اقل فائدة “

فاضطرَّ رتشرد علي رغم أنه ان يعمل بنصيحة الملك العادل وامتنى الجواد وفرَّ هارباً ودموع الغيظ تسيل من عينيه وثار الغضب نتقد في صدره

وفي مساء ذلك اليوم دعا الملك العادل قواد جيشه وضباطه اليه وقال لهم :-  
” هل تحلفون لي علي القرآن الشريف انكم تعملون بما اقوله لكم ؟ “ . ” نعم نخلف “  
” اذا اقتدوا بي وارضوا بكل عقاب يقضي به السلطان علينا “

ثم ذهب بهم الى حضرة السلطان وجثا امامه منكساً سيفه وقال :-  
” الان افعل بي يا صلاح الدين ما تشاء وأطفي لهب غيظك بسفك دمى . ولكن اذا كان ما فعلته اليوم يخولني حق التماس شيء منك فلتنمسي ان تفعو عن هؤلاء الرجال الشجعان لانهم قصروا في الحرص علي طاعتهم لك في سبيل دفاعهم عن حياتي . ولكنها زلة بدرت منهم واني اضمن انهم لن يعودوا الى ارتكاب مثلها في المستقبل

ففعل هذا الكلام في فؤاد السلطان فعلاً عجيباً وناجاهُ صوت الحب الاخوي في داخله فانساهُ كبرياءه وعظمة مقامه وفتح ذراعيه الي اخيه وضمه الي صدره ودموع الخنوتنهل من اجفانه . ثم خلا به علي انفراد فقص عليه الملك العادل بالتفصيل كل ما حدث في دمياط والقاهرة ووضح له ان سفر الملكة الي عكاء باسم متيلدة كان حيلة او خدعة لم يعلم بها قبل حدوثها ولما اخبره بانها بعث اليه بتفصيل ذلك في حينه مع رسولين تعجب السلطان وقال له انه لم ياتيه قط رسول منه وان انقطاعه عن مكاتبته كما ظهر له زاده ارياباً منه وتصديقاً لشكوى المشطوب عليه



ثم اطلمه الملك العادل على ما بينه وبين متيلدة من الحب المتبادل وما فاساه في سبيل  
اتقازها من مخاطر البادية وقال في ختام ذلك : —

” ولكن اذا كانت طهارة هذه الفتاة النادرة وفضائلها الرائعة الباهرة انشأت في ميلاً  
الى مجاراتها في ما تطلبه مني فلم تستطع قط ولن تستطيع ابداً أن تضعف امانتي لوطني  
واخلاصي لك . واني اعترف لك ان الحب ساد بقوة عظيمة على قلبي ولكنك رايت اليوم  
انه لم يقدر ان يثني ذراعي عن تلبية الشرف “  
فاجابه السلطان : —

” بلذ لي جداً ان اصفح واعفو ولكني لا ارى لك بعد الآن شبه ذنب تحتاج الى  
عفوي عنه بل بعكس ذلك رأيتك قد انقذت جيشي وخلصت حياتي في ساعة صدور امري  
بقتلك . وذلك دين كبير لك علي لا ارى له وفاء الا بهذه الطريقة : — اقبل مني عرش  
القدس ولتكن اميرة انكلترة شريكة لك فيه ودعها تأتيك بعكاه مهراً لها ويكفي هو لاء  
الافرنج ان يروا ملكة منهم جالسة على عرش القدس فيرجعوا من حيث اتوا ويتركونا  
نعيش بسلام

### الفصل الثلاثون

#### رجوع رتشرد

وبينا كان صلاح الدين يستعد لإرسال وفد من قبله يعرض على الافرنج صلحاً بشروط  
مبنية على ما عرضه على اخيه بلغ معسكر الافرنج نبأ مهتسراً — سابق لاوانه — فخواه ان  
رتشرد افتتح قيصرية

وكانت متيلدة وحدها في مصلاًها عند ما دخل امير تارنتو عكاه يقود أمري العرب  
وجوانب المدينة ترتج مرددة صدى هتاف النصر والظفر من جميع انحاء المعسكر . وما ابطأت  
ان رأت رئيس اساقفة صور داخلاً اليها يقول لها : —

” ابشري يا ابنتي فلقد انتصر اخوك على صلاح الدين . ولما برح امير تارنتو قيصرية  
كان جيش صلاح الدين لا يزال فاصلاً بين جيشنا وجيش الملك العادل ولكن النصر كان  
حليف رجالنا فلا بد ان يكونوا الآن قد اكملوا تمزيق شمل جيش السلطان وانضموا الى  
الملك العادل ودخلوا قيصرية ظافرين منتصرين فتعالى الى الملكة حيث ترين امير تارنتو  
وتفنين منه على تفصيل هذه القبة المجيدة “



فنهضت متيلدة على الفور وذهبت مع رئيس الاساقفة الى حيث كانت الملكة جالسة يحف بها الملوك والامراء والعظماء وامير تارنتو يقص عليهم تفصيل ما جرى ويطنب ببسالة رجالهم وحسن ابلاتهم ويطري قوة رتشرد وصولته وتدابيره الحربية وحذاقته العسكرية وينسب معظم الفضل في هذه النصره المجيده الى مخالفة الملك العادل لم وانحيازهم اليهم واذا باصوات يأس ارتفعت من جوانب المعسكر وما كادا يميلون اذانهم الى استماعها حتى راوا رتشرد داخلًا عليهم بعدته الحربية والغبار يوشك ان يججب رؤيته عن الابصار ومحياء مغشي بظلام غضب شديد . فسأله رئيس الاساقفة عن هذا الرجوع المفاير لما سمعوه من ابناء الاتصار وهل تعذر عليه الانضمام الى جيش الملك العادل فاجابه : -

” لا تذكرن هذا الاسم في مسمعي بعد الآن - فهو علة فشلنا وخيبة املنا - لاني بعد ما هزمت جيش السلطان شر هزيمة وضمنت لنفسي اسر صلاح الدين انتقض الملك العادل علينا انتقاض التيازك فانزع اخاه من يدي واضطر رتشرد وباللعار ان يركن اول مرة في حياته الى الفرار وقد اذلني بل زاد في اذلالني بان عفا عني وأسقط باحسانه الي حق قلع العينين اللتين شاهدتا عار هربي وذل انكساري“

فاجابه لوسيان : -

” وكأني بك غير واثق بما عندي - انا اخاك في الجهاد - من الكفاءة والاستعداد لأن اضحي نفسي في سبيل الذود عن شرفك ؟ الست محاطاً باصدقاء اوفياء يحلفون معي انهم لا يغمدون سيوفهم حتى يرغموا الموت على أن يطهر الارض من وجود الرجل الذي تحدته نفسه الاثيمة بالنياهي باكره رتشرد ملك انكلترة على الفرار ؟“

وكان هذا التملق أشبه بوقيد التي على نار غضب رتشرد فزادها احنداماً واضطراماً . فقبض على يد لوسيان وضغطها من شدة هياجه ضغطة المته وقال : -

” في يدك ايها الصديق الباسل استودع شرفي - شرف رتشرد انكلترة - واني لأعطين شقيقتي لقاها الملك العادل“

فنهض الملوك والامراء الذين طمحت نفوسهم الى مثيلدة ورفعوا سيوفهم وحلفوا على ان كلاً منهم سيجعل قهر الملك العادل نصب عينيه

اما مثيلدة فعند ما سمعت وشاهدت كل ما تقدم ايراده خانها الصبر والجلد وفارقها الرشاد والصواب فسقطت مغشياً عليها . فأمر اخوها ان تحمل الى غرفتها واوصى رئيس الاساقفة بان يندرها بعد إفاقتها بوجوب اطاعتها لاوامره اطاعة كاملة



## الفصل الحادي والثلاثون

## متيلدة ورثشرد

اذا فوجيء القلب برزيفةٍ اصابه منها في بادىء الامر جمودٌ يفقدُه الشعور بألمها ولكنه لا يلبث ان يعقبه ردٌ فعلٍ شديدٍ ينصب عليه انصباب السيل ولا يعود يرى له وسيلةً للتخلص منه بسوى الموت

هكذا كانت حالة متيلدة المنكودة الحظ حين افاقت من اغماؤها ومثلت لعينها ذلك المشهد المخيف الذي رأت فيه الملوك والامراء يتخالفون ويغلظون الايمان على قتل حبيبها فانها عانت من هولهِ جهد بلاء لا ينقذها منه سوى راحة القبر . لكن اليمين التي أقسموها على الفتك بالملك العادل قضت عليها باختيار البقاء في هذه الحياة حتى تسعى جهدها في دفع الاذى عنه او تخفف عليه مرارة تجرعه بالاشترك فيه

وقد توسلت الى الملكة والى رئيس الاساقفة ان يأذنا لها في الاجتماع بأخيها لكي تلمس منه ان يحل الامراء من اليمين التي حلفوها فلم يستصوبا رأيها هذا واوصوها بالصبر والتأني وانتهاز فرصة اخرى لأن اخاها باقى في معظم هياجه واضطرابه فلا يقع استشفاعها عنده موقع الرضى والقبول وقال لها رئيس الاساقفة :-

” اقبل نصي واعملي بمشورتي ولا تقدمي على شيء بالطيش والرعونة فان يضع سعي مع التأني المقرون بالحكمة والفتنة . اصبري حتى اكلم اخاك بل انتظري حتى ارى الملك العادل نفسه“

” انت يا ابي ؟“

” نعم انا . فان تصرف الملك العادل في فيصريه احزنني لكنه لم يقطع املي منه . فسأذهب حالاً الى فيصريه واجتمع به واقف منه على حقيقة ما بنويه بخصوصك“

واذ ذاك دخل حاجب من قبل رثشرد يدعو الملكة اليه فذهب رئيس الاساقفة معها ولما وقعت عين الملك عليه ابتدره بالسؤال :-

” هل حضت اختي على طاعتي ؟ هل هي مستعدة الآن ان تخضع كل الخضوع لارادتي ؟“

” لقد نهيتها نهياً مطلقاً عن ابداء شيء قبل رجوعي“



” الى اين انت ذاهب ؟ “

” الى حيث يقدر لي الله “

وفي مساء ذلك اليوم ارتدى رئيس الاساقفة ثوب كاهن بسيط وانطلق في طريق قيصرية وكانت متيلدة كثيراً ما تذهب في المساء الى شاطئ البحر مصحوبةً بنساءها لتستنشق الروائح العطرية المحمولة على اجنحة النسيم . وفي غالب الاحيان كانت تذهب الى قبر مونورانسى حيث تنفس كربها وتمزج حزنها بذكرى مؤثما الاكرام والاحترام لصاحب ذلك المقام وتسبح عبرات مخبئة تحفف بها اضطرام نار احزانها . وبعض الاوقات كانت تقف على الربوة المدفون ذلك الامير الكريم في سحها وتطلق عنان نظرها الى البحر فيسبح بها على عبايه ويخترق مده الواسع ويبلغ بها الى الدير الذي استبدلت بسلامه وراحته وامنه اضطرابات العالم ومخاوفه وتجاربه ومع ذلك لم تأسف على هذه المقايضة ولا رأت فيها شيئاً من الغبن والنجس . ففي الدير كانت ايامها اشبه بلائى سقطت من يدها من غير ان تشعر بها كما ينبغي اما هنا فادركت قيمتها تماماً . لان الحزن يرقى فينا عواطف القلب ويشجد قوى العقل لكن الفرح يقضي على هذه بالكلال وعلى تلك بالحمول والانحطاط

وبعد انطلاق رئيس اساقفة صور تجنبت متيلدة فرص الاجتماع باخيها ولم يبال هو ايضاً بان يراها بل كانت كل افكاره موجهة الى التأهب والاستعداد وانتظار الوقت المعين لمحاصرة قيصرية بذاهب الصبر . وكان من يوم الى آخر يُغير بفرقة من رجاله على اطراف معسكر السلطان ويرجع محملاً بالاسلاب والغنائم

وكان لوسيان يصحبه في هذه الغزوات ولا يفارقه دقيقةً وكانا كلاهما بقلب واحد ورأى واحداً يعجلان في الاستعداد لمدّ مطار الحصار على قيصرية

وفي مساء اليوم المعين لهذه المعركة كانت الملكة ومتيلدة جالستين ساكتتين تمثلان احوال الغد بدموع الحزن والاكتئاب فدخل الملك عليهما وراهما تبيكان فقال لهما موبخاً : —  
” ماذا يبكيكما ونحن نتوقع بفروغ صبر طلوع شمس الغد حين اقتحم غمار الوغى ودماء خصمي اغسل العار الذي لظخ به اسمي “

فانطرحت متيلدة عند قدميه وقالت : —

” آه يا اخي أليس بين سجاياك الحسان موضع لذكر الفضل والاعتراف بالاحسان “  
” لا تنسي ان الأمل انقطع من الملك العادل منذ سفك دماء رجالنا امام قيصرية “  
” واني من ذلك اليوم مؤرّخة شكري للملك العادل إبقاءه على حياة اخي ! “



واذ ذلك دخل لوسيان ومعه عدة امراء والتمس من رتشرد ان يأذن للابطال الواقفين خارجاً في تأدية واجب الاحترام لآسد انكلترة

فرجعت متيلدة الى مخدعها مثقلة بالهموم والاحزان وقضت ليلتها بهواجس حكم فيها السهاد ومنع عنها الرفاد فلم تنم الا دقائق متقطعة أفزعته فيها الروى وازعجتها الاحلام . فلامت نفسها أشد اللوم على تقصيرها في اطلاع اخيها على العهد الذي بينها وبين الملك العادل . وما تصرمت انقاس الليل وبدت تباير الصباح الا كانت قد عزمت عزماً باتاً على الاجتماع بأخيها قبل زحفه على فيصرية وابلاغه حقيقة الامر فدخلت خيمته وهو يستعد للانطلاق وانطرحت عند قدميه وكان عنده ملك القدس ودوق بافاريا ودوق برجندي فاجفوا من فعلها هذا وخفوا اليها يرومان إنهاضها فتشبثت بركبتي اخيها وقالت : —

”حنانك يا اخي اسمعني . رحماك اصغ الي . فقد عرض لي حلم مخيف أيقظني من نومي ثلث مرات . ظهر لي الملك العادل موجحاً ابي على نقاعدي عن السعي في إنقاذ من مخالب الموت حين كان ذلك في امكاني . وقد وعدت قاتله بأن يكون خطيباً لي وانا — انا قد نذرت اني الى الابد اكره ذلك الذي يد يدُه لاغتيال الملك العادل الشريف !“

”متيلدة ! ما هذا الذي تجسرين على ذكره الآن في مسمعي ؟“

”لم يعد لي طاقة على السكوت . سأبوح بسرّي خلاص حياة من أحيه . فقد بذل الملك العادل حياته في البادية لينقذ حياتي . واشرفنا كلانا على الموت . وفي تلك الدقيقة الرهيبة كان الله وحده مرشدي ومعيني . ولما وعدني الملك العادل بان ينضم اليّ وعده انا بان اكون له واشهدت الله عليّ بان لا اكون زوجة لغيره . والان قل لي يا اخي هل يسمح لك عدلك ان تعد بأني اكون خطيبة لقاتل خطيبي !“

فلم يُحر الملك جواباً بل انطرح على كرسي ووارى وجهه بيديه . فدنا لوسيان من متيلدة وقال لها : —

”لقد جرحت قلبي جرحاً لا التئام له . ولكن اذا كان حزني لا يهتك أفلا تبالين بالحزن الذي ادخلته على قلب اخيك الشريف بقسم باطل يملك البابا منه بسهولة“

فصاح رتشرد ناهضاً من مجلسه : —

”أصبت أصبت . ان ضعفها تغلب فأقسمت هذا القسم الباطل ووعدت الملك العادل وعداً سداه الجهل ولحمته الطيش وانا المسؤول عن السعي في حلها منه اذا كان عملها هذا لم يحط من قدرها في عينيك يا صديقي لوسيان وكنتم مستعداً . . . . .“



وحال دون نتمه حديثه دخول دوق نورفوك قائد حرسه يقول : -  
 ” خرج حرس طليعة الجيش حسب امر جلالتك بقيادة آدم دي تورين وما ابعدوا قليلاً  
 حتى ابصروا جيشاً من العرب مقبلاً عليهم ثم تقدم منه رسولٌ وعلان قدوم وفدٍ عظيم من  
 لدن صلاح الدين لعرض شروط الصلح وهذا الوفد مرسل على الخصوص الى جلالتك “  
 فنظر رتشرد الى ملك القدس ودوق برجندي ودوق بافاريا نظرة استفهام عن غرض  
 صلاح الدين في إرسال هذا الوفد فصاح لوسيان بغيظٍ هاجه عروض هذا المانع الجديد في  
 سبيل آماله وامانيه وقال : -  
 ” مهما يكن من فائدة الشروط التي يعرضها فاني ارفضها اذا كانت مشفوعة بطلب الاميرة  
 متيلدة لاخيه “

فاجابه دوق برجندي مقطباً : -

” ولكن لا يخفى على جلالتك ان ارادة ملك القدس ليست شريعة لنا . وان اعتبار  
 مصالح الدين أولى بالمراعاة من اهوائك واممالك . وبكلمة اقول ان حق النظر في مقترحات  
 صلاح الدين والجواب عليها انما هو لمجلس الامراء المتخالفين لا لسواه “  
 وفيما كان ملك القدس يستعد للجواب على هذا الاعتراض بأخشن منه واغلظ توسط دوق  
 بافاريا وقال : -

” من الخطأ الفاضح ان ننساق الى الانقسام والانشقاق قبل الوقوف على ما يروم صلاح  
 الدين ان يعرضه علينا ! فلننتظر ريثا نقف على هذه الشروط وبعد ذلك نحكم فيها بما يوافق  
 مصالحنا “

فأرضى كلامه الفريقين وامر رتشرد دوق نورفوك ان يدعو نخبة الامراء والضباط  
 للاستعداد لاستقبال وفد صلاح الدين واخذ اخذه بذراعها واخرجها من خيمته

## الفصل الثاني والثلاثون

### شروط صلاح الدين

وكانت متيلدة في شوقٍ لا مزيد عليه الى الوقوف على الشروط التي يعرضها صلاح الدين  
 وكان الخوف والرجاء يتنازعانها فتارة تخشى ان يكون السلطان قد غير افكار اخيه وثناه  
 عن الوفاء بوعد له وطوراً ترجو ان يكون من جملة هذه الشروط تصريحه باستعداد اخيه  
 للوفاء بوعد له لاميرة انكلترة



وفيا هي غارقة في بحار التأمّلات دخلت عليها هرميون كونتس ليسستر وقالت لها انها رأت بين رجال الوفد واحداً من اشد اتباع الملك العادل إخلاصاً له ولم تستطع ان تكلمه لأن الملك رتسرد منع كل اتصال بين الافرنج ورجال الوفد قبل نظر مجلس الامراء في الشروط ثم استأنفت كلامها قائلة :-

” ولكن على رغم التشديد في كتمان شروط السلطان عرف رجالنا بعضاً منها وقيل ان رئيس الوفد يطلب سموك خطيباً لآخي السلطان الملك العادل وقد اجتمع بالمجلس منذ ساعتين لكن الحقيقة لم تعلن بعد“

ثم خرجت هرميون ودخلت على اثرها برنغاريا ومالت على مثيلدة ثقبها ونقول لها :-

” احبيك باسم ملكة القدس !“

” اني اكره هذا اللقب الا من فك . فما من قوة في الارض تستطيع ان تكرهني على مشاركة لوسيان في هذا العرش !“

” ولا مع الملك العادل الذي يمتلك هذا العرش يحق الغلبة والفتح ؟“

فغشيت صفرة الخوف محياها لأنها لم تصدق ان الزمان يسعدها بتحقيق امنية كهذه .

فظوّقتها الملكة بذراعيها وقالت لها :-

” لا يستحيل شيء على المحبة لانها كالايان تمنح صاحبها قوة عمل العجائب و صنع المعجزات . مالك صاكنة ؟ ا يستحيل على العناية الالهية ان تغير قلوب الملوك وتمهد سبيل اتحادك بمن يجبه نفسك ؟“

” هل وفي الملك العادل بوعده لي ؟“

” لا أعلم بعد شيئاً عن هذا الامر . ولكن خلي عنك الآن اهتماماً كهذا وخذي اقرأي

الشروط التي يعرضها صلاح الدين على ملوكنا“

ثم اعطتها رقماً مكتوباً عليه ما يأتي :-

” باسم الله الواحد الازلي نحن السلطان الاعظم حامي كلمة الحق وبيضة الايمان سلطان

المسلمين وخدام الحرمين الشريفين مكة والمدينة صلاح الدين ابن ايوب نعلن ونصرح لامراء

الافرنج المتحالفين اننا نعمنا على اخينا الامير النبيل الملك العادل بمملكة القدس وكل يهودا

وعدة مدن كبيرة من بلاد الشام . ولما كانت هذه الاملاك كلها على عظمتها وسمو شأنها

لا ترضيه ان لم تشاركه فيها اميرة انكلترا تقترح حصول هذه المشاركة رهناً او عربوناً للسلام

المستديم بين الشرق والغرب . وقد رضينا ان تستوي ملكة من الافرنج على عرش القدس



فتحمني بوجودها ونفوذها اخوتها في المعتقد وتوصون مصالحهم وتوطد دعائم الصداقة والمحبة بين المسلمين والنصارى . وقد سمحنا لها بكنيسة القيامة لتقيم فيها شعائر دينها وأذناً لها ان تعيد بناء الاديرة الخربة وتمنح بني شعبها حرية زيارة بيت المقدس

” ونطلب مقابل ذلك ان يكون مهر الاميرة متيلدة عكاء التي افتتحها الافرنج مناً . هذه شروطنا نقترحها بسلامة نية وحسن طوية فاذا قيمت قبولاً كانت اساساً لصلح وسلام دائمين وان عاد الينا الوفد بالرفض والاباء لقيناكم في ساحة الوغي والله نصير الحق . فماذا تريدون أسلماً ام حرباً ؟ وما نحن ننتظر جوابكم وفي يدنا الواحدة السلام اذا وافقتمونا عليه وفي الأخرى الحسام اذا احوجتمونا اليه “

وبعد ما قرأتها تكررآ سألت الملكة : —

” هل علمت ماذا كان جواب المجلس على هذه الشروط ؟

” لقد انشأت بينهم اضطراباً وهياجاً لا مزيد عليهما . ومعظم الامراء استحسنوها لكن لوسيان رفضها رفضاً مطلقاً وايده رتشرد في ذلك فعلا الضجيج وساد الشغب ومست الحاجة الى حضور رئيس اساقفة صور . وفي اثناء الاجتماع دنا لوسيان من رتشرد وكلمه على انفراد ثم استرعى السمع وقال : —

” يطلب مني الآن ايها الامراء ان اتخلى للملك العادل عن مملكتي وعن الاميرة التي وعد بها اخوها ملك انكلتره واني مستعد لهذا التخلي اذا كانت مصلحة الدين تقتضيه ولذلك اطلب عقد مجلس اساقفة برئاسة نائب البابا للنظر في شروط صلاح الدين فاذا حكم هذا المجلس بوجوب ترك القدس للملك العادل واعطائه اميرة انكلتره فوقها لم يبق لي سبيل للاعتراض “

” وقد تكلف لوسيان الاعتدال جهده حتى حمل الاكثرين على قبول اقتراحه هذا وعزموا ان يعرضوا مطالب السلطان على مجلس الاساقفة ويسألوا السلطان صلاح الدين قبول هدنة ريثما يجتمع المجلس وينظر في الشروط “

فسألتها متيلدة : —

” هل تظنين ان ارسال هذا الوفد قد نشأ عن وجود رئيس الاساقفة في قيصرية ؟ “

” لم يذكروا شيئاً عنه ويظهر ان الوفد برح قيصرية قبل وصوله اليها “

ثم دخل رتشرد ووقف أمام اخيه وقال لها : —

” اعلمي يا متيلدة اني لم أغادر عرشي في اوروبا وأجيء الى هنا الا لكي استرجع القبر “



المقدس من ايدي العرب . ولما وصلت الى جزيرة قبرس عرفت لوسيان ورثيت لنكد طالعه وحلفت له أن ارد عرشه اليه وهذه اليمين زادها رسوخاً وتوطيداً ما جد بيني وبينه من الصداقة المحكمة العرى والاتحاد علي هذا الجهاد . فماذا يطلبون مني اليوم ؟ ان احنت بقسمي واهجر صدقي في ساعة ضيقه وأرضى بأن يسلب حقه ويعطى لغيره غنيمة باردة وفوق هذا كله ان نعيد لم عداً التي افتتناها بدمائنا وعلاوة على ذلك ان تصير أختي — أميرة من دم البلائناجنتيين الملوكي — زوجةً لأمير عربي فهل يمكنني ان انظر الى هذه الشروط من غير ان أرى ما فيها من الغضب بكرامتي وشرفي ! أليس ان يذاع في اطراف اوربا ان رتشرد منتهى آمال الافرنج ومبعث دعر الشرق دان صاغراً لاول شرط اشترطه عليه العرب !

” علي ان لوسيان رضي امراً ما كنت قط لأرضاه لولاه وهو أن تُعرض هذه الشروط علي مجمع الاساقفة ومرادي بهذا ان تظهر فضائل صدقي ظهور الشمس في رائعة النهار ويعلم الجميع ما هو عليه من عزة النفس وكرمها وسعة الصدر ووفرة الحلم وإنكار الذات . أرايت كيف استعد لانكار حقوقه وتضييحتها في سبيل مصالح الدين اذا وافق الاساقفة علي ذلك ؟ ألا يُعلمك هذا ان رفض نذورك في سبيل الصداقة والشرف افضل جداً من رفضها لداعي حب انشاء الطيش ؟ ولا تنسي اني الى الآن لم استخدم مالي عليك من السلطة في حملك علي إطاعة امري “

وانقطع رتشرد عن الكلام منتظراً من أخيه جواباً لكنها لاذت بأطراف الصمت ولم تر من الحكمة ان تصرح بانكارها في مثل هذا الوقت ولاحظت الملكة ان رتشرد يتألم من هذا السكوت فاخترت حجاباً وسألته هل يعقد الاساقفة مجعهم قبل رجوع رئيس اساقفة صور فاجابها بشيء من التهمك : —

” انكما اعلم بالوقت الذي تقتضيه رسالته ولكننا عزمنا أن ننتظره ثمانية ايام فقط حتي اذا لم يجيء في غضوننا انعقد المجمع في غيابه “

ثم التفت الى اخيه وقال : —

لقد ارتكبت خطأ عظيماً بوعدك للملك العادل . علي أن محبتي لك تقضي بأن اصغ عنك هذه المرة علي رجاء انك لا تعودين الي ارتكاب مثله مرة اخرى فلا يبق محمل للصغ والمغفرة . ولي رجاء انك تحضرين حفلة استقبال الملكة في هذه الليلة فوعدته بذلك فخرج وخرجت الملكة علي اثره .



وكان بين المجمعين عند الملكة أناسٌ أعجبوا بالملك العادل وأميرة انكلترا فأظهروا في حديثهم علامات الرضى والاستحسان لحصول هذا الاقتران وآخرون حملهم حبُّ الاستطلاع على محاولة معرفة افكار متيلدة من هذا القبيل . والنساء نظرت اليها بعين الغيرة والحسد ورثشرد بشيءٍ من الاستنكار والاستخفاف وبرنغاريا بعين الخنو والشفقة والامراء الذين عللوا نفوسهم بإمكان الحصول عليها بعين الغيظ والخنق . اما الاساقفة فسكتوا سكوت الوقار وأبوا ان يصرحوا برأيهم وأبدوا على وجوههم علامات التحفظ والكتمان التي جعلوها على شفاههم

اما لوسيان فاستند الى ذراع الكرمي الذي جلست عليه متيلدة ولاحت عليه لوائح الكآبة والحزن لكنهُ في الحقيقة كان مسروراً بحصول النتيجة التي ارادها من التظاهر بالكآبة وتكلف العفة والاعندال اذ رأى ان الجميع مؤاسون له وعاطفون عليه  
 وحقاً انه لم يكن قطُّ من رجل اقل من لوسيان اتصافاً بعظمة النفس الفطرية كما انه لم يكن انسان ادري منه بفائدة تكلف هذه العظمة او استخدام صورتها في بعض الاوقات ولم تكن هذه اول مرة تكلف فيها إنكار النفس تذرُّعاً لنيل الكثير مما ادعى انه ضمأه كلة  
 فقد رأى في مجلس الامراء ان اكثرهم ضدهُ وانه اذا اصرَّ على رفض شروط صلاح الدين يزيد عدد مضاديه ويصبح رثشرد وحدهُ غير قادر على مخالفتهم كلهم . فعمد الى الحيلة وهي امضى سلاح يتقلدهُ عند مسيس الحاجة واوهم الامراء انه مضجٍ مصلحهُ الخصوصية في سبيل المصلحة العامة وقد علم يقيناً ان اقتراح عقد اجتماع مجمع ديني يقتضي تأخير المسألة وهذا التأخير من مصلحهُ لانه يمكنهُ من كيد المكاييد ودس الدسائس

على ان للقلب النقي الطاهر خاصة التمييز بين الصدق وصورته فان متيلدة ظلت على رغم تعلق لوسيان لها تشعر بعامل سري ينفرها منه ويبعد قلبها عنه حتى انه لما كان جالساً بقربها اراد استعطافها بقوله : —

” لو ان الملك العادل طلب مني عرشي فقط وعلمت ان محبتي لك تقع موقع القبول لديك لمنحهُ سؤلُهُ فرحاً مسروراً وتنازلت له حتى عن حقي فيك“  
 فاجابتهُ : — ” كيف يطلب منك عرشاً يملكهُ هو وقلباً باقياً في قبضة يدي ؟“



## الفصل الثالث والثلاثون

## زيارة الملك العادل لمتيلدة

وفيما كانت متيلدة جالسة في مصلاًها تراجع في ذهنها حوادث حفلة قبول الملكة دخات كوثس ليسستر وقالت لها : —

” في الباب عربيٌ بلتمس المتول لديك لأنه حامل اليك رسائل من الملك العادل “  
 ” ادخله حالاً لأنه قد امسى المساء وبعد بضع دقائق تقفل ابواب عكاء ويحكم بالقتل على كل عربي يوجد داخلها بعد الساعة المعينة “

فخرجت هريمون وعادت على الفور بجندي عربي متنكر تنكراً يدعو الى الاشتباه والارتياب ثم اومات متيلدة الى هريمون فخرجت واذ ذاك اماط الغريب لثامه عن محياه وقال : —

” هوذا انا يا حبيبتى ! “

” آفي حلم انا ؟ الملك العادل ؟ هل هذا ممكن ؟ “

ثم اخذتها دهشة كادت تذهب بصوابها لانها لم تتوقع حتى في الحلم أن تراه في ساعة كهذه . وبعد ما تغلبت على دهشتها وامتلكت قوة النطق سألته : —

” قل لي بالعجل ماذا جاء بك الى هنا ؟ هل رأيت رئيس اساقفة صور ؟ هل نجحت رسالته واستجاب الله صلاتي ؟ “

” لم افهم مرادك ولا رأيت رئيس الاساقفة فهو ليس في قبصريّة . والحبّ وحده قادني اليك . فلا يعلم احدٌ غيرك بوجودي لان اخي ما كان قطّ ليسمع مجيئي الى هنا . لكنه لم يعد في إمكاني ان اصبر على فراقك فعزمت ان اراك على رغم المخاطر التي نتهدها في نجحت متنكراً بزّي جندي بسيط وصحبت الوغد على غير علم حتى من رئيسه وفي ظنّ اخي اني الآن في عسقلان وبافا أتعهد حصونهما “

” هل ممعت بجواب الامراء لوفد السلطان ؟ “

” عرفت ان لوصيان الذي يعال نفسه بالحصول عليك ارتأى عرض الشروط على مجمع ديني وان رتشرد مؤيد له في ذلك وربما تمكّن من حمل الاساقفة على الحكم بما يوافق غرض لوصيان فهل تسلمين بذلك ؟ “



فاخذت يدهُ بيدها وما كادت تفوهُ بما يفيد تجديد عهدها لهُ وتسمع منهُ تكرير وعده لها حتى دخلت هرميون بسرعة لا مزيد عليها وقالت : -

” لقد أغلقت ابواب المدينة الآن وبقول ملك القدس انهُ بينما كان يجول مفتشاً حول الاسوار التي يشرف عليها مصلاً لكِ سمع صوت غريب عندكِ وقال لهُ الحراس المقيمون خارجاً ان جندياً عربياً دخل الى هنا ولم يخرج بعد . وقد جاء لوسيان لينظر في الامر وهو يطلب الدخول ليرى هذا العربي الذي تجاسر على مخالفة القوانين والبقاء في عكاء بعد الوقت المعين “

فقالت متيلدة للملك العادل : -

” اخرج مع هرميون واذا لقيك لوسيان فقل لهُ انك تجهل القانون الذي يمنع وجود العرب في المدينة ليلاً وأسألهُ العفو باسمي واحذر كل الحذر فلا تدعهُ يعرفك من انت . واذا حمي غضبهُ عليكِ وعاظك بوعيد وتهديد فنجمل ذلك كلهُ لاجلي ولذ باطراف الصمت والسكوت وساجمل سكوتك مقياس محبتك لي “

فوعدها ذلك وخرج مع هرميون . وعند الباب الخارجي لقيمة لوسيان ومعهُ شرذمة من الجند وصاح بهُ : -

” كيف تجاسرت على البقاء في عكاء - في غرفة اميرة انكلترة - الى هذه الساعة ؟

الا تعلم ان عقوبة جرم كهذا الموت ؟ “

” اني جاهل للقوانين وقد جئت من قبل الملك العادل برسائل الى الاميرة متيلدة “

” ولاجل الملك العادل فقط ساوق بك هذه العقوبة وأريه شدة كرهه لهُ ! “

” لا أشير عليكِ بذلك مخافة ان شجاعتهُ التي لا تعرف الخوف تجيُ بهُ الى هنا فيربك

وانت بين اصدقائك واعوانك كيف يعامل الذين يغيطونهُ بمثل هذا الكلام القبيح والادعاء الفارغ “

” وهل زعمت ايها العبد الزنيم اني أصبر على وقاحة وغد نظيرك ؟ اقبضوا عليه ايها

الحراس وخذوه مكبلاً بالقيود وزجوهُ في غيابة السجن حتى يجيُ سيدهُ الذي يهددنا بهُ ! “

” اذا كنت مرتاحاً الى امتشاق الحسام ولا يهولك شرب كأس الحمام فاني مستعدٌ

لمنازلتك تعال ان الظلام لن يحجبك عني ولا يعوق حسامي عن ان يجد منفذاً الى فؤادك ! “

” وهل تظن ان شرقي الملوكي يسمح لي بمنازلة رجل دنيء نظيرك ؟ خذوه ! اذهبوا بهُ ! “

فدنا الملك العادل من لوسيان وكلمهُ سرّاً : -



” اني انا الملك العادل وقد اطعنك على ذلك حرصاً على كرامة التي تحالفنا على احترامها والامانة لها . وما اظنك نبخل بكتان سرّ استودعه شرفك وسأرى من احفظك به مبلغ استحقاقك لرتبة الامارة واحترام خصمك الذي لا بكرهك اقل من كرهك له ! “  
ان ثقنك بي جرّدني من سلاحي واحترام اميرة انكلترة ضمن لك سلامتك ولكن لا يحطرن بيالك انك تنجو من عقابي فيما بعد  
” لا أطيل شقة انتظارك . لا فني غداً عند المغيب في غيضة الجيز قرب الشاطئ  
مقابل بوابة الناصرة “

فالتفت لوسيان الى الحراس وقال لهم ان هذا الجندي اوضح الاسباب الكافية التي اضطرته الى مخالفة القوانين وامرهم ان يخرجوا به خارج بوابة المدينة ويطلقوا سبيله  
وكانت هريون برأى ومسمع من كل ما جرى فذهبت واخبرت متيلدة بذلك فلم يخف عليها السرّ الذي استودعه الملك العادل لوسيان ولا جله سمح له بالذهاب وتوقعت حدوث نزال بينهما أوجست فيه خوفاً شديداً على حياة حبيبها وقضت ليلتها تثقّب على سريرها مفكرة في طريقة تتخذها لدفع هذا الخطر عنه

وعند طلوع الفجر ارسلت الى اخيها التمس منه ان يأذن لها في ان تجعل ذلك اليوم عيداً تحفل به بالهدنة التي أعلنت بين جيوش العرب والافرنج وان يشرف الاحتفال بحضوره في مقدمة ملوك الافرنج وامرائهم وعظماهم

فأجابها الى ذلك وأوصى بأن يكون الاحتفال مزداناً بجميع مظاهر الأبهة ومجالي العظمة ووعدها بأنه سيكون أكبر معين لها على اكرام المدعوين

وفي الساعة المعينة اخذ المدعوون يدخلون السرادقات النفيسة التي امر رتشرّد بضرها وفق مشتهى اخيه على شاطئ البحر . وقبل نهوضهم عن المائدة الفاخرة التي أعدت لهم وقفت متيلدة وقالت والحجل مورّد وجنتيها :-

” باذن اخي الملك التمس من جميع الامراء الذين على هذه المائدة ان يمنحوني طلبه “  
فأجابوها بصوت واحد انهم مستعدون لاطاعة امرها بلا شرط ولا قيد . فقالت لهم  
” التمس من جلالة الملك اخي ومن جميع الامراء البواسل الذين وعدوا باجابة ماتمسي ان جميع اسلحة القتال على اختلاف انواعها توضع جانباً مدة الهدنة المعقودة بيننا وبين صلاح الدين وان جميع الالعب الحربية والتسالي العسكرية تجري من غير استعمال اسلحة قاطعة وانه لا يؤذن لواحد منكم بأية علة كانت ان يتعدى حدود الهدنة بمعناها الحقيقي ويدعو غيره



— او يقبل من غيره دعوة — الى نزال مميت سواء كان ذلك بين الافرنج وبعضهم مع بعضهم  
او بين الافرنج والعرب

فنكس الامراء سيوفهم وحكموا بالجن والحيانة على كل من تحدته نفسه بتعدي هذا  
الامر من غير اذن الاميرة . وكان لوسيان آخر من دنا منها وقال لها سرًا : —  
” كم يؤلمني ان اطيعك اليوم ! “

فشعرت متيلدة بصعوبة هذا الامر عليه وقالت له : —  
” ثق اني شاكرة لك “

### الفصل الرابع والثلاثون

#### قدوم صلاح الدين الى عكا

وعندما توارت شمس ذلك اليوم بالحجاب كان الملك العادل في غيضة الجميز ينتظر مجيء  
لوسيان فجاءه ممتطياً جواده ولكنه اعزل من غير سلاح لا يحمل شيئاً من عدة الحرب  
سوى ترس ورمح من غير سنان فدهش الملك العادل من مجيئه على هذا الاسلوب وسأله  
عن السبب فقال ان متيلدة فاجأتة على حين غفلة ونالت منه وعداً بالكف عن القتال مدة  
الهدنة . لم يقل له ان الامراء كلهم وعدوها هذا الوعد ايضاً بل أوهمه انها فعلت ذلك لشدة  
حرصها على سلامته . فقال له الملك العادل : —

” اعلم يا لوسيان اني اكرهك لكني لن ارهب جانبك . فارجع الى اميرة انكلترة وابذل  
جهدك في تملقها وترضيها واني اعلم منك بها وبعدم اكرامها لك “

ثم لكر جواده فعدا به يسابق وميض البرق . ولما بلغ قيصرية اخبره اخوه برجوع  
الوفد وطلب الافرنج هدنة تمكنهم من عرض الشروط على جمع الاساقفة وان اكثر الامراء  
مالوا الى قبولها وزاد على ذلك قوله : —

” ان الملك رتشرديروم ان يقيم العاباً وتسالي اياماً متوالية احتفالاً بهذه الهدنة ويدعونا  
الى حضورها . فسأذهب انا لجرد المشاهدة واما انت فلك ان تشترك فيها وتظهر ما امنزت  
به من الفروسية والقوة والمهارة والبراعة في جميع الالعب الحربية “

وبرح السلطان قيصرية شاخصاً الى عكا يصحبه اخوه الملك العادل ويتقدمه خمسون  
جندياً من المشاة ويسير في حراسته مئة فارس من نخبة فرسانه خمسون قدامه وخمسون ورائه



ومعه جمال بعضها محملٌ مضاربه وامتعته وانقاله وبعضها هداياه الى اميرة انكلترة التي ينتظر ان تكون ملكة اورشليم

وبعد مسيرة ثلاثة ايام اقبلوا على عكا وبلغوا سفح ربوة تظللها الاشجار وينحدر منها مجرى ماء اعذب من الشهد واصفى من البلور. فأمر السلطان بان تضرب له الخيام هناك للاستراحة ثم اوفد رسولا الى امراء الافرنج يخبرهم بقدمه للاشتراك في اعيادهم وبان اخاه مستعد للدخول معهم في الالعب العسكرية والمكاثفات السلمية

فسر الامراء بسماح خبر قدمه ما عدا لوسيان فانه اضطرب واوجس خوفاً من فوز الملك العادل عليه في ميدان الصراع والكفاح وانتزاعه منه شرف الغلبة الذي كان يعمل نفسه به الى هذه الساعة لكنه كظم غيظه وتجلد وقام رتشرد الاعجاب برفعة شأن السلطان وبلوغه من الثقة بهم مبلغاً حمله على زيارتهم بلا شرط ولا تحذر ناسياً كل ما بينه وبينهم من الجفاء والعداء. هذه الزيارة على هذا الاسلوب شافت رتشرد ووقعت أحسن وقع لديه وبعثته في الحال على ان يقابل الثقة بثملها ويزور السلطان واخاه بنفسه

فسار اليه وحده لا بصحبه احد من اعوانه ولا من حراسه وخف السلطان الى استقباله محبباً ايضاً يحسن ثقته به وصاحبه مرحباً به من كل قلبه وقال له : —  
” ايها الملك العظيم. لما التقينا بالامس في ساحة القتال ادركت خطر معاداتك واليوم أدرك ببلء السرور قيمة صداقتك “

وقال له الملك العادل وقد آنس فيه شبيهاً واضحاً لموضوع حبه واعزازه : —

” الا لنعل نقوسنا بامكان الحصول على صداقتك مشفوعة بمخالفة أخ ؟ “

ولما وقعت عين رتشرد على الملك العادل نشبت ذكرى انهزامه من امامه نشوب السهم في قلبه فجرحت كبرياءه وقال : —

” ان رتشرد لم يعرف قط للهرب معنى قبلما لقيك ايها الباسل امام قيصرية . أفتريد

منه الآن ان يعطيك اخته جزاء ما اوقعته به من ذل الهرب وعار الانهزام ؟ “

” ولكن انكسارك كان بالحقيقة اشرف من الانتصار لانك أكرهت عليه بقوة كثيرة العدد بعد ما تركت في صفوننا آثار بطشك وبسالتك “

فسر رتشرد بما رآه على محياً الملك العادل في اثناء كلامه من علامات البساطة والإخلاص وقال للسلطان انه كان يود من حميم فواده ان يقبل شروط المخالفة التي عرضها عليهم ويرى شقيقته عربون سلام دائم بينه وبينهم لولا انه سبق ووعد لوسيان بها ولذلك



سيأسف أشدّ الأسف اذا حكم جمع الاساقفة بقبول هذه الشروط وقضى عليه باخلاف وعده  
للوسيان . فقال له الملك العادل : —

” ان الاميرة متيلدة وعدتني بان تكون لي يوم اسعدني الحظ بان انقذت حياتها من  
المخاطر التي تهددتها في البادية “

” سمعتُ بهذا الوعد الذي اقدمت عليه أخي افتخاماً لكنّ رئيس كنيستنا يستطيع ان  
يحملها من وعد كهذا “

اما انا فسأبقى متكلاً على وعدها هذا ببلء الثقة حتى يحملها الموت منه . سأبقى متكلاً  
عليه كما اتكل على شرفي او شرفك ! “

وهمّ رتشرد بان يجيبه على كلامه فتوسط السلطان وقال لها : —

” لنترك هذا الموضوع جانباً وننتظر حكم مجلس الاساقفة فيه فاما ان نعود الى امتشاق  
الحسام او يسود بيننا الصلح والسلام . اما الآن فلنبرهن للعالم اننا ندرك قيمة الثاني كما نعرف  
واجبات الاول “

فوقع كلامه أحسن وقع عند رتشرد والملك العادل فتصافحا وتصالحا . وكانت ساعة الشروع  
في الالعب قد دنت فطلب رتشرد من السلطان ان يشرف افتتاح الاحتفال بنفسه وقال  
للكل العادل : —

” وانت ايها الامير الباسل لا تجزل علينا بشرف دخولك معنا غداً في هذه الالعب ولما  
كانت جائزة المنتصر ستعطي من يد أخي فلا بدّ انك تسعى جهديك للحصول عليها واننا ننتظر  
حضورك اليوم ولكن كشاهدٍ فقط “

ثم ودّعهما ورجع الى المعسكر واذا بالابواق تعلن قرب افتتاح الحفلة وابتداء الالعب

## الفصل الخامس والثلاثون

### الالعب الحربية

ولما دخل صلاح الدين واخوه معسكر الافرنج هرع رتشرد ونجبة الامراء لاسنقبالهما بما  
يليق من التجلة والتعظيم وذهبوا بهما الى رواق نخيم يشرف على ساحة الالعب وقد نصبوا  
فيه عرشاً للسلطان موشي بمطرقات من الذهب والفضة ومجلساً أنيقاً بجانبه لآخيه  
ثم فتحت ابواب الساحة واعلن صوت الطبل والبوق ابتداء الالعب وجاءت ملكة انكلترا



ومتيلدة الى رواق مقابل رواق السلطان يصحبهما لوسيان

ولما ابصرت برنغاريا الملك العادل حنت رأسها له إشارة التحية والتسليم والترحيب ووقع  
نظر متيلدة على نظره فتورّد دحياًها وزاد جمالها جمالاً فضغط الملك العادل يد اخيه وقال له :-  
” انظرها وقل لي رأيك فيها “  
” انها اجمل فتاة رأتها عيناى “

” اني مستعدّ لان اموت في سبيلك ولكني غير قادر ان اعيش بدونها “

ثم ابتداء الكفاح ودارت رحى الصراع على اختلاف انواعه وعرضت على المشاهدين  
مقدرة المتكافحين وخبرتهم ورشاقة حركاتهم وشدة تضلعهم من فنون الحرب ومعرفة ابواب  
الطعن والضرب واساليب الكر والفر وكان لوسيان اوتي قوة خارقة وبراعة فائقة ففاق الاقران  
وجلّى على جميع الذين نازلوه في ساحة الميدان . ثم جال في عرضه على ظهر جواده الأدم  
واشرع رمحه ( من غير سنان ) وطلب مبارزة من شاء غير الذين استظهر عليهم فبرز له الامير  
دي كوسي فاخذا يتجاولان ويتصادمان ويلتزمان ويفترقان حتى تكسرت بايديهما الرماح ونسبا  
من شدة هياجهما اليمين التي حلفاها للاميرة متيلدة فاستلّا سيفيهما وحملا احدهما على الآخر  
لكنّ المحكمين حالوا بينهما وذكرهما اليمين واكروهما على اغماد السيوف واستئناف الكفاح  
بقطع الرماح المتكسرة وظلاً على هذه الحالة من الكر والفر والنصر واقف بينهما غير مائل  
باقبل رجحان الى احد منهما حتى لاحت فرصة لدى كوسي فقبض على خصمه وصرعه الى  
الارض والتي بنفسه فوقه وظنّ المشاهدون كلهم ان النصر تمّ له على لوسيان واذا بهذا النسل  
من تحت دي كوسي برشاقة وخفة لا مزيد عليهما واستعاد موقفه وقبض على دي كوسي  
بكلتا يديه وجندله ولم يتنج عنه حتى اعترف له بغلبته عليه . فهتف المشاهدون :- ” نعماً  
لوسيان ! ليحيى ملك القدس “

فساء السلطان واخاه ان سمعا لوسيان يُلقب بلقب لم يبق له اقل حق به . وعاظ الملك  
العادل ان رأى خصمه حراً به وهو يترنح براح الظفر وذهب الى حيث كانت متيلدة وقبل يدها  
فطوقت عنقه بسلسلة ذهبية ثمينة

ثم تلا هذه الالعب مرقص أفيم على شاطئ البحر ودعى اليه السلطان واخوه لكنّ  
الأول اعتذر عن قبول الدعوة بما لديه من الشواغل وعدم اكترائه لمشاهدة امور كهذه فرجع  
الى مضاربته وترك اخاه ينوب عنه في ذلك

وسار رتشرد بالملك العادل الى الملكة التي ابدت ما لا مزيد عليه من التحفظ في حفرة



زوجها خوفاً من استيائه واقنصرت على ذرف دموع اعربت للملك العادل عن ذكرها الجميله  
وعدم نسيانها لمعروفه

ثم التفت ليحيي متيلدة التي كانت محنجةً بعض الاحتجاب وراء كرسي الملكة وكان  
يقربها لوسيان جالساً يعجب بنفسه ويسخر بمناظره ويتباهى بكونه حائلاً دون ما يروم تقديمه  
الى متيلدة من واجب التخميه والتعظيم . فنظر اليها الملك العادل بعين ملؤها التوبيخ فارجمت  
يدها التي همت بمدّها اليه واغرقت عينها الزرقاوان بالدموع

واذ ذاك ضربت الموسيقى معلنة قرب ابتداء الرقص وكان شرف افتتاحه منوطاً بلوسيان  
المنتصر وله حق اختيار اية سيدة ارادها لفتح المرقص . فوقف امام متيلدة وانحنى ومدّ اليها  
ذراعهُ وسار بها على عيني مناظره وجميع العيون شاخصة اليه

وما انتهت من الرقص معه ورجعت الى مجلسها بجانب الملكة حتى طلب المدعوون ان  
يروها ترقص مع طالبيها الاخر اي الملك العادل . فأمرع هذا اليها وهو يكاد يطير من شدة  
سروره بسنوح هذه الفرصة ونهضت متيلدة واخجلت عابث بوجنتيها ووضعت يدها في يد  
حبيبها . وحمي غضب لوسيان واندفع الاعتراض على ذلك . لكنه قبلما يتمكن من الوصول  
اليها وفصلها احدهما عن الاخر التقت متيلدة في يد الملك العادل ورقة صغيرة ومفتاحاً  
فقال لوسيان لها : —

“ ان حقوقي كمنتهر تخواني ان اعلن نفسي اسيرك الوحيد في هذا اليوم ”

ثم قال للملك العادل :

“ وهبني كنت ميالاً الى المساهلة مع شخص آخر فهل تظن اني ارضى بحصول هذا  
الشرف لك ؟ ”

“ كان الحق لك اليوم وسترى لمن يكون غداً وما بعد غد ! ”

قال هذا واشاح عنه وتبني جانباً ليطلع على ما في تلك الورقة . ففضيها واذا بمتيلدة تقول  
له فيها : —

“ غداً عند طلوع الفجر . هذا مفتاح قبر مونورانسي . سأوافيك اليه ” “ متيلدة ”

وعند طلوع الشمس خرجت في مركبتها مع نساءها وحرّاسها حسب عاداتها وكان اخوها  
يسمع لها بذلك . بشرط ان لا يدنو منها احد الطامحين اليها . ولما بلغت سفح الربوة التي عليها  
قبر مونورانسي أمرت بالمركبة فوقفت فنزلت منها وتركت الحرّاس عندها وصعدت مع نساءها  
حتى وقفت امام باب القبر وصلت في قلبها الى الله قائلة : —



” اللهم اذا كانت محبة احد من البشر قد أضلّني السبيل . اذا كان ميلي الى رؤية الملك العادل وسماع كلامه من جملة البواعث التي حملتني على المجيء الى هنا . فلا تدعني اجتاز هذه العتبة بل ارجعني من حيث اتيت واعصمني من مزج السعي في سبيلك بالسعي لمصلحة ناسي او لمصلحة غيري من الناس “

ثم لبثت دقيقة كأنها تتوقع الهاماً يحقق لها استصواب خطتها وقالت لنسائها : —  
” اتركني هنا فانقطع لتأملاتي الانفرادية والصلاة لله “

فابتعدن عنها قليلاً وقد تعودن ذلك منها فلم يرين فيه داعياً الى الاشتباه والارتياب . ولم يكن لقبر مونمورانسي سوى مفتاحين احدهما مع متيلدة والاخر مع رئيس اساقفة صور . وقبلما خرج رئيس الاساقفة لطيبته اعطى مفتاحه لمتيلدة ولم يخطر قط بباله انها ستعطيها للملك العادل . لكنها كانت عالمة بسلامة نيتها وحسن قصدتها فلم تحف معارضة ابوها الروحي في ذلك . على انها شعرت باضطراب لا مزيد عليه عندما دخلت القبر واخترقت الظلام السائد على المكان الذي يستريح فيه جسد ذلك البطل الفرنسي

وكان في سقف القبة مصباح من فضة موقد على الدوام يرسل اشعة ضيئة الى جوانبه وعلى نورها رأت الملك العادل وهو راها ايضاً وتقدم لملاقاتها  
ولما دنا منها قالت له : —

” اعلم ايها الملك العادل اني لم اطلب الاجتماع بك في هذا المكان لمجرد الاصغاء الى عبارات الشوق والهيام ولا للعمل بما تطلبه عواطف قلبي . لان هذا كله لا يليق بنا اجراؤه في هذا المقام . وكل ما ينطق به من الكلام بجانب عظام مونمورانسي الطاهرة يجب ان يكون طاهراً ايضاً . واعلم ايضاً ان جمع الاساقفة سيلتئم غداً ورئيس اساقفة صور لم يرجع بعد . وقد انطلق من عكا وكلف نفسه معاناة مشاق الاسفار واخطارها حياً بالاجتماع بك والوقوف على افكارك من جهة وعدك لي . فالشرف والاعتراف بالفضل وعرفان الجميل ومصالحنا كلينا تقضي عليك بأن نتجلى عن المجد الذي نتوقع نيله في العاين وتذهب على الفور مفتشاً عن ذلك الشيخ المنكود الحظ الذي قد يكون في هذه الدقيقة راسفاً بالقيود والسلاسل او متجرعاً غصص العذاب لأجلك . ولا تنس ان شرف انقاذك له من مخالب الموت يعلي مقامك في عيون الاساقفة أكثر جداً من شرف انتصارك على لوسيان في ميدان الكفاج والطعان . واذا لم يكفك هذا كله كفاك استصواب ضميرك واستحسان الله ومحبة متيلدة “  
” اني مستعد لاجابة سؤالك هذا مع ما فيه من صعوبة التغلب على اميالي شاكرًا لك



ثقتك العظيمة بي ومعجباً بصفاتك السامية التي أراها مثلاً حياً لاظهر الفضائل واشرف المقاصد  
فجئت متيلدة امام تابوت مونمورانسي وقالت : —

” اي مونمورانسي الشريف لا تكف عن مواصلة الصلاة التي وعدت بها في ساعة  
الموت لاجل الملك العادل . دع روحك الناعمة الآن في ظلال الجود الابدي نكلمة كما تكلمت  
عنه عند ما وقف الموت بفتح لك ابواب السماء ! “

وجثا الملك العادل بجانبها وقال :

” ايها البطل العظيم الذي أعجبت كل الاعجاب بحياته واكرم الآن رفاته . لا ريب في  
ان قبضة التراب هذه ليست كل ما يجب ان يبقى من اشرف ما صنعه الخالق . إذا روحك  
باقية حية مزدانة بالصفات التي سمت بها في هذه الحياة . فلنكلم نفسك نفسي وتعلمني كيف  
يمكنني ان اوفق بين الشرف والواجب والحب “ فقالت له متيلدة : —

” ان الله جعل بحكمته التي لا تدرك حاجزاً حصيناً بيننا وبين الذين سبقونا الى العالم  
الآتي . فاذهب الى رئيس الاساقفة بالعجل لا تضع دقيقة واحدة . ان الجمع الديني سيلتئم  
غداً وربما لا تزيد مدة النمامه عن اسبوع . وقبل انقراط عقده يجب ان تكون قد رجعت  
برئيس الاساقفة ومكنته من الدفاع عنا امام الجمع وكما لا يخفى عليك ليس بينهم من  
يجسر على مخالفة مشورته “

” لا يسعني ان اخالفك . لا بد من ذهابي على كل حال “

” الوداع إذا . اذهب اطلب خادم الله الامين واثنى بعربون سعادتنا وهنائنا “  
ثم مدت يدها لتوديعه واذا باصوات ارتفعت خارج الباب وملأت قلب متيلدة خوفاً  
ورعباً . وسمعت برنغاريا تقول لها : —

” قد جئت انا والملك نطلبك . لاننا لا نريد ان تطيلي المكث في هذا المكان الموحش . “

فصاحت متيلدة : —

” رتشرد خارجاً ! واذا دخل — اذا رآك — ذهبت حياتك ضحية طيشي وهوري —

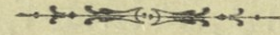
لكننا سنموت معاً على الاقل ! “

” لا تخافي — لن يعلم بوجودي هنا “

ثم انجني الى جانب التابوت واخناً تحت ثنايا سقفه الطويل المتدلاة اطرافه الى  
الارض — وفتحت متيلدة الباب لبرنغاريا فذعرت من رؤية صفرة الوجع التي لاحت على  
وجهها ولاحظ رتشرد ذلك ايضاً فقال لها : —



” لم أر قط في حياتي نظير هذا التغير العابت بوجهك “  
 ثم دخل الى القبر وقلب شقيقته يكاد يخرج من فمها من شدة الخوف والاضطراب وبعد  
 ما ادى واجب التعظيم لمقام بطل فرنسا خرج واغلق الباب وراءه واقفله وقال لها : —  
 ” لا بوذن لك في الدخول الى هذا المكان بعد الآن “  
 ف اشارت اليه اشارة الطاعة . وقلبيها طاف فرحاً بنجاة محبتها ونجاح مسعاها



### الفصل السادس والثلاثون

” هوذا اقوى منك “

وفي ضحى ذلك اليوم استؤنفت الالعب وأبج الدخول فيها للعرب والافرنج على حد سواء  
 وجاء صلاح الدين مبكراً ليشتمع بمشاهدة انتصار اخيه وغلبته لكن الملك العادل لم يحضر  
 وتأخرت الالعب ساعة عن ميعادها اكراماً له ثم تكرر تاخرها ساعة بعد ساعة والجميع  
 متوقعون مجيء اخي السلطان وعيونهم شاخصة الى متيلدة ليروا تأثير غيابه في وجهها فراوها  
 غير مبدية اقل اكثر لذلك وهي في داخلها مفتخرة بغيابه اكثر مما بنيله الغلبة على جميع  
 اقرانه . اخيراً دنا منها لوسيان وقال لها بشيء من التهمك : —

” ما ابطأ الملك العادل في اخراج تهديده من القوة الى الفعل ! فما اخذه عنهم اليوم  
 باحراز النصر الذي علل نفسه به امس “

” ان بسالة الملك العادل كشرفه منزهة عن كل وصمة ونقبة من شوائب الريب واذا  
 قصر في القيام بواجب صغير فما ذلك الا لانه يعنى بالقيام بواجب اهم واكبر “

ثم اعلنت الابواق انتهاء الوقت المعين لانتظار اخي السلطان وابتداء الالعب وبرز  
 الامراء والرجال المنتخبون من الافرنج والعرب وفاق خالد كثيرين من امراء الافرنج وانتصر  
 عليهم لكنه دان اخيراً للوسيان واقر له بالسبق والتفوق فمختمه متيلدة جائزة النصر في  
 ذلك اليوم وفي اليوم التالي وفي عدة ايام اخرى

فقلق صلاح الدين لغياب اخيه ولاسيما في وقت مثل هذا وارسل الرسل والسعاة  
 يفتشون عنه في كل مكان . واقرب اليوم الذي يختم فيه مجمع الاساقفة جلساته وبدي حكمة  
 النهائي من جهة قبول شروط السلطان او رفضها . وكانت اعمال المجمع ومباحثه مخفية تحت طي  
 الكتمان فلم يتمكن احد من معرفة شيء عنها . وكثيراً ما حاول لوسيان اختراق حجب الكتمان



والاطلاع على افكار الاساقفة فلم يفلح في مسعاه . وبعثا حاول ايضا التفريق بينهم ودس  
الدسائس لاجتذاب بعضهم واستمالتهم اليه كما ظن عند ما اقترح عرض شروط السلطان  
عليهم . لكنهم خيبوا آماله من هذا القبيل وجعلوا كيده في تضليل  
اخيرا جاء اليوم الذي يعلن فيه حكم مجمع الاساقفة وتنتهي الهدنة بصلح او بحرب . ففي  
الثني عشرة ساعة يفصل الخطاب في مسألة متيلدة . والمملك العادل ورئيس اساقفة صور بعد  
غائبان ولم يسمع احد عنهما خبرا . وقد اعد المنتصر في آخر يوم من ايام الالاب اعظم جائزة  
تمناها الامراء وهي صورة الاميرة متيلدة

ولما دنا وقت ابتداء الالاب في ذلك اليوم الاخير حملت متيلدة في محبتها الي الرواق المعد لها  
وللملكة وهي لابسة انجر لباس ومزدانة باثمن الحلى والجواهر وبارزة بابهي جمال رائع وحسن  
باهر . لكن محياها الجميل كان مغشيا بسجاجة قلبي واضطراب لم تخف على عيون الناظرين اليها  
ولما استوت على كرسيها بجانب الملكة اعرضت عن ذلك المشهد الحافل واسندت كوعها الي  
عارضة الشرفة وامالت خدها على يدها وشخصت بعينيها الي طريق قيصرية من حيث نتوقع  
راحة من اضطرابها وتحقيقا لرجائها

وكان صلاح الدين الي الآن مرتفعا عن الاشتراك في هذه الالاب لانه رآها دون  
قدره وان الانصار فيها قليل الجدوى والانكسار مدعاة الذل والعار . ولكنه رأى ايضا ان  
نخبة رجاله دانوا لصولة لوسيان الذي كان على مسمع منه ومرأى ينتحل لنفسه لقب ملك  
القدس وخاف انه كما استأثر بجوائز الانصار في الايام السابقة يستأثر ايضا بجائزة هذا اليوم  
— صورة متيلدة — التي ينبغي ان تكون لاختيه الملك العادل فقط فنهض مدفوعا بقوة هياج  
لم يعد في امكانه امتلاكها وصاح بلوسيان متمردا : —

” مهلا يا لوسيان . لا تعلق نفسك بالحصول على جائزة أخرى . ولعل القدر يتيج لي اليوم  
ان انتزع منك الجائزة كما انتزعت منك عرشك الذي لا تنفك تلعب نفسك به باطلا ! “  
” تعال يا صلاح الدين فان انك ارك سيضيف ورقة غار أخرى الي اكليل انتصاري .  
أمرع فان صوت سقوطك سيكون رمزا الي سقوط عرشك ونهاية مدة اغتصابك “

ثم التقيا وقد هاجهما ما بينهما من العداء الشديد حتى كاد يحوّل كفاحهما الهزلي الي طعان  
جدي . وكان الناظرون اليها يراقبون حركاتهما بانتباه لا مزيد عليه فلم يسمع صوت في ذلك  
المشهد كله لسوى صليل اسلحتها — غير المجردة — او لشدة لهتها . حتى ان متيلدة نفسها  
تحولت عن مراقبة طريق قيصرية ووجهت نظرها الي مراقبة هذا العراك الهائل



وقد شق عليها ان ترجو انتصار صلاح الدين على احد امراء امتها لكن انكسار لوسيان كان من اكبر امانيتها لانه لم يكن في استطاعتها ان تمنحه صورتها وكان لوسيان متعوداً هذه الالعب خبيراً باساليبها عارفاً بجميع طرقها وفنونها متدرباً على الاقتصاد في قواه بحيث لا ينفقها جزافاً بل يحفظها الى ساعه الضرورة بخلاف صلاح الدين فانه لم يتعود قط العاباً كهذه ولم يحضر قط ساعه النزال الا ليعرض خصمه لضربات قاضيات وهذه كانت ممنوعة في قانون الالعب ولهذا كانت جولاته في هذا العراك الهزلي عبارة عن اجهاد قواه وانفاقها بالباطل

فانتهر لوسيان هذه الفرصة ودار حول السلطان بسرعة مذهشة يعنفه ويهيجه ويتقي ضرباته ويشدد عليه حملاته من غير ان يمكنه من حفظ التوازن او اتقاء الضرب فيأتيه عن شماله حين يظنه حاملاً عليه عن يمينه وما يبرح ينقض عليه اتقاض البواشق من هنا وهناك وهناك حتى رفع السلطان ذراعه هاماً بضربه فدار لوسيان من ورائه بأسرع من وميض البرق واخذه بوسطه والقاءه على الارض صارخاً :-

“سقط المغتصب !”

وسار على الفور نحو رواق الملكة طالباً الجائزة وهو مثل براح النصر والظفر واذا بمبتلدة صاحت على الاثر :-

“هوذا اقوى منك !”

وما اتمت جملتها الا والملك العادل مقبل والغبار يفساه والعرق يقطر من قوائم جواده فترجل عنه وانقض كالصاعقة الى ساحة الالعب فرأى اخاه يتعثر بذيل الذل والانكسار فكظم لوسيان غيظه وخوفه من هذه المباغته التي لم تكن في حساباته وقال للملك العادل متهمكاً :-

“امثل هذا الابطاء بنجز الابطال مواعيدهم !”

“لم يفت وقت انتزاع الجائزة منك - ساخذ بشارك يا اخي !”

وانطبق على خصمه واخذ يعاجله بالضرب دراكاً تباعاً ويشدد عليه في الملاصقة والمضايقة حتى ضعفت قواه وافنى صبره واحتماله وسد عليه باب الافلات من يده فامسك عن الحمل عليه وقال له :-

“استرح قليلاً يا لوسيان واستجمع قواك وجدد نشاطك لانه لا يحسن بي ان انتهر فرصة اعيائك في طلب الانتصار عليك”



فأعجب الحاضرون بعزة نفس الملك العادل وهتفوا كلهم له هتاف الاستحسان ورأى لوسيان ان خصمه نال عليه انتصاراً ادياً سيمتلوه عما قيل انتصار اعظم واكبر ففسيه ظلام الغيظ والياس واحفظه جداً أن يضطر الى التخلي عن صورة متيلدة الى الملك العادل وعزم ان لا يبقى حياً بعد هذا الذل الفاضح وان يجعل موته في ساحة الكفاح هائلاً دون تمتع خصمه بلذة الانتصار. فعقد نيته على الموت وجدد حملاته على الملك العادل مستقتلاً حتى كاد يزعزعه من موقفه لو لم يعاجله هذا بصدمة صرعته الى الارض. فقال له لوسيان: —  
 “اجهز علي واسلبني حياتي كما سلبتني عرشي وقلب متيلدة”  
 فأجابه الملك العادل مطلقاً: —

“ان انكسارك مرة واحدة لا يجوز مجد نصراتك المتوالية. او لا تسمح لي بانتصار نازعت صلاح الدين العظيم عليه واستظهرت به على جميع الابطال الصناديد الذين نازلوك في هذه الايام كلها؟”

“وماذا نفيدني انتصاراتي السابقة؟ ألا تعد متيلدة الفضل فيها كلها لعيابك وعدم وجودك؟ واي شيطان جاء بك اليوم لتختطف من بدي اعظم جائزة علقت نفسي بالحصول عليها — صورة عروسي ا”

“صورة متيلدة التي لا يزيد حثك فيها عن حثك في عرش القدس! لم اتوقع حتى في الحلم اني ساحصل على جائزة كهذه!”

قال هذا واسرع الى متيلدة لينال منها هذه الجائزة النفيسة. هذا وان القلم لعاجز عن وصف ما خامر فؤاده في هذه الساعة من الافتخار والفرح والسرور حين انحنى حبيبها امامها ومدت يديها وطوقت عنقه بالسلسلة الذهبية المعلقة صورتها بها امام عيون الملوك والامراء والعظماء المجتمعين من كل امة تحت السماء!

وفيما هي تطوقه بالسلسلة قال لها سرّاً: —

“غداً يكون وليم هنا ولكن لي معك كلمة واحدة قبل وصوله في قبر مونمورانسي”

وكان اخوه صلاح الدين قد رجع الى مضاربه وارسل يستدعيه اليه فذهب على الفور وغادر لوسيان يصلي نار حنق وحقد تشوي فؤاده ويتناول لدعها قلب رتشرد ايضاً لأن انكسار صلاح الدين ذكره انكساره هو وجعل مخالفة المنصر عليهما مما لا تسمح به كبرياء نفسه.

وكان مجمع الاساقفة مزماً ان ينتهي في مساء ذلك اليوم فهم متيلدة جداً ان تسمى في



تأخيره يوماً واحداً ريثما يحضر رئيس الاساقفة وتقف على رأيه قبلما تعلم نتيجة حكم المجمع سواء كان لها او عليها فدعت اخاها اليها وقالت له : -

” اعلم يا أخي ان رئيس الاساقفة يرجع غداً . ولا ريب في ان سمو رتبته الدينية وشهرة حكمته واصالة رأيه - هذه كلها - تقضي على المجمع بوجوب اننظاره يوماً واحداً “

” من اين عرفت ذلك ؟ “

” من الملك العادل “

فاعترض لوسيان بقوله : -

” لا اظن ان اخاك بروم المداخلة في شؤون المجمع ! “

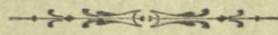
وكان دوق برجندي ودوق النمسا ودوق بافاريا وغيرهم من الامراء قد حضروا وسمعوا حديث متيلدة مع أخيها فأجمعوا بصوت واحد على وجوب ابلاغ الاساقفة خبر قدوم اخيهم . وحاول لوسيان الاعتراض ثانية فلم يكثر احد منهم لكلامه .

واستأذنت متيلدة أخاها في ارسال حاجب الى نائب البابا لاطلاعه على نيا رجوع رئيس اساقفة صور ومالبت الاساقفة ان حضروا كلهم فقال لهم رتشد : -

” اظنكم ايها الآباء المحترمون آخرتم صدور الحكم ؟ “

فاجابه مطران الناصرة : -

” ان خبر رجوع رئيس اساقفة صور ورغبة الاميرة متيلدة سبب كاف لتأخير حكمنا يوماً واحداً “



## الفصل السابع والثلاثون

### بين العقل والطبع

وفي تلك الليلة دخلت متيلدة مخدعها لتنام فكرت عليها جيوش الهواجس والافكار وانزعجت من اجفانها الرقاد وحكمت فيها الارق والسهاد . فقضت ليلها كله تبحث في موضوع طلب الملك العادل منها ان توافيه في الصباح الى قبر مونتورانسني . فدققت النظر في جميع الاسباب التي تحوّل الملك العادل حق هذا الطلب وتوجب عليها العمل بموجبه - ذكرت كل ماله عليها من الفضل والمعروف من يوم عرفته في دمياط والقاهرة والبادية وماله على المنكة ورئيس الاساقفة حتى على اخيها رتشد ايضاً في معركة فيصرية ولم تغفل اعتبار الغرض الذي



لاجله يروم الملك العادل ان يجتمع بها وافترضت انه قد يحتمل ان يكون شريفاً سامياً كالغرض الذي اجتمعت به من اجله في المكان نفسه - هذه الامور كلها عرضتها على ذهنها بما استطاعت من البيان والتفصيل. ولما وقت هذا الوجه من الموضوع حقه من التأمل والبحث تركته جانباً ويبحث في الوجه الثاني منه - في الاسباب التي توجب عليها الامتناع عن اجابة طلبه وتوسلت الى الله بدموع حارة وانسحاق قلب ان يلهمها الصواب في حكمها ولا يجعل لعواطف قلبها سبيلاً لمعارضة عقلها في تجرّي معرفة الحق واتباعه. وبعد عراك شديد وصدام عنيف بين عقلها وطبها واحتمالها منه اشد ما تحمله السفن من عراك الرياح والامواج رضخت لحكم العقل القاضي بوجوب اغفال طلب حبيبها على رغم ما يعانیه من صعوبة خيبة الامل ومرارة طول الانتظار باطلاً

وكان الليل حينئذ قد ولى الادبار امام جيوش النهار وتمزقت حجب الظلام باشعة الضياء المنبثقة من محيا الشمس مليكة الانوار فغادرت متيلدة مخدعها وخرجت تطلب الملكة لعلها تسمع منها خبراً عن وصول رئيس الاساقفة. وكان الامر كما املت فان الملكة بشرتها بانها دخل عكاء منذ ساعة وخلا على الفور بنائب البابا

ثم دخل حاجب يعلن قدوم الملك رنشرد ورئيس اساقفة صور. وكانت متيلدة قد همت بالخروج فليقيتها في الباب فخيبتها مطرقة من غير ان تستطيع ان ترفع نظرها الى وجه رئيس الاساقفة لترى ما عليه من علامات تحقيق الرجاء او لوائح اليأس والقنوط وعادت الى مجلسها اما برنغاريا فرحبت بقدومه وهنأته بسلامة الرجوع وسألته عن اسباب عاقته فقال :-  
 "قبض عليّ العرب في يافا بامر المشطوب على رغم وجود الهدنة. وبعد ما شدوا وثاقي زجوني في السجن وبلغ من حقد المشطوب وحنقه انه عدني من الاسباب التي لوت الى سقوط عكاء وانتهاز فرصة السلطة المطلقة المعطاة له في يافا واصدر امرأ بهتلي بعد مضي ٢٤ ساعة. ولكن في نصف الليل فتح باب سجنى وكنت اظن ان اعدائي جاؤوا يطالبون حياتي واذا بي ارى منقذاً واقفاً امامي يحول بيني وبين حماي !"

فسأله رنشرد :- "ومن كان هذا المنقذ العظيم ؟"

"الملك العادل. لا اعلم باية معجزة الهية جاء لانتشالي من وهدة الموت وقد سألته بيان ذلك فابى ولم يبيح لي بهذا السر"

"يصعب عليّ ان ادرك كيف أرسل الملك العادل اليك مع انك لم تخبر بجهة مسيرك سوى الملكة واختي"



” ان كان ثم سر فهو يوافق قول مخلصنا الامر بأن لا نخبر يميننا بالخير الذي تصنعه  
شمالنا. انه سر احسان عظيم يجب علينا اجتناب محاولة الاطلاع عليه “  
” اراك ايها الأب المحترم منفرداً بالانحياز الى الملك العادل واستحسان كل ما يفعله “  
واخاف ان ميلك اليه يقدر في صحة رأيك ويؤثر في حكم المجمع المنتظر “  
فأجابهُ رئيس الاساقفة : —

” لا احاول إنكار محبتي للملك العادل التي لا تقل عن محبة الاب لابنه . واني معجب  
كل الاعجاب بصفاته الشريفة التي ولدت في هذه المحبة له . وسأذكر امام المجمع كل ما له  
من الحسنات لأن ديننا ينهانا عن التحامل على اعدائنا . ولا يؤذَن لي ان اطلع جلالتك  
على افكاري ومقاصدي لكنني واثق انها كلها مما يجيد نعمة في عيني العالم بكل شيء وسأذهب  
الآن الى المجمع قبلما التمس الراحة من عناء شديد أخذ مني كل مأخذ “  
وبعد خروجه بقليل ارتفع ضحيج خصام ونزاع ودخل حاجب يقول مخاطباً  
الملك رتشرد : —

” ان الملك العادل وقف منذ دقيقة بباب الاميرة متيلدة طالباً الدخول اليها وانفق  
مرور ملك القدس فاعترضه واقسم بأنه لا يسمح له إلا بأمر صريح من جلالتم . فاعتناظ  
الملك العادل واستل سيفه وفعل لوسيان فعله واذا لم تسرع جلالتم في الخروج والتوسط  
بينهما كانت العاقبة وخيمة الى الغاية “  
فنهض ونظر الى اخيه واذا يجدها قد صبغاً بجمرة كأنها النار في معظم انقادها بعد أن  
كانا منذ هنيهة في نحول واصفرار لا مزيد عليهما . ولس يديها فشر بأعلى درجة تبلغها حرارة  
الحمى . فقال للملكة : —

” خذها من هنا فلا أريد ان الآخرين يطلعون على ما هي فيه الان “

وبعد خروج رتشرد قالت لها الملكة : —

” ادخلي الى مصلاي حيث تجدين راحة في انفراد لا يكدر صفاؤه ومن وراء هذه  
الستائر تستطعين سماع كل ما يقال هنا “  
فدخلت الى حيث قالت لها الملكة واذا برتشرد راجع ومعه الملك العادل ولوسيان .



## الفصل التاسع والثلاثون

## رفض شروط الصلح

وكانت الملكة قد سبقت وجعلت كرسيها ملاصقاً للستارة الفاصلة بين غرفة الجالوس ومصلاًها بحيث تكون قريبة من متيلدة الجالسة ورائها من الداخل وكان الملك العادل اول من تقدم ليحيي الملكة فجلس بجانبها وهمس اليها متوسلاً ان تحبره هل اصاب متيلدة مكروه لأنه في قلق لا مزيد عليه من جهتها . فأجابته بما ازال جانباً من قلقه واعاد اليه شيئاً من الاطمئنان . واذ ذاك قال لوسيان لترشرد بهمكم مبطن بالتأدب: —  
 ” لا بد ان جلالتك تسلم بأن اكبر برهان على صحة ما يؤثر عن لطف ملكة انكلترة وكرم اخلاقها انما هو صبرها على هذيان الملك العادل وهذره اللذين لا نهاية لهما “  
 لكن ترشرد كان مشغولاً عن سماع كلام لوسيان البذيء بملاحظة الملك العادل نفسه اذ راه جالساً حيث كانت اخذه جالسة منذ هنيهة وعلى وجهه ما كان على وجهها من النحول والاصفرار . فأثرت هذه المشابهة الشديدة في نفسه فصاح على غير قصد ولا تمهيد: —  
 ” لم أر قطُّ حباً كهذا ! “

فسأله لوسيان بشيء من الغيظ: —

” ماذا تعني جلالتك بهذا ؟ “

” اعني انه لولاك لآثرت في هذه المسألة تأثيراً غريباً ! “

” اذاً لم يبق لي الا ان أتي كل اتكالي على عدالة المجمع “

” وكأنك لا تعبا بعدالتي وصدق مواعيدي ؟ “

ثم اخذه ترشرد بيديه وسار به الى شباك ليكنه على انفراد بعيداً عن مسمع الملكة

والملك العادل

فانتهز الملك العادل فرصة ابتعادها وقال للملكة: —

” اريد ان ارى متيلدة لاقول لها كلمة واحدة “

فاشارت الى الستارة وقالت له: — ” اني ذاهبة قل لها ما تشاء فتسمعك “

فأدرك مراد الملكة وعلم ان متيلدة وراء الستارة وقال لها: —

” انتظرتك هذا الصباح لاقول لك كلمة مهمة جداً . فاذا لم يمكنك ان تكلمي رئيس

الاساقفة قضي علينا ! “



ثم اطلّ رتشرد من الشباك المشرف على محل اجتماع الاساقفة وقال : —  
 ” انتهى اجتماعهم وهوذا وليم ونائب البابا وباقي الاساقفة آتون اليما ليطلعونا على  
 نتيجة المؤتمر ”

ثم دخل نائب البابا ورئيس اساقفة صور وقال الاول مخاطباً الملك رتشرد : —  
 ” حكم المجمع امس باستصواب اعطاء الاميرة متيلدة للملك العادل . هكذا كان حكمنا  
 لو لم نضطر الى تأخير النطق به . اما اليوم فان حكمة رئيس اساقفة صور اقنعتنا بخطأ حكمنا  
 هذا وحكمنا برفض شروط صلاح الدين الا اذا كان الملك العادل يجيبنا صريحاً بعد ثلاثة ايام  
 بانه مستعد للانضمام اليما وممارسة الرسوم التي تبرهن صحة هذا الانضمام ”

فاجابه الملك العادل : —

” لا حاجة الى انتظار ثلاثة ايام فمن الآن اقول لك اني ارفض كل شرط يقضي علي  
 بارتكاب الخيانة والغدر ! ”

فاجابه رتشرد : —

” اذا ترفض قبول اختي بموجب الشروط المعروضة عليك ؟ ”

” ارفض ان اضع ثقة صلاح الدين بي ! ارفض ان تكون شقيقتك وهي اشرف مخلوق  
 علي وجه الارض ثمن صفقة دنيئة كهذه ! انا — الملك العادل — اقبل شرطاً مهيناً كهذا !  
 معاذ الله ! ان امتزاج ماء هذا النهر بياه البحر الاحمر اقرب من ان ارفع يدي علي  
 أخي وبلادي ! ”

فالتفت لوسيان الى رئيس الاساقفة وقال : —

” حقاً نك ايها الاب المحترم اسمي شأننا من جميع بني البشر . واننا لقاصرون جداً عن  
 ادراك كنه صفاتك العجيبة ! فلك وحدك انا مديون بما هو اعز من وجودي واثمن من حياتي ! ”  
 ” لست مديوناً لي بشيء على الاطلاق . لاني لم اخدم قط انساناً ولا راعيت مصلحة  
 بشر بل جعلت نصب عيني مصلحة الدين فقط ”

ثم انتهز الملك العادل فرصة اشتغال رئيس الاساقفة ونائب البابا ورتشرد ولوسيان في هذا  
 الموضوع ومال الى الستارة الفاصلة بينه وبين متيلدة وقال لها بصوت لم يسمعه احد غيرها : —  
 ” ينبغي ان توافيني غداً الى قبر مونورانسي . سأذهب الي هناك حالاً وأبقى حتى تأتي .  
 فان لم تأت بقيت الى الابد . فهل تنكبين عهدك ؟ هل تتركيني اموت هناك ؟ ”  
 ” كلا ”



وحينئذ وقف ودنا من رئيس اساقفة صور وقال له : —  
 ” لقد اصابني منك اليوم اعظم ضرر ومع ذلك فانت اعظم رجل يستحق احترامي واحترامي .  
 ورجائي اننا نتمكن يوماً ما من الحصول على مصالحة ترضينا كلينا قبلما نفارق هذا العالم “  
 ثم التفت الى رتشرد وخاطبته بآباء وعزة نفس : —

” لا أخفي عن جلالتك شعوري بسوء حظ مزدوج — بالحكم الذي صدر الآن  
 والسرور الذي نالك منه . وقد كان يهون علي حمل ثقل هذا الحكم لورأبتك آسفاً بعض  
 الأسف على وقوعه . ولكن يظهر لي أن كل شيء هنا موجه لمقاومتي . فعلياً ان اذهب الى  
 اخي واطلعه على حكم مجمع الاساقفة وهو نذير باستئناف القتال وسفك الدماء الا اذا مدت  
 يد غير منظورة وحالت دون ذلك “

وانطلق على الفور الى خيمة اخيه صلاح الدين وخلا به على انفراد وقال له : —

” هل تعلم باي شروط رضي الافرنج ان يعطوني اخت رتشرد ؟ “  
 ” بالشروط التي اقترحتها عليهم “

” لا . لم يقبلوا شروطك بل اشترطوا علي ان انضم اليهم واتخلى عنك قبلما يعطوني من  
 يجهها قلبي “

” اذا رفضتها ؟ “

” لا ارفضها الا اذا اوقفت يد الموت حركة هذا القلب الذي ملكتها اياه ! “  
 ” ماذا تقول ؟ أمن الممكن أن حياً عقيماً كهذا يقودك الى ارتكاب الدناءة ؟ وهل ارى  
 في اخي الدء عدو لي ؟ “

” لا تنجس شفيتك بذكر تهمة لا يصدقها قلبك . اني اخوك يا صلاح الدين . فكيف  
 يمكنني ان اكون عدوك ايضاً ؟ اسمع . ان الوقت اقصر من ان يسمح لنا باطالة الكلام .  
 انك منطلق لا محالة . اما انا فلست بذهاب معك . اني باق هنا . لا تخف علي . فقد  
 وجدت مخبأ لا يعرفه احد من الافرنج ويقبض علي ان اكنتم سره حتى عنك . على اني  
 لا انا آخر عنك كثيراً . انتظري في قيصرية فاوافيك بعد ثلاثة ايام ومعني متيلدة “  
 ” اميرة انكلترة ؟ “

” نعم . ان قلبها لي . وقد اعطيتها منذ وقت طويل . وهي اوفى من ان تخلف وعدها .  
 خذ رجالك معك فلست في حاجة الى سوى خالد . اني عالم ببسالته ووائقه باخلاصه “  
 وبعد انطلاق السلطان ورجاله ذهب الملك العادل وخالد الى جهة الشاطئ حيث



وجداً كفوفاً يسترهما عن العيون . وفيه ترتب على خالد ان يبقى منتظراً رجوع الملك العادل  
معدداً له جوادين من اكرم الجياد العربية  
ثم سار الملك العادل الى قبر مومورانسي ينتظر متيلدة

### الفصل الاربعون

مهلة ثلاثة ايام

وبعد انطلاق الملك العادل غادرت متيلدة مصلى الملكة الى مخدعها القريب منه وجلست  
تنتظر رئيس الاساقفة وهي في حالة يرثى لها من شدة القلق والاضطراب والحزن والاكتئاب .  
ولما دخل وراها على هذه الحالة كاد قلبه يتفطر حزناً عليها واخذته حيرة شديدة حبست لسانه  
عن الكلام . ثم تغلب على انفعاله وقال لها : —

” هل انت مستعدة يا ابنتي للاصغاء الى كلامي “  
” تكلم يا أبت “

” يجب عليك ان تقبلي ما قسمه الله لك بملء الطاعة والتسليم بل بالحمد والشكر “  
” ألا يجب علينا في هذه الحياة الدنيا شي ؟ آخر غير التسليم ؟ اما من حوادث او احوال  
تقتضي العمل ايضاً ؟ الا يمكن بعض الاحيان ان مشيئة الله تظهر غير موافقة لما يطلبه الضمير  
وحينئذ نرى النور الذي وهبه الله لنا لنميز به الصحيح من الخطأ ؟ “

واذ ذلك دخلت الملكة وقالت : —

” استأذنك يا أباي في استماع ما تروم ان تقوله لشقيقتي “

فساءه جدّاً دخولها وتضييعها عليه فرصة انفراده بمتيلدة للوقوف على اعترافها لكونه  
تجلد كعادته وشرع في حديثه فقال : —

” لما برحت عكاء ذهبت رأساً الى قيصرية فلقيني بعض الضباط وظنوني زائراً وقالوا  
لي ان الملك العادل ذهب بتعهد عسقلان ويافا . فسرت الى المدينة الاولى ولم اراه فيها  
فقصدت الثانية وعلمت انه لم يأتها . واذ حاولت الوقوف على الخبر اليقين من جهته ارتابوا  
مني وعرفني المشطوب جيداً كما قلت في هذا الصباح وحكم علي بالموت . وقلت ايضاً ان  
الملك العادل جاء اخيراً كأنه بمجزرة من السماء واطلقني في اليوم المعين لقتلي . وليست هذه  
اول مرة اعاد لي فيها حياتي وحريتي . ففي دمشق — كما في يافا — كنت لولاه مزمعا



ان اقضي حياتي في السجن او اموت من شدة العذاب وكأن هذا الامير الكريم يتبعني على الدوام لينقذني من الموت ويضاعف ديني له ووجوب وقف حياتي على خلاصه . ولكن يظهر ان الساعة لم تأت بعد ولا يمكنكم يا ابنتي ان تتصوروا ما بذلته من الجهد والاجتهاد في اقناعه وما اضن لساني يستطيع ان ينطلق بمثل البراهين المقنعة والادلة المفحمة التي اوردها له وبلغت من المساهلة معه ما تعدت به حدود السلطة المعطاة لي ورضيت بانته اذا قبل ما عرضت عليه لم يطلب منه حمل السلاح ضد بلادوه فأصر على زعمه ان قبوله ما نطلبه منه يكون بمثابة معاداة لصلاح الدين . واكد لي انك تُعطين الحرية المطلقة في ممارسة شعائر دينك وربما جاراك في البعض منها . ولكنني لم استطع الاعتماد على وعد مثل هذا فقالت متيلدة : -

” لست مخالفة لك في هذا “

” اذا تقوي يا ابنتي تقوي . انشطي من عقل الضعف المستخوذ عليك ولا تستسلي

خوار العزم “

وحقاً كانت في خوار عزم لا مزيد عليه حتى انها وهو بكلمها سقطت على كرسياها الى الورا وأغمي عليها من شدة الاعياء وظلت عدة ساعات تراوح بين الموت والحياة . وبعد غروب الشمس أفاقت وطلبت الرجوع الى مخدعها

ومع تصميمها على موافاة الملك العادل في الصباح صممت ايضاً أن تطاع رئيس الاساقفة على ذلك ووجود الملكة حال دون كلامها معه في هذا الموضوع وكان من الضروري ان تراه قبلما تنام فارسلت احد حجابها اليه وأمرت بأن تبقى ابوابها مفتوحة الليل كله وفيما هي تنتظر قدومه سمعت وقع اقدام خارجاً فنهضت لاستقبال زائرها واذا به اخوها رتشرود وما عثم ان جلس وقال لها : -

” لا اكرم عنك سروري بتصرفك في هذا اليوم وحسن صبرك على التضحية العظيمة التي دعاك الواجب اليها . لكنه باق عليك تضحية اخرى لا تقل عنها شأنًا وخطارة ولا جلاها جئت الآن لانكم معك . فلا يخفى عليك اننا سنعود عما قليل الى قتال العرب ولا بد ان رفضنا لشروط صلاح الدين يغيظه جداً ويزيده اقداماً علينا رغبة في التثفي والانتقام وسيبذل اخوه اشد قوة يستطيعها حتى يتمكن من اخنطافك من ايدينا . هذا من جهة . ومن جهة اخرى ترين عساكرنا ملأوا القتال وأخذوا يتدمرون من كثرة مقاساة الاهوال وشدة معاناة الاخطار وطول زمان تغربهم عن الاهل والاطان في سبيل استرجاع عرش القدس



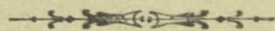
ملك افرنجي مستشرق ( لوسيان ) . فاذا تحققوا ان اميرة من دمي تشاركه في هذا العرش  
هان عليهم تجشم هذه المخاطر كلها وزادوا حماساً ونشاطاً وبسالة واقداماً . وقد ادركت مرادي  
من هذا كله وعلمت ان الواجب عليك للدين والوطن والامة يقضي بقبولك لوسيان زوجاً لك  
على الفور بلا تردد ولا ابطاء لان الضرورة اشد مما تظنين والوقت لا يسبح بالتأخر . وبعد  
ثلاثة ايام منزحف على قيصريّة وعسقلان ويافا ومن ثم نتقدم الى القدس . فلك ثلاثة ايام  
تستعدين فيها للاحتفال باقترانك به

فاجابته متيلدة برصانة وتجرد : —

” اشكرك لانك امهلني ثلاثة ايام . وهذه المدة يجب ان اقصيها بالعزلة والانفراد للتأمل  
والاستعداد حتى اتمكن من القيام بهذا الواجب العظيم . فما اظنك تبخل عليّ بمفتاح قبر  
مومورانسي هذه المرة فقط “

” هذا هو . خذيه ولا تنسي اني لن اسمح لك بعد الآن بدخول ذلك المكان “

وبعد خروج أخيها دعت اليها هرميون واوصتها بأن تقفل الابواب الليل كله ولا تسمح  
بالدخول لاحد ولو كان رئيس اساقفة صور وان تكون مركبتها في الصباح معدة للذهاب  
بها الى قبر مومورانسي



### الفصل الحادي والاربعون

#### عبرة وذكرى

وفي الصباح دخلت هرميون الى متيلدة واخبرتها بان كل شيء معد لانطلاقها . فخرجت  
على الفور الى حيث كانت المركبة تنتظرها وسارت بها الى سفح الربوة فنزلت منها وصعدت  
الى القبر وفتحت بابه ودخلت ومن شدة اضطرابها وهياجها غفلت عن اغلاق الباب وراءها  
فظل مفتوحاً الى نصفه وغفل الملك العادل ايضاً عن هذا الامر وخف الى استقبالها فاشاحت  
عنه وقالت له : —

” اتركني . اتركني “

ثم جثت امام تابوت مومورانسي وصاحت بين التنهد والزفير : —

” هنا يا الهي كل شيء ناعم بظلال الراحة والسلام . فالسلام مخصوص بالمقابر . لكن



قلبي قبر آمالي وسعادتي ولا راحة ولا سلام فيه : - لماذا دعوتني الى هنا ايها الملك العادل؟  
ماذا تريد مني؟ هل تروم ان تطلعي على مكروه آخر؟ ما وراءك من الكوارث التي خباها  
لي القدر؟ تكلم . أعلن مقاصدك . لقد حان الوقت لنهاية كل شيء .

فهاهـ ما رآهـ عليها من علامات الاضطراب وقال لها : -

”سكّني روعك قليلاً واخبريني بما أوجب انزعاجك“

فاطلعت على تفصيل ما قاله رئيس الاساقفة لها وأمرها اخوها به فقال لها : -

”لم يبق لك سوى امر واحد وهو ان تهربي معي . يجب ان ارجع بك غداً الى

بلاط صلاح الدين“

ففتحت عنه وقالت : -

”غفر الله لك هذا العزم الباطل والرأي البعيد عن الحكمة والصواب !“

فذكرها ما عاهدته عليه في البادية ووعدها بانها تكون شريكة له في الجلوس على عرش

القدس ولها الحرية المطلقة في ممارسة عقائدها الدينية وانه لا يتأخر حينئذ عن الانضمام

اليها والاشترك معها في ما تريده . واطال الكلام في هذا الموضوع باذلاً جهده في اقناعها

وحملها على التسليم معه بالهرب وهي ساكنة لا تحير جواباً ولا تبدي اعتراضاً . فعدت سكوتها

قبولاً وتسليماً وقال لها : -

”ارجعي الى عكاء واحرصي على كتمان هذا الامر حتى عن الملكة ورئيس الاساقفة

وغداً اخرجي حسب عادتك للتنزه واجعلي سائق المركبة يسير الى جهة جبل الكرمل فلا

يبلغ الكهف الذي على الشاطئ حتى تكوني قد نجوت . واذا لم توافيني غداً دخلت عكاء

طالباً حياة لوسيان وربما حياة ...“

واعترض نيمة حديثه وقوف رئيس اساقفة صور في العتبة . رأها وعرفهما وصاح على

رغمه صياح الكره والاشتمزاز

فلم تفكر متيلدة الا في الخطر المحقق بمن تحبه . ولهذا اندفعت الى رئيس الاساقفة

وقالت له بصوت اجش : -

”احذر يا ابت ! فان كلمة واحدة تكفي للقضاء عليه ! تعال لنخرج من هنا مسرعين

قبل ان يصل حراسي الذين ذعرهم صراخك ويبعثوه - الوداع ايها الملك العادل !“

وما خرجت برئيس الاساقفة واغلقت الباب وراءها الا وحرّاسها قد اقبلوا ملبين نداء

الاستغاثة الذي سمعوه فصرقتهم قائلة لهم ان الصوت نشأ عن توهم خطر على حياتها



اما رئيس الاساقفة فعلى رغم شدة ثقته بطهارة متيلدة وسمو شرف الملك العادل لم يستصوب اجتماعهما . وبعد التأمل والافتكار بدا له أن يعدل عن الكلام في وعظ متيلدة وارشادها الى ما هو اوقع واشد تأثيراً فقال لها وهي على اهبة الدخول الى مركبتها : —  
 ” اراك مسرعة في الرجوع على خلاف عادتك . ان الوقت يسمح لك اذا اردت ان تصحبيني قليلاً الى احد الاكواخ وراء هذا الصخر الكبير الذي امامنا “  
 ف اشارت اليه بالقبول وسارا معاً حتى بلغا كوخاً حقيقاً كان على بابهِ عجوز تغزل وبجانبيها اربع بنات صغيرات يعملن سلالاً فاجنازه الى كهفٍ وراءه واذا بصراخ حاد يمزق الاذان وامرأة مطروحة على بابهِ تفرع صدرها قرعاً عنيفاً وتوغل في العويل . فقبضت متيلدة بيديها على ذراع رئيس الاساقفة واسرت اليه واخوف آخذ منها كل ماخذه : —  
 ” هذه اغنس ! “

” نعم . ففي عهد فضيلتها كانت مثلك جميلةً وبها افتخر شعبها وتباهى آله . لكني لما استسلمت لاميالها هوت من يفاع مجدها وحال لون جمالها وزال ظل عظمته ولم يبق من ابنة اموري الشهيرة سوى مظاهر جنون بادية لعينيك . . . . “  
 وكان صوت الصراخ يعترض كلامه وهو آخذ في الاشتداد ومردد لذكر الملك العادل . فتوسلت اليه متيلدة ان يعود بها لانه لم يعد في طاقتها الصبر على هذا المشهد المخيف . فرجع بها من حيث اتى ودعا اليه العجوز التي اقامها على حراسة اغنس واوصاها بها واعطاها مبلغاً من الدراهم وسار بمتيلدة الى حيث كانت المركبة في انتظارها فادخلها اليها وجلس بجانبها وقص عليها قصة اغنس فقال : — ” انها بعد فرارها من المعركة التي انتهت بموت مونمورانسي حاولت مراراً لا تحصى ان ترى الملك العادل فلم يسمح لها . ولما بلغها خبر قدوم الوفد الى عكا لاجل خطبتك فارقتها صوابها وجنت . وقد لقيتها في قيصرية كما شاهدناها الآن فسعيت باحضارها الى هذا المكان واملي ضعيف جداً بشفتائها “

### الفصل الثاني والاربعون

#### الهرب الى الدير

وبالجهد تمكنت متيلدة من الحصول على شيء من الراحة التي كانت في اشد الاحتياج اليها حتى ارسل اليها اخوها الملك رتشرد يقول انه قادم لزيارتها ومعه لوسيان . فقالت في نفسها : —  
 ” ارى انه لا بد لي من الموارد والمداجاة لانهما سلاح العاجز المظلوم في هذا العالم



الشريير! اذا ساداجي وأداهن ولو علي رغمي  
ثم جلست الى كتابة بعض اسطر لم تكذ تفرغ منها حتى سمعت وقع اقدام اخيها ولوسيان  
فنهضت لاستقبالها وعليها سنان الانفة والاباء. فاقبل لوسيان اليها وبعد ما حياها بما لا مزيد  
عليه من التلطف قال لها : —

” أيجق لي ان اعلل نفسي بإمكان تنازلك لاجابة سوئي ؟ “

” لولا ثققت بذلك لما أقدمت يا سيدي على الجيء الى هنا “

ثم التفتت الى اخيها وقالت : —

” تذكر انك عينت لي يومين اقصيهما في الاستعداد . وهذا حسي فلا استزيدك

شيئاً سوى ان اقصي هذا الوقت الوجيز وحدي على انفراد “

وقبلما يتمكن رتشرد من الجواب سبقه لوسيان فقال : —

” ليكن لك ما طلبت وساتحمل عناء فراقك في هذين اليومين بالصبر ولا اكدر

صفاء انفرادك . “

ثم حياها وخرج . فالتفت اليها رتشرد بعين التبرثم والاستياء وقال لها : —

” استعدادي لقبول ما اوجبتك عليك — الاقتران بلوسيان — في الوقت المعين —

بعد يومين . واياك ان تجاولي تأخير ذلك دقيقة واحدة “

وخرج على الفور من غير ان يهلها دقيقة للجواب . على ان تهديده لم يكن له اقل

تأثير فيها ولم يشنها عما عازمت عليه قبل مجيئها اليها

وفي الصباح التالي نهضت عند شروق الشمس وخرجت في مركبتها حسب عاداتها وامرت

السائق ان يسير في طريق البحر الى المكان الذي عينه لها الملك العادل . فلما بلغته لقيها

رجالان بالسلح الكامل فاحاط بها حراسها واستعدوا للدفاع عنها واماط الملك العادل

اللاثام عن وجهه ودخل بينهم فلما رآوه وعرفوه وقفوا من شدة خوفهم جامدين لا يبدون

حراكاً . فالتفتت اليهم متيلدة وقالت : —

” خلوا عن المقاومة فانها لن تجديكم نفعاً . واعلموا اني بارادتي واخيارتي سمحت للملك

العادل ان يتقذني من سلطة جائرة كادت تكرهني على اقتران يروعني مجرد افتكاري به “

ثم التفتت الى الملك العادل وقالت : —

” وعدتكم ايها الملك ان اوافيك الى هنا وقد وفيت بوعدي . ووعدتكم ايضاً ان اهرب

معك وها انا مستعدة لذلك . فلا تنس انت ايضاً ان تفي بوعدك لي وهو اني اعيش حيث انا



ذاهبة عيشة الزهد التام والاتقطاع المطلق فلا ارى احدًا اياً كان ولا يمنعني احد من القيام  
بواجباتي الدينية كما أريد

”سيكون لك كل ما طلبت“

”هل يؤذن لي ان اختار المكان الذي انقطع فيه؟“

”نعم“

فاشارت الى الدير الذي على قمة جبل الكرمل وقالت :-

”خذني الى هناك فانه المكان الوحيد الذي فيه استطيع ممارسة واجباتي الدينية

بعيدة عن كل انسان“

”لقد خدعني يا متيلدة“

”كلاً لم اخدعك . ولا يخفى عليك اني بذهابي الى الدير اعيش مكرمة من الناس

ومباركة من الله اما انطلاقي معك الى بلاط صلاح الدين فيقضي عليّ بالملامة وابقى مدى

حياتي عرضة لتوبيخ الضمير . ولقد فوّضت امري اليك فاختر لي ما يحسن في عينيك“

فصعد الملك العادل الى مركبتها وادارها في طريق الدير حتى اشرفوا عليه فقال لها :-

”لقد اطعتك ولست بنادم على ذلك على رغم ما تجمله من العناء في سبيل مقاومة

امبالي والتغلب على عواظي . على اني اخاف ان الذين انقذتك من ايديهم يتبعونك الى

هنا ويرجعون بك الى عكاء ويكرهونك على الرضوخ الى حكمهم الظالم الفظيع“

”لا لا تخف . لا يجسرون ان يتعدوا باب هذا الحرم المقدس . انه بيت الله وما من

احد على الارض يقدم على انتهاك حرمة المقدسة“

واذ ذاك بلغت المركبة مرتفعاً لم يمكنها اجتيازهُ فوقفت ونزلت متيلدة منها واوعزت الى

حراسها ان يصحبوها الى ابواب الدير وخيرت نساءها فاخترن البقاء معها على الرجوع الى

عكاء ومدت يدها لوداع الملك العادل فابي الا ان يوصلها الى بوابة الدير . فلما بلغتْها حيتها

تحيّة الوداع ودخلت وعاد الملك العادل وخالد الى حيث تركا جواديهما فامتطياهما وبعد بضع

ساعات كانا في قيصرية

وكان صلاح الدين يتوقع رجوعهما بفروغ صبر فلما خلا باخيه قال له :-

”ساترك السؤال عن الاسباب التي حالت دون مجيء متيلدة معك الى فرصة اخرى .

اما الآن فاخبرك بانني ذاهب لتحصين عسقلان وساترك قيصرية في يدك وقلبي مطمئن من

جهتها ما دام حسامك مسلواً للذود عنها



## الفصل الثالث والاربعون

” لست بصاغٍ عنها ! “

ولما رجع حراس متيلدة الى عكاء وجدوا الاضطراب عابثاً بالمعسكر والياس مخجماً على لوسيان والغبيظ آخذاً كل مأخذٍ من رتشرد والحزن والجزع متمكنين من الملكة ورئيس الاساقفة وكانوا قد اسنبطوا متيلدة ولم يعرفوا شيئاً عن غيابها حتى دخلت الملكة الى مخدعها ورأت على مكتبتها كتاباً معنوناً باسم اخيها رتشرد فاخذته الى رئيس الاساقفة وطلبت اليه ان يوصله الى الملك فسار به الى رتشرد ورفعته اليه فتناولهُ بغضبٍ لا مزيد عليه ومزق غلافه بيد الحقن وقرأ فيه ما ترجمته : —

” برحت عكاء لانجو من سلطة جائرة تعدت حدود العدل واتخلص من اقتران لا اريده ولا ارضاه . اني عالمة بتأثير فراري في اخي فلا اطمع بصنحه وغفرانه ولكن الله الذي يقرأ ما في ضميري ويعلم طهارة قلبي لا يبخل علي بصنحه وغفرانه “

ولما فرغ من تلاوته صاح باعلى صوته : —

” صدقت صدقت . فلست بغافرها ولا صاغ عنها ! “

وظل رتشرد ولوسيان وباقي الملوك والامراء على ما ذكرنا من الهياج والاضطراب الى مغيب الشمس حين رجع حراس متيلدة واخبروا باجتماعها بالملك العادل وانقطاعها في دير الكرميل فأعجب بعضهم بصدق عزمها واستحسنوا نرفعها عن قبول عرش محفوف بالخلاف الديني وكان بعضهم مستعدين لان يعذروها ويصوبوا عملها لوقبلت ما عرضه صلاح الدين ورفضه مجلس الاساقفة ونجت من اقتران تكرهه بالهرب مع من تحبه . لكن اصدقاء رتشرد ولوسيان عابوا تعلقها بالملك العادل ورفضها زواجاً اوجبه مصالح الكنيسة . اما رتشرد فساءه جداً ان يرى هذا العصيان من شقيقته واعلن عزمه على الذهاب في الغد الى الدير واخراجها منه واكرامها على الاقتران بلوسيان . فاعترضه رئيس الاساقفة بقوله : —

” لا يخفى على جلالتك ان قوة الله اسمى من قوتك . وبيته حرم مقدس لا يحل لك ان تدخله على هذا الوجه . وخير لنا ان ننسى اميرة انكلتره ونعدها كأنها لم تكن ونهتم بما فارقنا اوطاننا واجتمعنا هنا لاجله . هوذا قيصرية امامكم ! والملك العادل حاميا ! فهل بنا اليها “

وحينئذ رأى رتشرد ان يرسل الملكة الى الدير لتكون مدة غيابها في أمن من غزوات العرب وغاراتهم فارسلها مع رئيس الاساقفة واوصاه ان يبذل جهده في اقناع شقيقته بالرجوع الى طاعته



ولما بلغ رئيس الاساقفة الدير دعا الراهبات اليه واطلمهن على سبب محيئ متيلدة والملكة اليهن وبعدما اوصاهن بالصلاة لاجل نجاح البعثة ونصرتها صرفهن وخلا بمتيلدة وقال لها "لو اطلعني على قصدك وكلفتني ان اساعدك على اتمامه لدلتك على طريقة اليق بك واضمن لحفظ شرفك فكنت اصحبك بنفسي الى هنا واخبر العالم بانني مطلع على مقاصدك وموافق على مقاومتك لاختيك في ما طلبه منك . على ان اصرارك على طلب الاقتران بالملك العادل بعدما رفض شروطنا يعد اثماً عظيماً وذنبا لا يغفر . وبعبارة اخرى اقول لك اني موافق على رفضك الاقتران بلوسيان اذا كنت لا تنوين الاقتران بالملك العادل"

"اني مرتبطة بوعد لا اعلم كيف اتخلص منه . فاذا كنت تحلني من هذا القيد فاني اودع كل ما في هذا العالم واقضي غابر حياتي ضمن هذه الاسوار منسية من جميع بني جنسي كافي في قبر وما لا تراه عيونهم يسهل على قلوبهم نسيانه"

ثم اطلعته بالتفصيل على جميع الحوادث المهمة التي جرت منذ برح عكاء الى قيصرية واخبرته بكل ما عرض لها من المصاعب والمقاومات . فشكرها من صميم فؤاده على شدة اهتمامها بسلامته وارسالها الملك العادل للتفتيش عنه والسعي في انقاذه من مخالب الموت ولكنه لم يستطع السكوت عن لومها على استخدام الملك العادل في هذا السبيل واضطرارها الى وفاء دينه بما هو اعز منه واغلى اذ حملها على ان تعده بانها لا تستعيد نذر البتولية الا برضاه وارانته . ثم اوصاها بان تستودع الله نفسها وتخضع الخضوع التام لقوانين الدير وعاداته وتجاري الراهبات في الملابس والمآكل وفروض الصلاة وطرق العبادة وغيرها

### الفصل الرابع والاربعون

#### معركة قيصرية

وكانت قيصرية قد تمتعت بأسوارها وحصونها وابراجها وخنادقها وعزت فوق هذا كله بقائد حاميتها البطل المغوار الملك العادل فلم تعبأ بروية جيش الافرنج كله زاحفا لمحاصرتها وتوسل العرب غير مرة الى الملك العادل ان يسمح لهم بالحمل على محاصرهم والابقاع بهم فابى لان امانته لاختيه قضت عليه بوجود الدفاع عن قيصرية ولكن حبه لمتيلدة اوجب عليه تجنب سفك دماء الافرنج - وهذا الاعتبار الاخير المكتوم في اعماق صدره لاح تأثيره في اعماله وتصرفاته فظهر عليها شي من التجرد والثوق وهذا فسره الافرنج خوفا



وجبناً فطمعوا به وزادت جرأتهم عليه وواصلوا الحمل والهجوم على الاسوار ورتشرد ولوسيان في مقدمتهم حتى ثغروا جانباً من السور الشرقي واقحموه غير هيايين . واذا بسور من خشب مدهون بزيت النفط قد أُقيم وراءه وأشعل فانقد انقاداً مخيفاً . وفيما هم يستعدون لاجتيازه ابصروا وراءه سوراً ثالثاً مؤلفاً من نخبة رجال العرب ومعهم قائدهم الباسل الملك العادل . فاخذتهم كلهم رعدة عظيمة وسرى خوفه من صف إلى آخر حتى اركنوا جميعهم الى الفرار على رغم اجتهاد قوادهم وضباطهم في منعهم عنه . واذا رأى رتشرد ولوسيان انهما بقيا مع بعض رجالها الامناء عرضة لخطر الاسر لم يجداً بداً من التفتقر فرجعا الى المعسكر بواريان عار فسلهما وينظران في تدبير آخر

وكان رجال الافرنج شعروا بالعار الذي لحقهم من جراء انكسارهم فعزموا على الثبات بنفس واحد . وقضوا اياماً في التأهب والاستعداد لمعركة يجرزون فيها نصراً مجيداً ينسيهم عار انكسارهم . وفي اليوم المعين صوب رتشرد ولوسيان ودوق برجندي حملتهم على جهة معينة وقد اعانتهم الكباش والمجانيق وغيرها من معدات الدك والتدمير على هدم البرج الذي هاجموا وانصبت وراءهم كمان الافرنج يزحمون بعضهم بعضاً لا حتلاله ولكن العرب القوا فيه اكداساً من الهشم واشعلوها وتساعد عنها سحب دخان كثيف كادت تخنق المهاجمين ولما اضمحل الدخان انكشف وراءه سور منيع مرصوص بالرماح والحراب والمزاريق وقد أُقيم على غاية ما يستطيع من الضبط والاحكام حتى ان الناظر اليه لا يستطيع ان يرى واحداً من الرجال الذين اقاموه . وقد حاول الافرنج عبثاً وباطلاً ان يتقدموا ويحترقوه فصدوا ولم يستطيعوا . وكان رتشرد قائماً بجانب لوسيان فقال له : —

” ان هذا المانع الذي اعترضنا الآن لم يخطر قط ببالنا . لكن قيصرية لا بد من اخذها على كل حال . فلنتقم هذا السور امام رجالنا واذا لقينا حنقنا به فقد نفيد الهاجمين وراءنا ونعد لهم سبيل اختراقه “

فصاح لوسيان برجاله وقال : —

” ان اكاليل الاستشهاد وراء هذا السور واذا اردتم الحصول عليها فاتبعوني “  
ثم حمل على السور وتبعه رجاله على الاثر ولكنهم اخذوا يسقطون في اسفله صفاً بعد صف حتى اضطر لوسيان الى التكوص وهكذا فعل دوق برجندي  
اما رتشرد فكان قد نفذ من ثغرة الى خندق وقام فيه وحده مكافحاً مجالداً وقد انساه حمسه انه اصبح وحده . فلما رآه العرب عرفوه واخذوا ينادون بعضهم بعضاً : —



” هذا ملك انكلترة ! هذا قلب الاسد ! “

وقال واحدٌ وقد عرفه الملك جيداً : —

” هذا رتشرد ! رتشرد على الاقدام ! ائتوهُ بجوادٍ ! “

فاطاعوا امر قائدهم واتوا الملك بجواد كريم ورجعوا الى المدينة حيث كان الملك العادل مشغولاً بترميم الاسوار المتهدمة . وعاد رتشرد الى المعسكر يتعثر باذيال الخيبة والفشل وقد اذله الانكسار واحفظه تفضل عدوه عليه بمعروف جديد

ووقف لوسيان في خيمته يغشاهُ الدم والغبار ويقبله الغيظ على احرق من النار واخذ يفكر في امره فرأى ان شجاعته كذبتهُ ولم تمكنهُ من نيل الظفر الذي علل نفسه به وعزم ان يناله بوسائل اخرى يخفيها عن رتشرد لعله انه ينكرها عليه ولا يسمح بها اذا غايرت قوانين الشرف ولو آلت الى فتح القدس

ولكنهُ مع هذا كله عزم على استخدام هذه الوسائل ولما دخل اليه ملك انكلترة لم يكلمهُ شيئاً بخصوصها بل قال له : —

” لا فائدة من محاولة استئناف الهجوم . ومن الواجب علينا ان نطلب في مكانٍ آخر انتصاراً مهماً يشدد عزائم رجالنا . وهذا يقضي بقسمة قواتنا وتحويل احدنا لمهاجمة صلاح الدين وبقاء الآخر هنا يرقب حركات الملك العادل ويحول دون خروجه لنجدة اخيه . فازحف يجيشك على صلاح الدين وانا التي الملك العادل “

فوافقهُ رتشرد على هذا الرأي واطلع بقية القواد عليه وانقسم الجيش الى قسمين قسم تولى رتشرد قيادته وخرج به الى جهة عسقلان . والقسم الآخر جعلت قيادته العامة بيد لوسيان واقام الافرنج في معسكرهم منقطعين عن الهجوم وانتهمز الملك العادل هذه الفرصة فاكب على اصلاح ما تهدم من الاسوار والحصون

وفي ذات يوم نزل بعض جنود العرب الى خندق للترميم فلقوا احد جنود الافرنج قائماً هناك يراقب حركاتهم فقبضوا عليه واتوا به الى اميرهم . فلما رأى الملك العادل اضطرب جداً فظن الملك العادل ان اضطرابه ناشئ عن الخوف فاحتقرهُ وقال له : —

” اليس في معسكر الافرنج جندي اربط منك جأشاً واشدُ بسالةً واقداماً فيرسل في هذه المهمة الخطيرة ؟ “

” ان اضطرابي لم ينشأ يا مولاي عن خوفي على حياتي التي لا قيمة لها بل عن توبيخ الضمير لحياتية ذكرتها حين رأيتك ! “



” اية خيانة تعني ؟ تكلم “

” يجب ان احديثك على انفراد “

فاوماً الملك العادل الى الحاجب الواقف امامه ان ينصرف وألقى العربي نفسه عند

قدميه وقال بلهجة ذل وانكسار يقطعها التنهد : --

” لا استحق الحياة بعدما شاهدت بعيني اذلال متيلدة . ولا بداً انها الآن تلومك اشد

اللوم على تأخرك عن اغاثتها وانقاذها ! “

” اخنصر وصرح ! “

” اخاف غضبك فلا اجسر ان اصرح “

” منحنك عفوي . اسرع في الكلام واخنصر “

” شكراً لك يا مولاي . لعله لم يفت وقت التدارك والتلافي “

” خلّ عنك الاطالة والتفصيل واخبرني بالاخضرار فقد فرغ صبري “

” لما رأى رتشرد انه لا فائدة من تكرار الحمل والهجوم على اسواركم زحف بنصف

الجيش على عسقلان لىباغت السلطان ومجوعا رهربه من وجهه . وظل لوسيان قائد الجيش

العام في المعسكر

” وبعد انطلاق ملك انكلترة اخبر لوسيان قادة الجيش قائلاً ” ان رتشرد سيرتج

في طريقه الى عسقلان على دير الكرمل حيث ينتظر مجيئي ويرأس احتفال اقتراني باخذه

الجميلة فننتقم كلانا من الملك العادل ونقضي على آماله “

” وشخص لوسيان الى دير الكرمل مصحوباً ببعض الحراس الذين كنت واحداً منهم .

وقد كذب على قادة الجيش وضباطه . وسعي بابعاد رتشرد لئتمكن من اتمام مقاصده . وقد

شاهدته بعيني منتهكاً حرمة الدير ورأيت اميرة انكلترة واقفة بين يديه خاشعة ذليلة وهو

ساذ اذنيه عن سماع توسلاتها . وقد امر ان تزين كنيسة الدير وتعد للاحتفال بصلاة

الاكليل في القد

” ولما رأيت هذا كله هاجت بي عاطفة المرؤة والشفقة على تلك المنكودة الحظ وقلت

لعي اتمكن من السعي في انقاذها مما يتهدها . ولهذا لم البث ان خرجت تحت جنح الظلام اجده

السير حتى بلغت اسوار قيصرية وطفقت اطوف حولها متوقفاً بفروع صبر ان يقبض علي احد

رجالك ويحضرني اليك . واعظم جزاء اتوقعه منك هو ان تأذن لي في البقاء في قيصرية لكي

انجو من عقاب لوسيان واتمكن فيما بعد من القيام بخدمة سمو الاميرة متيلدة “



فوعدهُ الملك العادل باجابة سؤاله وتلطف جدًّا في شكره والثناء عليه ولما اقبل الليل دعا اليه خالدًا ومحمدًا اشدَّ رجالة اخلاصًا وامانةً وقال مخاطبًا ثانيهما : -  
 ” ان امرأ ذا شأن يستدعي غيابي عن قيصرية مدة يومين وساقمك على حراسة المدينة والدفاع عنها . وقد بلغني من مصدر يوثق به ان رتشرد ولوسيان غائبان عن المعسكر وان الافرنج لا يجسرون على الهجوم مدة غيابهما . واما انت يا خالد فانخب لي ثلثين رجلاً من افضل رجالي امانة وشجاعة واقداماً واعدهم لعمل مخوف بالمخاطر لاني عازم على مهاجمة عدوي ابنا وجدته ولو كان مخفوراً بالوف من الابطال الصناديد “

### الفصل الخامس والاربعون

#### اختطاف متيلدة

وما ابطأ خالد ان اعدّ الثائنين فارساواتي بهم الى الملك العادل فركب في مقدمتهم وقام ينهب الارض فاصداً جبل الكرمل . وعند طلوع الفجر اقبل على الدير وكان من شدة عدوه واسراعه سابقاً لخالد وبقية رجاله . فاخذ بعنان جواده ريثما لحقه خالد فقال له مشيراً نحو الدير : -

” ان لوسيان هناك “

” او لاجله جئت الى هنا “

” جئت اطلبه لاعاقبه على كذبه وانقذ متيلدة من يده “

” لو علمت هذا في قيصرية لما وافقتك ان تجيء الاعلى جثتي “

فلم يحفل الملك العادل بكلامه بل ظلّ يعدو مسابقاً البرق ورجاله يجرون وراءه حتى بلغوا الدير واخترقوا حجاب السكوت السائد هناك بصليل اسلحتهم وخفق نعالهم وكانت بوابته الكبيرة مقللة فامر الملك العادل بفتحها ودخل يجوس خلاله مفتشاً لعله يجد اثر اعدوه واخذ يصغي فلم يسمع سوى اصوات ترنيم الراهبات فسار في جهة الصوت حتى بلغ كنيسة الدير فدخلها فراهامزدانة بالرياحين والازهار ومغشاة بدخان الخبث ومنارة بالشموع . وكان رئيس اساقفة صور قائماً بجنته الاسقفية ويداه ممدودتان كأنه يبارك الراهبات الجائيات امامه يجالل سود وفي وسطهن متيلدة قائمة بجلمة بيضاء

ولم يتعوّد الملك العادل رؤية مثل هذه الشعائر من قبل فظنّها من شعائر الزواج الذي أنذر به . نعم انه لم ير لوسيان هناك لكنه ظن ان ساعة حضوره في الاحتفال لم تأت بعد



تفانته الصبر ولم يعد يمكنه الاحتمال وزعق زعقة اصدت لها جوانب الدير واندفع الى الامام  
ورجاله وراءه وهو يصيح : —

” اني هنا يا لوسيان ! تعال خذها من يدي ان استطعت ! “

ثم تقدم دأساً او طارحاً كل ما اعترضه في طريقه حتي بلغ المذبح حيث التجأت متيلدة  
من شدة الخوف فحملها بين ذراعيه وصاح : —

” اخرج ايها الامير الكاذب والمملك المنافق . اخرج من مخبئك فان المملك العادل  
في انتظارك : “

ووقف ينتظر مجيء عدوه وسيفه مسلول وشعر الغيظ ينتظير من عينيه لكن لوسيان لم  
يأت . فارتاب المملك العادل من امره واوجس خوف مكيدة . فرجع ادراجه بما استطاع  
من السرعة ورئيس الاساقفة واقف كأنه مصعوق لا يبدي ولا يعيد والراهبات تفرقن في  
جوانب الدير شذر مذر من شدة الخوف والذعر

ولما بلغ سفح جبل الكرمل رأى ينبوع ماء بارد فانزل متيلدة عنده وغسل وجهها  
فأفاقت من اغماؤها وفتحت عينيها بما لا مزيد عليه من الدهشة والاستغراب وبعد ما استرجعت  
شيثاً من رشدها وصوابها قالت للملك العادل : —  
” ماذا فعلت ؟ “

” انتقدتك مرة ثانية “

ثم جاءه خالد وحذره عاقبة الاقامة في هذا المكان فنهض بالاميرة الى جواده وامر  
رجالته بالمسير . فقالت له متيلدة : —

” ما هو الخطر الذي تهددني وحملك على انتهاك حرمة هذا الدير ؟ “

” لوسيان العازم على اخنطافك “

” لم اره قط منذ برحت عكاء واذا صبح ما قاله رئيس الاساقفة فان اخي عدل عن  
اكراهي علي زواج لا ارضاه وترك لي حرية وقف حياتي لخدمة الله “

” اذا لا صحة لما قصه علي احد جنود الافرنج من جهة عزم لوسيان علي تزوجك  
عنوة علي رغمتك ؟ “

” لا صحة له علي الاطلاق . وليست قصته سوى مكيدة كادوها لك “

” وراك الله شرطي شي ! لا بد ان يكون اعدائي كامنين لنا في الغابة التي امامنا . واخاف  
ان اذهب بك الي قيصرية . ولا فائدة لنا من محاولة الرجوع من حيث اتينا لانهم لا بد “



ان يكونوا قد احدقوا بجبل الكرمل . هذا فضلاً عن انه لا يمكنني ان اطيل مدة غيابي  
عن قيصرية التي اودعني اياها اخي . فاين اذهب ! اين اوارى خجلي ! ”  
ثم وقف ودعا اليه خالدًا واستشاره في امره لعله يرى له رأياً مفيداً وبعد التأمل  
والافتكار قال خالد : —

” اذا لم نخي ذا كرتي فلا خوف علينا . فاني اعرف مغارة كبيرة طويلة مقابل معسكر  
الافرنج عند طرف قيصرية الغربي . فاذا ذهبنا اليها دخلناها وبلغنا المدينة منها سالمين آمنين  
” قال الملك العادل اذا لم يكن وسيلة اخرى للنجاة فلنسرع اليها جهداً  
فتحولوا عن الطريق التي كانوا سائرين فيها واتجهوا جنوباً وساروا في غابة كثيفة بين  
الادغال والاشواك وقضوا ليلهم والنهار التالي في قطع السهول الشاسعة التي بين الرملة  
وقيصرية وقاسوا من المشاق والاعتاب ما لا يوصف حتى كاد يقضي عليهم جميعاً من شدة  
الاعياء وفرط الجوع والعطش . واخيراً بلغوا المغارة وهم على آخر رمق وبعد ما استراحوا فيها  
قليلاً اخترقوها وانتهوا الى منفذ منها يؤدي الى قيصرية فاشرفوا عليها من جهة بوابة عمر وراوا  
اعلام العرب على الاسوار والجوامع والى الشمال معسكر الافرنج في هدوء وسكون والقمر خالع  
على المدينة وضواحيها حلاله الفضية

ولما بلغوا بوابة عمر قرعوها باسم الملك العادل ففتحت لهم على الفور ولقيهم رجال مسلحون  
فأمّنوا بجراسيتها وهم في زي العرب وشكلهم . فحيّاهم الملك العادل فرحاً مسروراً وقال لهم : —  
” يسرني جداً ان اراكم سالمين آمنين وان يدي رثشرد ولوسيان لم تصبكا باذى ”  
وما كاد ينتهي من كلامه حتى اطبقوا عليه وعلى رجاله من كل جانب وجردوهم من  
اسلحتهم بسرعة لم تمكن احداً منهم من الدفاع عن نفسه بضربة او طعنة . فنظر الملك العادل  
حوله مأخوذاً بدهشة وحيرة لا مز يد عليهما وقال : —  
” اين انا ؟ ”

فاجابه لوسيان من وسط رجاله المتكرين : —

” انت في قبضة الافرنج — في يد لوسيان . وقيصرية ومثيلدة لي وانت اسيري ”

فسقط الملك العادل في يده ورأى جميع الوجوه التي حول نظره اليها مشرقة بنور  
الانتصار والفرح بسقوطه فنكس رأسه واسلم يديه للقيود التي امر لوسيان رجاله  
ان يوثقوه بها —



## الفصل السادس والاربعون

” ذنبٌ من اعظم ؟ “

وفي صباح اليوم التالي جالست متيلدة في احدى غرف القصر الذي يسكنه لوسيان ملك القدس واذا بخادم يستأذنها في مجيء الملك اليها وقبلما تمكنت من ردّ الجواب بالرفض وعدم القبول جاء لوسيان على اثر خادمه ودخل الغرفة

فانفضت الاميرة من شدة الكره والاشمزاز وغشيت وجهها صفرة الغيظ والحلق ونهضت من كرسيها راقدة لوسيان بهين الاستفهام وقالت

” افانت يا ملك القدس سيد قيصرية وصاحبها ؟ حقاً اني لما شاهدت يدي باسل صنيدي موثقتين بالسلاسل علمت يقيناً ان اخي غائب “

” ان الافرنج مديونون لي بهذا الانتصار الباهر واني لا عجب كيف ان الاميرة متيلدة لا تشاركهم في الفرح والابتهاج “

” كنت أسرّ جداً لو لم يكن شرفهم اعزّ اليّ من انتصارهم او لو لم يكن هذا الانتصار نتيجة الخيانة . . . . “

” بالجهد يستطيع اعداؤنا ان يشكونا شكوى امرء من هذه “

” نعم ولكنها لا تزيد عما كان يشكوه رتشرد لو كان هنا . فان نفسه الشريفة نقرّ من خيانة كهذه . او نظن انه لو كان قلب الاسد هنا كان بأذن ليديك ان توثقا يدي من احسن اليه وتفضل غير مرّة عليه ؟ “

” لملك تجهلين ان سلطتك عليّ محدودة والآن تجدرني ان تعظي في مسمعي عدواً اصبح مرجع امره في الموت والحياة اليّ “

لا اهرب جانبك في دفاعي عن الملك العادل . وارك تدعي ان سلطتي عليك سبب امتناعك عن ارتكاب عمل دنيء وحشي . وفي هذا الادعاء ما فيه من حطة الشأن التي لا ارضاها لك لان اميراً مثلك يترفع حتى عن الافكار بارتكاب جرم قبيح كهذا . وماذا يقول بقية امراء الافرنج ؟ الم يبق لهم حق ولا سلطة ولا رأي . هل يذكرونك نتصرف في اعظم بطلٍ قام على الارض بما تشاء ؟ “

” انا وحدي سيد قيصرية واميرها وانا وحدي دبرت طريقة اسره “

” ما دمت انت السرّ في نجاح هذا المشروع الشريف فعليك اذاً يجب ان تلتق مسؤوليّة



انتهاك حرمة الدير الذي كنت لاجئة اليه لانه اذا كان الفعل لغيرك فالفكر لك وذنوب من اعظم؟ الامير العربي الذي ارتكبه ام الامير المسيحي الذي دفعه اليه؟  
 ” اعلمي يا متيلدة اني احبك حباً لا يستطيع ابلغ الكلام ان يعبر عنه . وقد حصلت عليك الآن فلا افارقك الا بعد ما افارق روحي . ولا اكتمك اني بعد ما يتست من امتلاك محبتك واحترامك لم يبق لي ما اخش خسرانه او ضياعه سوى شخصك . وقد اصبح هذا الآن في قبضة يدي فلا ادعه يفلت مني . واعلمي ان الملك العادل موتاً يموت اذا لم تصيري لي هذه الليلة “ . ثم دنا منها وقال لها : -  
 ” قولي لي الآن . هل تخناريني زوجاً لك ؟ “

فابتعدت عنها بيدها وقالت : -

” لن اكون مدى حياتي ! ان موت الملك العادل نفسه ايسر خطباً من ان اكون زوجة لك . “ فقال لها ” سار بك ما افعله به “  
 قال هذا واتجه نحو الباب وتمثل لها هول ما هو مزعم ان يفعله فاسرعت اليه وانطرحت عند قدميه وقالت : -

” ايها الامير القاسمي الظالم ! اذا لم تأخذك شفقة على خصم اعزل ولم ترفق بمن تدعي انك تحبها فاشفق على نفسك . فهل تلطخ يديك بدم رجل اعزل ؟ هل تجور على من حلفت انك تزدود عن جنسها ؟ “

” فقال لها اطلي ما شئت . اطلي حياتي . اطلي كل ما امتلكه او ما ارجو ان امتلكه فيما بعد . اطلي كل شيء ما عدا ابتعادي عنك ! “  
 واذ ذاك دخل احد ضباطه وقال له : -

” لقد بلغ الامراء والضباط خبر اسر الملك العادل فاسرعوا الى هنا وهم يطلبون ان يروك . “ فالتى على متيلدة نظرة ملأت قلبها خوفاً وخرج للملافة زائريه

## الفصل السابع والاربعون

### سجين الملك العادل

وكان الجندي الذي قبض عليه العرب واخذوه الى الملك العادل وقص عليه تلك القصة المنفقة حامل سلاح لوسيان فلما نجحت حيلته وانطلق الملك العادل من قيصرية ابلغ ملك القدس ذلك بسهم رماه الى مكان معين فجمع لوسيان جيوشه واخبرهم بعزمه على



استثناف الهجوم على قيصرية انتهازاً الفرصة غياب الملك العادل عنها . ثم انفذ رسولا الى نائب الملك العادل يطلب مقابلته ولما اجتمع به قال له : —  
 ” اعلم يا محمد اني اتيك بنفسى لأوكد لك بانة لا بد لك من تسليم المدينة الى سيفي الحال . واعلم ايضاً ان الملك العادل في قبضة يدي فقد لقيته في الليل الماضي فجأة وهو خارج من المدينة واعقلته واني اطلب قيصرية في فدائه والآقطت رأسه . وقد امهلتك ساعة للتأمل والانتظار“

ثم انصرف وغادر نائب الملك العادل في حيرة لا مزبد عليها . فجمع امراء المدينة وقص عليهم الخبر فلم يروا بداً من تسليم المدينة افتداء حياة اميرهم . ففتحوا ابواب المدينة للافرنج ودخلها لوسيان برجاله ثملين بخمرة الظفر . وكان اول شيء عني به انه حصر نائب الملك العادل في مكان معين ومنعه عن الخروج والدخول ثم امر بان لا يحدث اقل تغيير في حالة المدينة الخارجية ومظاهر معسكر الافرنج وان اعلام العرب تبقى خافقة على الاسوار والجوامع وان الحراس الذين على الحصون والابواب يتنكرون بزى العرب ويظل الهدوء والسكون سائدين شاملين

فراى امراء الافرنج هذا التحوط والتخز واشتم منه دوق برجندي راحة الخيانة فاستوضح من لوسيان فأبى وانكر عليه حق الارتياح في اخلاصه وذكره اليمين التي حلفها بانة يطيعه مدة غياب رتشرد فاقنع الدوق من هذا القليل لكنه ابى دخول قيصرية قبل ما يقف على كيفية فتحها وامر الجيش الفرنسي الذي تحت قيادته بان لا يبرح معسكره ثم بلغه بعد ذلك ان الملك العادل خدع بمظاهر المدينة فدخلها مطمئناً ووقع غنيمة باردة في يدي لوسيان الذي اذله وامر بان يشد وثاقه كاحد كبار المجرمين وحينئذ لم يرب بداً من دخول قيصرية والاجتماع بدوق بافاريا والبرت نائب النمسا وغيرها من امراء الافرنج الذين حثهم على وجوب سؤال لوسيان عما يروم ان يفعله بالملك العادل . وقد وجد منهم كلهم اذناً صاغية لحديثه وقلوباً مائلة لشد ازرو فذهبوا جميعهم الى قصر لوسيان وطلبوا ان يروه بعد اجتماعه باميرة انكلترة على ما مر بنا

وقد افنتح دوق برجندي الحديث معه بلومه اياه على انتهازه فرصة تجرد الملك العادل من الاسلحة وبطشه به . فاجابه لوسيان : —

” ليس لاحد غير رتشرد حق ان يناقشني الحساب على ما فعلت  
 ” ولكن لا يخفى عليك اننا جميعنا هنا واحد والعمل المعيب الذي يشين واحداً منا



يشين الآخرين ايضاً والشرف يقضي عليّ بالسؤال عما يدنس صحيفتنا البيضاء ولهذا الخ  
 بوجوب الجواب عليّ سؤال من جهة ما تروم فعله بالملك العادل  
 ” وماذا يكون حكمك عليه لو سلمت امره اليك ؟ “  
 ” ان يحل وثاقه ويطلق سراحه في الحال “

فوجه لوسيان حينئذ كلامه الي جميع الامراء وذكروا مرارة النذل والانكسار والحرب  
 التي تجرعوها مرة بعد مرة في جميع المعارك التي خاضوا غارها وكان الملك العادل يثير غبارها  
 ويوقد نارها وانذرهم بما في اطلاقه من الخطر والضرر هذا فضلاً عن ان امر اطلاقه غير  
 منوط به بل هو من حقوق رتشرد وقد ارسل يخبره بذلك ليرى ما يأمر به من جهته . ثم  
 عرض عليهم ان يرسل الملك العادل الي عكاء ليكون بعيداً عن ساحة الحرب حتى يصدر  
 حكم الملك رتشرد في مسأله

وقد سبك كلامه هذا في قلب المداهنة والمواربة نخلب قلب سامعيه يسبح مكره وخداعه  
 حتى اجمعوا كلهم علي قبول رأيه ولم يعودوا يرون وجهاً للمعارضة . وفي تلك الليلة أرسل  
 الملك العادل مع فرقة من الجند الي عكاء

اما رئيس اساقفة صور فانه بعد ما تمكن من تسكين روع الزاهبات وارجاع سلام الدير  
 وراحته الي نصابهما خرج يطلب الاميرة متيلدة ويسعى في انقاذها  
 وبعد ما سار مسافة ليست بقصيرة في طريق قيصرية لقي فصيلة من جند الافرنج يقيمون  
 في غابة علي جانب الطريق فقال اليهم وسألهم بعض مسائل لعله يستفيد منهم شيئاً عن  
 جهة مسير خاطفي متيلدة فاجابه قائدهم : —

” اعلم يا ابي ان قيصرية في يدنا . ولوسيان الامر الناهي فيها واميرة انكلترة في قصره  
 ونحن الآن راجعون من عكاء بعد ما اودعنا الملك العادل غيابات سجونها “

ثم عرضوا عليه ان يذهب معهم الي قيصرية فأبى وشكرهم معروفيهم ودعا لهم بالسلامة  
 فساروا وتركوه يرشف راحة المسرة بنبا هذا الانتصار الجيد الذي حازه شعبه لكنه ساءه  
 جداً سجن الملك العادل فذكر فضائله ومحامده وفضله ومعروفه وتناهي زلاته حتى جريمة  
 انتهاكه حرمة دير الكرمل وعلي الفور أخذ عصاه بيده وسار قاصداً عكاء

ولما بلغ ابوابها علم بهياج الشعب الشديد ومحاولتهم كسر ابواب السجن للفتك بالملك  
 العادل وان هذا الهياج كان بايعاز سري من لوسيان

فاسرع الي السجن وطلب الي السجن ان يذهب به الي حيث كان الملك العادل فهبط



به اقصى درك معدّ لكبار الجناة المجرمين وادخله حيث كان الملك العادل وخرج فلما شعر  
الملك العادل بقدمه وتمكن من رؤيته على رغم الظلام الدامس الخيم هناك قال له :-  
” اصحیح ان اسقف صور الصالح قادم اليّ ليزورني في ضيقتي  
” اتكل على الله فهو ينقذك ويعيد لك حريتك “

” لا يقدر ان يعيد اليّ شرفي الذي بفقده وجدت انّ على الارض ما هو شرّ من  
فقدان متيلدة “ . ” ثق يا ابني ان الله قادر ان يردّ لك اضعاف ما فقدت “

” لا . لا . لا . لم يبق لي في هذه الحياة سلام ولا رجاء . فقد خنت اخي وتخلت عن  
المدينة التي استودعنيها واخذتُ باشرارك عدوّ خائن غدّار ثم القيت في اعماق هذا السجن  
مكبلاً بالقيود كادني العبيد لا موت موت الاثمة الاشرار “

” لا لن تموت وقد سنحت لي فرصة لا وفيك مالك عليّ واعيد لك حريتك “  
” ولكن هل تعلم اني اذا خرجت من السجن انضمّ الي اخي صلاح الدين لانتقم لي وله  
واسترجع قيصرية ؟ “

” لا حاجة لك ان تخبرني بهذا لاني لم اسألك عما تروم ان تفعله “

فقبض الملك العادل على يديه قبضة حبّ واعزاز وقال له :-  
” اعلم يا ابني افضل ان اموت هنا على ان اخذك . فهل انت باق تروم اطلاقي  
بعد ما علمت اني عدوك ؟ “

” الست انت الذي انقذ حياتي في دمشق ويافا ؟ الست انت الذي حل وثقي في  
دمياط ؟ الست انت الذي ارجعني غير مرة الي قومي الذين لم انفك عن حضهم وحبهم  
على القيام عليك وعلى شعبك ؟ فلماذا اكون دونك فضلاً واحساناً وكرم اخلاق وفي امكاني  
ان اكون مثلك ؟ والرحمة افيد لمصلحتنا من الغلبة والظفر “

ثم حلّ وثاقه وسار به في سرب طويل ينتهي تحت سور المدينة وله هناك باب مريّ  
قديم مجهول حتى عند رؤساء السجن وحفظتها . فلما انتهيا اليه استعان بقوة الملك  
العادل على فتح بابه الحجري ثم عطف عليه وعانقه وقال له :- ” اذمب بسلام “

فقال له الملك العادل والدموع تنهل من اجفانه :-

” اني اكرم المعنقد الذي ينشئ مثل هذه الشائل الحرة والفضائل الطاهرة التي فيك  
وفي متيلدة — قل لي الا ارى متيلدة بعد الآن ؟ “

” لن تراها بعد . انها لله . خلّ عنك الافتكار بها “



” اذ احيها عني وقل لها اني ارد لها الوعد الذي اخذته منها فهي في حل منه . واني اطلب اليها ان تقف نفسها لله . وهي ستدرك معنى كلامي هذا . الوداع ايها الاب الصالح . اني عاجز عن شكر ما لك علي من الفضل والمعروف . واذا لم نجتمع في هذا العالم فلي ثقة انك تزور قبوري وتذرف علي دموع الحزن والاسف “

ثم خرج وعين الاسقف ترعاه حتى تواري عن نظره فرجع ادراجه الى السجن وجلس حيث كان الملك العادل واذا بصحيج وصياح وزحام خارج السجن ثم فتح الباب ودخل جماعة من السوق السفلة على رغم توسلات السجنان واندفعوا الى حيث كان الملك العادل طالبين البطش به فوجدوا رئيس الاساقفة جالسا بلاء الرصانة والاطمئنان ولما دنوا منه قال لهم : —  
” من تطلبون ؟ “

” فقالوا اخا صلاح الدين الذي ذبح نساءنا واخوتنا واولادنا والذي اخنطف مدينة القدس منا “

” فقال ليس هو ههنا . وقد قتت مقامه . وجعلت نفسي مسؤولا عنه . وها انا امامكم فافعلوا بي ما شئتم “

فتراجعوا عنه الى الوراء وابدوا شيئا من الوقار والاحترام لكن واحدا منهم تقدم وصاح : —

” من اطلق الملك العادل ؟ “

” فاجابه اطلقه من ارسلني لا عصب منكسري القلب لا نادي للمسيبين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ! “

واذ كانوا يجهلون باب السجن السري الذي خرج الملك العادل منه بهتوا وتعجبوا ولم يشكوا في مداخلة الله في هذا الامر ولاج رئيس الاساقفة لعيونهم ملاك انقاذ وخلص مرصلا من الله تعالى ليحول دون مقاصدم الاثيمة فخشعوا واستكانوا وعادوا من حيث اتوا وكان علي رؤوسهم الطير



## الفصل الثامن والاربعون

”حقاً اني مجرم اثم!“

كأني بامراء الافرنج وكبرائهم استأثروا جداً من عمل لوسيان المهين المعيب فارادوا اخفائه بما استطاعوا من المحامد والمكارم التي تسابقوا الي فعلها وقد رأينا رئيس الاساقفة مخاطراً بنفسه في سبيل انقاذ الملك العادل . ونزيد علي ذلك ان رتشرد كتب الي لوسيان ملك القدس من معسكره امام عسقلان يقول : —

”تراحمي الي“ اخبار سوء عنك فيصعب علي تصديقها . علي انه لا بد لي ان اسألك عما حملك علي تكبيل البطل الذي عفا مرتين عن حياتي وحريتي ؟ وكيف يصح ان يكون الملك العادل اسيراً حيث لوسيان الأمر النهائي ؟ هذا لا استطع تصديقه ولا بد ان يكون الملك العادل الآن قد انضم الي اخيه ولوسيان قادم الي ليسانديني علي قهر خصمه في ساحة النزال وفي وسط الغابة التي اجنازها الملك العادل بعد ما خرج من السجن لقي فصيلة من جنود الافرنج وكان اعزل من غير سلاح فتوقع الهلاك لا محالة . ولكنه عرف قائدها دوق برجندي عندما دنا منه وقال له : —

”ايها الملك اني اياك طالب . وقد أرسلتُ سرّاً من قبل الاميرة متيلدة لاحرسك في السجن ولكنني لم اجدك هناك ومن ذكر اسم رئيس الاساقفة علمت انه اتاك واطلق سبيلك فهنا جواد واسلحة فاركب واذهب اسنرداً مقامك في جيش صلاح الدين . اما انا فساذهب اولاً الي الاميرة متيلدة لاخبرها بانني اتممت امرها ثم اسرع الي ملاقاتك في ميدان الطعن والضرب في سهل عسقلان“

فلم يعجب الملك العادل من هذه الشهامة لانها كانت شيمة الفرسان حينئذٍ فركب الفرس ونقلد الاسلحة وسار حتى بلغ عسقلان فرأى السكوت والخمول سائدين عليها . ولما دخل قصر اخيه قال له صلاح الدين : —

”لم اتوقع ان اراك هكذا بعدما استودعك قيصرية“

”حقاً اني مجرم اثم وقد دنست اسم الايوبيين ولست مستحقاً ان ادعي اخاك . لاني استهنت باقدس واجباتي“

”قل لي باية معجزة تمكن لوسيان من اخذ قيصرية منك ؟“

فقص عليه الملك العادل تفصيل كل ما حدث ولم يحاول ان يبرر نفسه من تبعه خطاه



فقال له اخوه :-

”ان محمداً وخالداً هنا وقد اخبراني بكل ما قلته لكنهما لم يعظما لي خطاك كما عظمتك انت . والآن قل لي على اي شيء عزمت؟ اي تعويض مزعم ان تعوض شعبك وبلادك؟“  
”اجمع قواد جيشك ودع محمداً يقص عليهم تفصيل ما اصابنا وبطلهم على اسباب ذلك . وانظر ما يحكمون به علي ولا تتأخر عن تنفيذي“

فجمع السلطان امراءه وقادة جيشه وامر محمداً فقص عليهم تفصيل ما جرى في قيصرية بالحرف لم يخف عنهم شيئاً . ولما فرغ من حديثه التفت صلاح الدين الى الامراء والقادة وجميع نواب الشعب الذين دعاهم الى حضور هذا الاجتماع وقال لهم :-

”اذا كان بينكم شخص واحد يرى الملك العادل غير اهل لاسترجاع مقامه ورتبته في جيشنا فاني مستعد للعمل بموجب رأيه“

ثم نظر فرأى جميع الوجوه شاخصة اليه والدموع تنهل من سماء الاجفان وسمع الشفاه تنطلق بالدعاء للملك العادل والجميع مبتهجون بشوق رجوعه الى تولي قيادة الجيش العامة . ولا حظ للملك العادل نفسه هذا الامر فتأثر منه الى الغاية ونهض والدمع مالى عينيه وقال :-  
”ارجو ان اكون في المستقبل موضوع ثقتكم كلكم . فقد دفنت جميع آمالي في اكفان الماضي ووقفت نفسي منذ الآن على خدمة سلطاني وبلادتي“

## الفصل التاسع والاربعون

### معركة عسقلان

ولما ذاع في قيصرية خیر نجاة الملك العادل لم يستطع احدٌ كشف طريقة نجاته سوى لوسيان فإنه حالاً عرف الرجل الذي يقدم على مخالفة اوامره وعلم ان لاسقف صور وحده حق دخول السجون بلا معارض . وعرف ايضاً ان ذلك الاسقف لا يهتم بالتباهي بهذا العمل اكتساباً لمدح الناس وشكرهم فحاول ذخّر هذا الفخر لنفسه واشاع انه هو الذي ارسل رئيس الاساقفة لاطلاق الملك العادل

وتعجب الافرنج عند سماع هذه الاشاعة وكثيرون منهم شكوا في صحتها . وبلغت رئيس الاساقفة عند دخوله قيصرية فلم يجب على الاسئلة التي وجهت اليه بخصوصها بسوى السكوت وسار توّاً الى قصر لوسيان



ولما خلا به وبجته تويجاً شديداً على عمله المعيب فاعترف به ولم ينكر منه شيئاً وحاول ان يقنعه بان مصلحة البعثة تقضي باخفاء هذه المعاييب وأنه انما نسب اطلاق الملك العادل اليه ليسكن هياج الشعب وتذمرهم من جهته وتوسل اليه ان يثبت هذه الاشاعة ويصدقها فاجب عليه ذلك وانحى عليه باللوم الشديد ووجه سهام طعنه على الخصوص نحو كبريائه وتشاخصه وانذرته بانه اذا عاد مرة اخرى الى شيء من مثل هذا اطلع الناس عموماً على صفاته الحقيقية وجعله مضطراً في افواه المخنقرين والمستهزئين

وبلغ رتشرد ان الملك العادل انضم الى اخيه فارسل في الحال وطلب حضور لوسيان اليه بجميع الجنود التي تحت قيادته وارعز الى اخيه متملدة بالحضور اليه مع ملك القدس فاطاعت الامر مكرهة وذهب رئيس الاساقفة معها

وكان رئيس الاساقفة قد ابلفها خبر اطلاق الملك العادل وانه ابرأها من وعدا له فشعرت بأن العالم بأسره لم يبق له اقل حق عليها وعزمت ان تستعد لاسترجاع نذورها والاتقطاع الى الابد عن افراح الدنيا واحزانها وكل ما يتعلق بها . واطلعت اخاها على ذلك فغاضبه جداً لانه جاء على خلاف ما كان يرجوه ويتوقعه منها ولا سيما بعد ما اكتسب لوسيان حسب اعتقاده شرف فتح قيصرية فسألها عن تأثير غضبه فيها فقالت : —

” اخاف من تأثير فيك واما في فلا تأثير له على الاطلاق لان نصيبي تحتم ولا يثني عنى سوى الموت وهذا لاخوف منه عندي ابداً “

فتعجب رتشرد من ثبات عزمها الذي لم ير له شبيهاً عند اربط الرجال جاشاً واثبتهم عزماً . ورأى نفسه مضطراً للاذعان والانقياد الى سلطة اديبة سامية رآها في من لم يبق للعالم سلطة عليها وقد لاحت لعينيها أشبه شيء بهلاك سماوي . وبعد مضي يومين شاهد الافرنج كتائب العرب خارجة من ابواب عسقلان فاستعدوا هم ايضاً للقتال

وخلا لوسيان بجامل سلاحه الذي استعان به على اخذ قيصرية واسر الملك العادل وكان رجلاً محنلاً ساقط المروءة كثير الجشع والطمع وقد استعبده ملك القدس بالبذل وسخره لاتمام مقاصد الاثمة . فقال له : —

” اني عازم على شيء ذي شأن في هذا اليوم المهم . يجب ان التقي الملك العادل . ولا يهمني ان اذوق كاس الخوف على يده بشرط انه لا يجيأ بعدي دقيقة واحدة فابق بجاني مدة المعركة ولا تفارقني طرفة عين . واذا تمكنت من اجنابيه وابعاده عن رجاله فاتبعني



واذا رأيتني مستظهِراً عليه فالزم السكون ولا تبدِ حراكاً . ولكن اذا سقطتُ فاني اعتمد على امانتك واخلاصك . لا تنس اباك ان تبقى حياً بعدي ”

ثم خرج جيش الافرنج من المعسكر للملاقاة جيش صلاح الدين . وكان رتشد القائد العام فوقف على مرتفع اشرف منه على اطراف الجيش وشاهد الكتائب كلها مستعدة تمام الاستعداد ومصطفة بكمال الترتيب والنظام فشاقه منظرها المهيب وصاح من شدة غره واعمجابه : —

” اللهم كن على الحياد يكن النصر لنا ”

ثم برز الجيشان وهما متساويان في الحمية والحماسة واخذا يقتربان احدهما من الآخر شيئاً فشيئاً حتى تلاقى الابطال وتلاحموا وتزاحموا وحمي وطيس الطعن والضرب وثار الغبار فوقهم فحجبهم عن الابصار واصدت التلال والاوادية بصليل الاسلحة وصهيل الخيل وانين الجرحى

وكان لوسيان يصول ويردي ويصرع ويحندل بياس شديد وعزم يفل الحديد وقد احفظه جداً انه لم يلق من يطلبه وزاد بأسه وعزمه اشتداداً فانصر في القلب وكان الظفر حليف رتشد في الميسرة اما جيش الميمنة فلم يستطع الثبات امام صلاح الدين . على ان ذلك لم يضعف عزم الافرنج بل زادوا ثباتاً واقداماً . واذا بالملك العادل ظهر في ساقتهم فزعزع اركانها وانقضت على الميمنة فضضع رجالها وعطف على القلب فقطع عزائم جنوده وحول كفة النصر الى جهة العرب . فشق ذلك على لوسيان وعزم ان يستميل خصمه اليه ويلهيه بنزاله ويمكن الافرنج من استرجاع مراكزهم واذا دارت عليه الدائرة فهو واثق انها تدور ايضاً على عدوه بفضل خادمه الذي لم يكذبه قط . فنادى الملك العادل ودعاه الى مبارزته فلم يجفل به وعزم ان يتجنب المبارزة في ذلك اليوم لئلا تحول دون احراز النصر الذي اراده

لكن لوسيان تبعه من مكان الى آخر واسرف في تعبيره وتحقيره حتى هاج ساكن غضبه ولم يعد يمكنه الصبر عليه وظن انه في بضع دقائق يقطع لسانه البذيء ويسرع الى ساحة القتال قبلما يشعر احدٌ بخروجه منها . فنادى لوسيان وقال له : —

” لتسرع الى اطفاء نار الحقد التي تغلي في قلبينا ”

فتبعه لوسيان وخادمه وراه حتى بلغ الملك العادل صخراً كبيراً قائماً وراء ساحة الجيش يحجبهما عن النظر والتي ترسه جانباً وقال لخصمه : —

” لتجنب وسائل الدفاع تعجلاً للدقيقة التي تنقطع فيها انفاس احدنا المعدودة ”



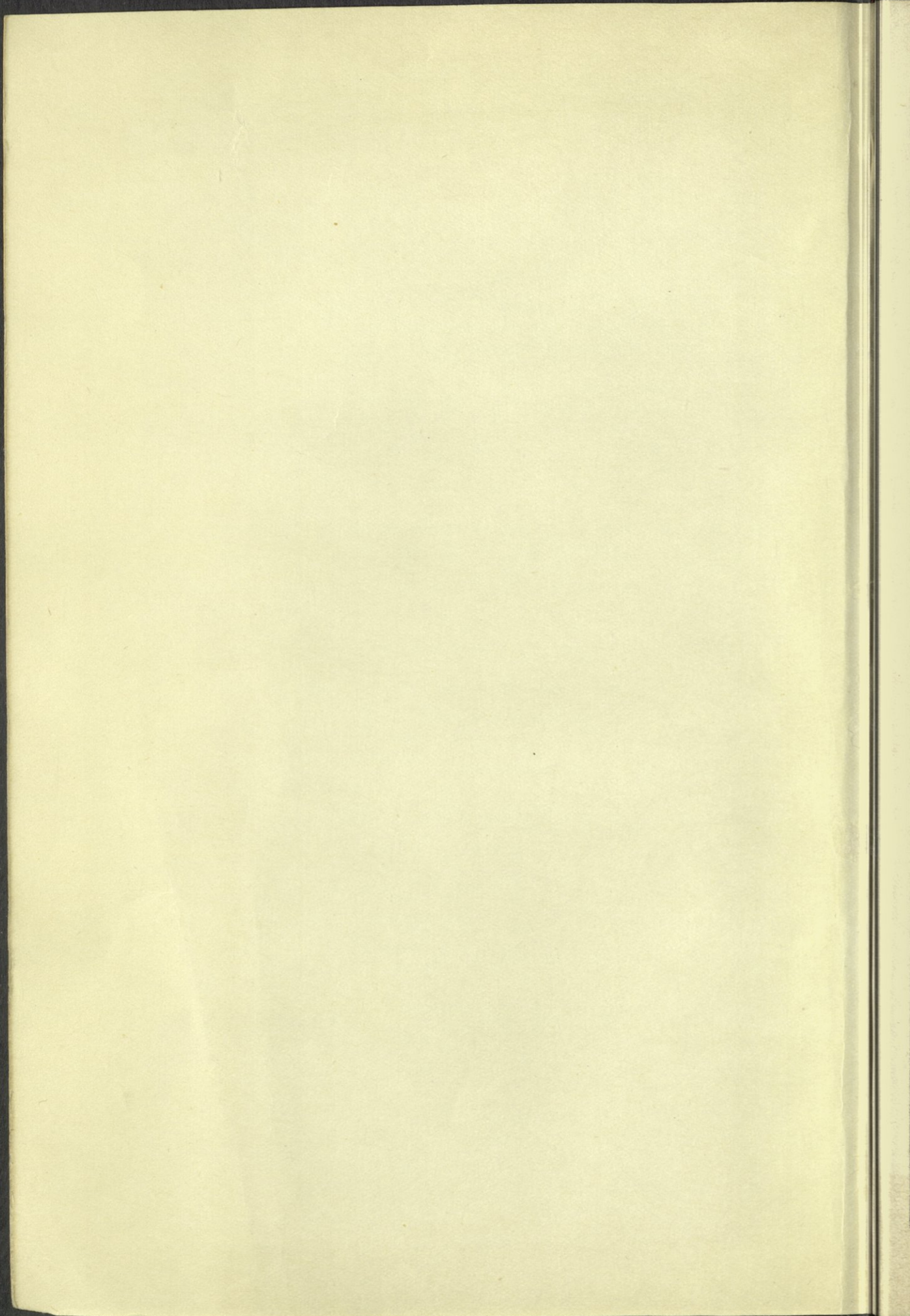
فحذا لوسيان حذوه واستل سيفه وابتدأ الصدام وبعد اخذ ورد وكثر وفر عاجل الملك العادل لوسيان بضربة من سيفه اصاب رأسه وفلقت خوذته وصبغت وجهه وعينيه بالدماء . فخلع الملك العادل خوذته وتوقف عن استئناف الضرب ليتمكن خصمه من الثبات في موقفه . ولكنه لم يتمكن من موقفه حتى التي بنفسه فجأة بلا اقل انذار على الملك العادل فلم يستطع ان يدفعه عنه وأصيب منه بجرح في فخذه . وحاول لوسيان اعادة الكرة عليه فخلا الملك العادل من طريقه وابتدره بضربة أسالت دماؤه . ثم غير لوسيان بفتة خطة قتاله وتحمل بصبر هجمات عدوه غير متمدد حد الدفاع وخلا من ضرباته دائراً حوله بسرعة مدهشة محاولاً ملاشاة قوة خصمه الآخذة في الانحطاط بالارهاق وفقد الدم - لكن الملك العادل سئم هذه المحاولة والمطاولة وقبض على لوسيان بيد كأنها من حديد ورمى به الى الارض وانطرح فوقه ورفع يده واجهز عليه واذا بحامل سلاح لوسيان الذي شاهد المعركة من اولها ورأى سيده طريحاً تحت خصمه قد اسرع من ورائه ليبتدره بطعنة خنجر في صدره وقبل ان يفعل ذلك سمع صوتاً ارتجت له الجبال والاوودية فالتفت واذا برتشرد قلب الاسد يقول له خل عنك ايها الغدار ثم ترحل وامسك بيد الملك العادل وقال له واحدة بواحدة ايها الملك فاني استطيع الآن ان اروي سيفي بدمك ولكن حاشا لي ان افعل ذلك بمن من علي بانقاذ حياتي وحياة كثيرين من رجالي ثم اعنقته واركبه على جواده وارسل معه من سار بركابه الى ان وصل الى اخيه . وتمادن الملكان الى ان عقدت شروط الصلح

### الخاتمة

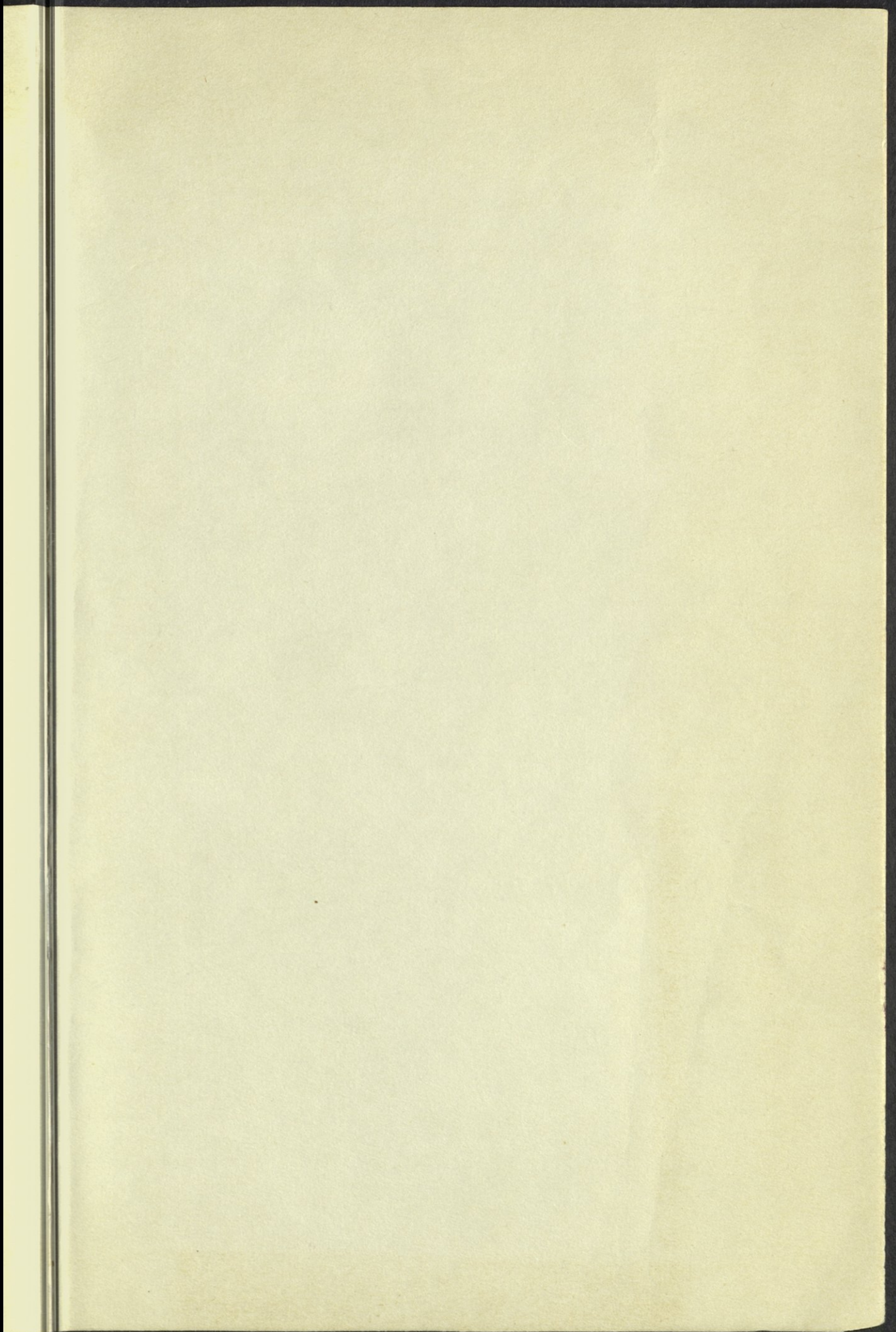
وبعد سنة كانت اخت رنشرد واقفة في احد ابراج دير الكرمل فرأت في البحر سفينة عليها شعار الاسرة المالكة في انكلتره ومقدمها متجه غرباً نحو ارض ميلادها . لان رنشرد وبرنغاريا وباقي النسبائها واصدقائها كانوا راجعين الى الوطن . فتنهدت تنهد الاسف لكنها عادت فافتكرت انها لاتزال في البلاد التي يملكها من ملك فوادها . فبدت على وجهها ابتسامة عزاء كفكفت دموعها لانها لاتزال معه في بلاد واحدة ولو لم تره إلا بعين الخيال

تمت

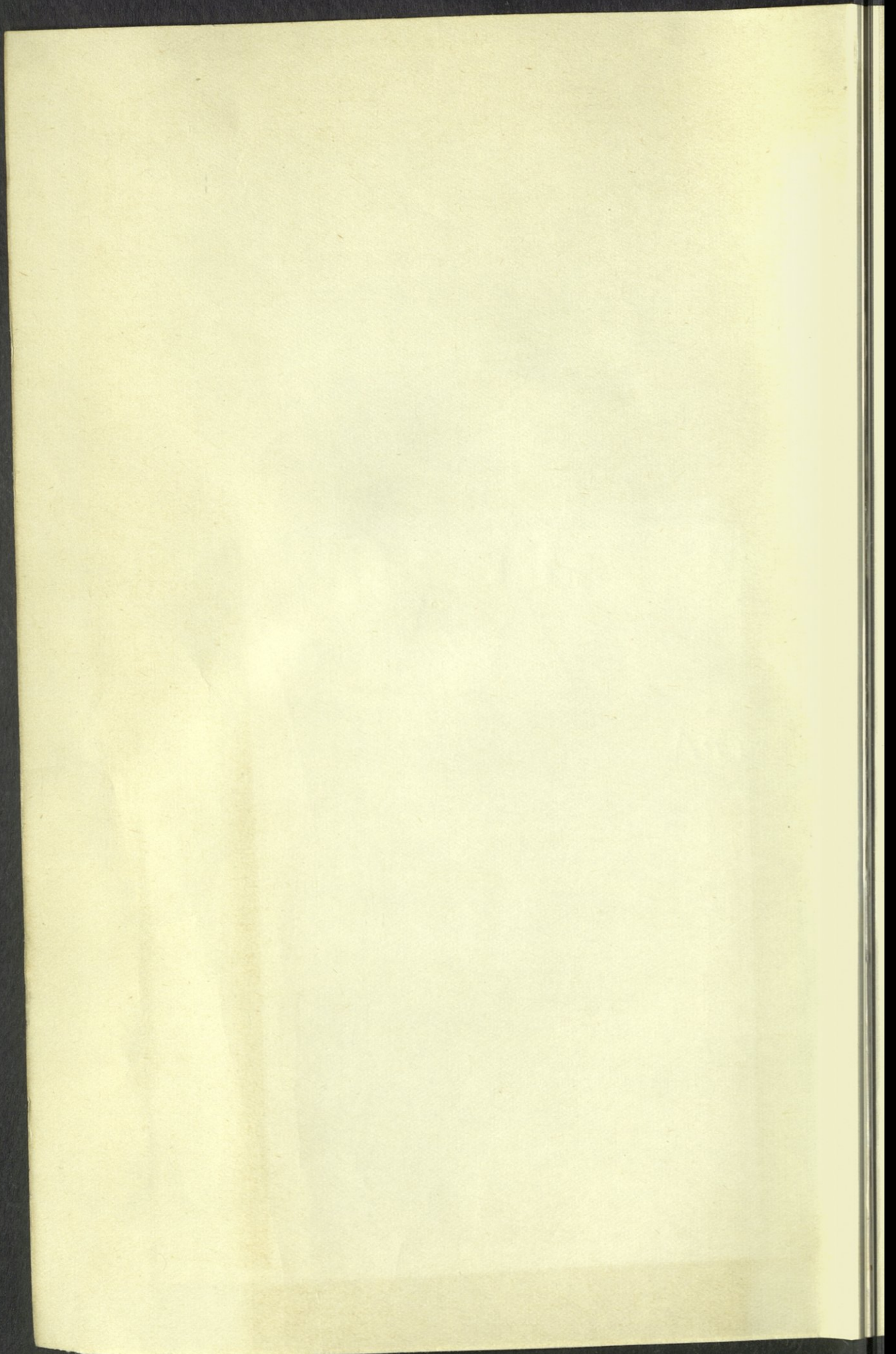














DATE DUE

JAFET LIB.

~~14 OCT 1950~~

~~SEP 1951~~

JAFET LIB.

~~SEP 1951~~



848.C871.A.1

داغر، اسعد خليل  
رواية أميرة انكليزية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031387

848





818